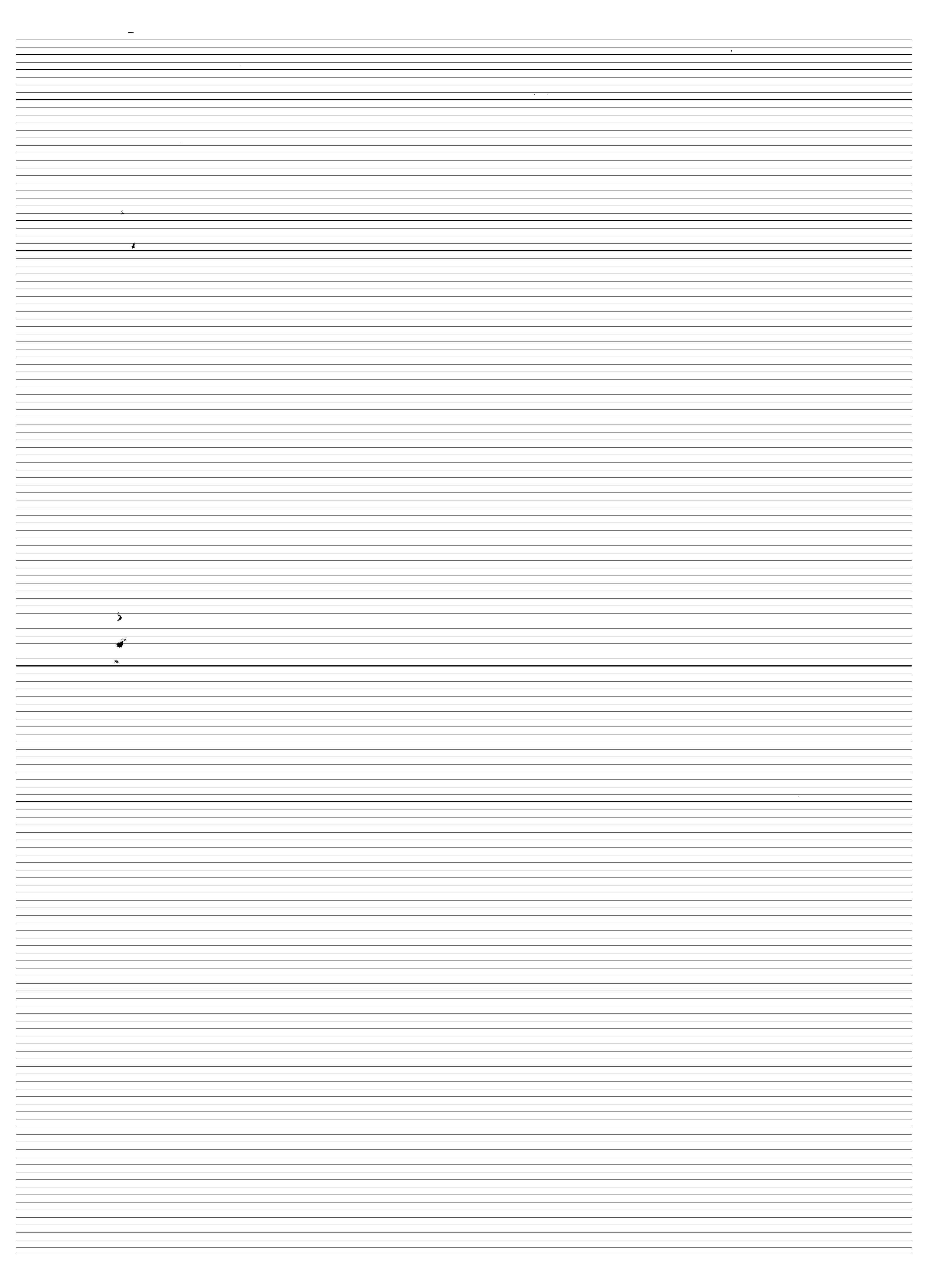
الدهر في شعر أبي تمام

تأليف
الدكتور/ كمال عبد الباقي لاشين
الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية بالقاهرة

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م



إهـــداء

إلى روح أبي : نَدَّى اللهُ تُربتَــه،ونَوَّر حُفرتَه،وغَفَرزَلَّتَــه،وآنَسَ وَحشَتَه،وجَعَل ثَوَابَ ما قُمْتُ بــه فِـــي هــذا البَحْـــث ،فـــي مَـــوَازِين حسنَاته،وجمعنِي به في جَنَّتِه.آمين



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــــــم

الحمد لله مصرف الدهور، ومدبر الأمور، خالق الحياة والموت، وباعث من في القبور، نشكره على نعمائه، ونرضى بابتلائـــه؛ فإنعامـــه رحمة، وابتلاؤه لحكمة. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، الذي بعـــث بالحق، ونطق بالصدق، وحكم بالقِسْط، وأقام في الناس ميـــزانَ العـــدل، ورضي الله عن آل بيته الأطهار، وصحبه الأخيار، وعن شـــهداء هـــذه الأمة المخلصين، الأولين منهم والآخـــرين، وعـــن وُلَاتهـــا العـــادلين، وعلمائها العاملين، وعبادها العالمين، ودعاتهـــا الصـــادقين. جعلنـــا الله معهم، بفضل حبنا إياهم، ودعائنا لهم، وإن كنا لم نعمل بأعمـــالهم، ولـــم نبلغ في البذل والمجاهدة مراتبهم.

وبعد

فقد قيل في الحكمة السائرة على وجه الدهر: رب ضارة نافعـــة، ورب عطية في طي بلية، ومِنْحة في أثناء محنة، وبذل في أعقاب منع، وعطاء في أثر سلب، ولو علم الخلقُ ما في الابتلاء من لطيف التقـــدير، وخفي التدبير– لعدوا البلوى في جملة النُّعمى، والمحن في عداد المـــنح، وإلى هذا المعنى ذهب من قال:

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظُمت ويبتلي الله بعضَ القوم بالنعم

ومن قال:

لا تكره المكروه عند حلولـــه إن العـــواقب لم تزل متباينةْ

كم نعمة لا تستقل بشكرها   لله في طي البلايا كامنة[1]

ولله لخلقه اختيارات، وللناس لأنفسهم أهواء، وما ارتضى الله لعبد أمرا، فاختار العبد لنفسه غيره، إلا وجد مع الأيام أن ما اختاره الله له خيرٌ مما كان اختار لنفسه، وقد رأيت من نفسي مثل هذا: فلولا قدر من الله سبق بإسقاط بحث لي في التحكيم العلمي، لما كان لي -على الأرجح- أن أنجز هذا البحث، مع أن اشتغالي به قديم، وتفكيري فيه عتيق، وجل مادته العلمية مجموع في أوراق منذ سنين.

وفيَّ عادة أعرفها من نفسي، وهي: أني أتخير موضوعا ما لدراسته، فأختار له مراجعه ومصادره، وأجمع له مادته، وأكثر من القراءة فيه وحوله، وأطيل التفكير فيه، وأقلِّب الرأي، وأكون قاب قوسين أو أدنى من إنجازه والفراغ منه؛ فيعرض لي في أثناء ذلك موضوع آخر، فأَدَعُ الموضوع الذي كنت فيه أولا، وآخذ في الموضوع الذي عرض لي!!، فأختار له مراجعه ومصادره، وأجمع له مادته، وأكثر القراءة حوله والتفكير فيه، وأمضي في إنجازه فأفرغ منه، وقلما عدت بعدها إلى الموضوع الأول، والأكثر ألا أعود إليه؛ بل أنصرف عنه، وأزهد في إتمامه، فيبقى ميتا في أوراقي!!، وقد يكون إنجازي الموضوع الأول أجدى وأنفع ، لأن قيمته العلمية أعلى وأكبر، ولكن هكذا تمضي معي الأمور، والمرء مغلوب- كثيرا- بما يهوى ويحب، مدفوع بهما عما هو له أنفع، وعليه أجدى.

---

(١) أدب الدنيا والدين :٢٦٦،٢٦٧.

ولا أعرف لهذه العادة من تفسير إلا أن يكون ما طُبع عليه الإنسان، ورسخ في جبلته من الزهد فيما بين يديه، وفيما ظن أنه صار في ملكه، أو أوشك أن يصير، وتعلُّق قلبه بما بعُد عنه، وتطلعه إلى ما خاف فوتَه. وقد يكون من وراء هذا أيضا فرطُ محبة للعلم تحمل على الولع بشوارد الفكَر، وسوانح الخواطر، وفلتات الفطن، ضنا بها أن يخبو ومضها، وتنطفئ لمحتها، وينقطع سببها. فإن لم يكن هذا أو ذاك تفسيرا لهذه العادة فلا أعرف لها تفسيرا، وما أكثر ما يجهلهَ الإنسان من أمر نفسه.

وفي صيف عام ست وتسعين وتسعمائة وألف تقريبا شغلت نفسي بقراءة ديوان أبي تمام الطائي ، بحثا عن موضوع يستحق الدرس أو ظاهرة تستدعي مزيدا من البحث، فكان من جملة ما لاحظته: أن أبا تمام يذكر الدهر في شعره فيكثر من ذكره، ويذمه فيسرف في ذمه، ويشكوه فيطيل الشكوى منه، ويصوره في خلال هذا بصور شتى أكثرها مذموم مستقبح، فاستوقفني ذلك.

ثم نظرت مرة أخرى فوجدته يفعل ذلك في سائر أطوار حياته، وكل أدوار عيشه، مذ كان فتى حدثا في مصر، يسعى إلى اكتشاف نفسه، ويتلمس له في الحياة طريقا، إلى أن صار كهلا مجربا، وشاعرا جهير الصوت، قد علا نجمه وذاع صيته في الشام والعراق وما حولهما، ونظرت مرة ثالثة فوجدته يفعل ذلك في سائر أغراض شعره، حتى في الأغراض التي لم تجرِ عادة الشعراء قبله بأن يشتكوا الدهر فيها. فرأيت هذه الظاهرة من الظواهر التي تستدعي مزيدا من الدراسة والبحث في شعر أبي تمام.

ولن ترى أبا تمام في أكثر شعره إلا ذاما للدهر، ناقما عليه، جائرا بالشكوى منه، حتى إنه ليخيّل إليك أن الدهر صار له رصَدا، يقعد له بكل سبيل، ويلقاه بكل فج، وبات له عدوا حانقا يبغيه الغوائل، ويثنيه عن كل نُجْح، ويكدر له صفو كل عيش. فليست هذه النزعة الدهرية في شعر أبي تمام إذن نزعة عرضية، أو أمرا عابرا، بل هي ظاهرة متأصلة في شعره، ينبغي أن يُسأل عن أسبابها في نفسه وعقله، وعصره؛ ولهذا كان الحديث عن الدهر في شعر أبي تمام مفضيا لا محالة إلى جوانب عدة من: حياته ونشأته، وأصله ونسبه، وعصره وبيئته، ونفسيته وشخصيته، وطمعه وطموحه، وتفكيره ومعتقده، وثقافته، ومرويِّه الشعري، بل وإلى مذهبه وطريقته أيضا لأن بعض الصور الشعرية التي صوّر أبو تمام عليها الدهر لا تكاد تفهم إلا من خلال فهم طريقته، ومذهبه في التصوير الشعري.

وما كتب عن أبي تمام ، قديما وحديثا أكثر من أن يحاط به[1]. وقد قرأتُ منه قدرا صالحا ، فلم أقف على أحد من الدارسين انتهى إلى أشعار أبي تمام الدهرية في ديوانه ، فأفردها بدراسة مستقلة تفسرها ، وتحللها، وتكشف عن بواعثها في نفسه ، وفي عصره ، وعن صداها في شعره، وفي فنه .ولا أعلم– أيضا– أحدا فعل ذلك مع غير أبي تمام، من الشعراء ،الذين ذكروا الدهر في أشعارهم ووصفوه ، مع أن الشعراء الذين ذكروا الدهر في أشعارهم ، قبل أبي تمام وبعده كُثُرٌ، قل ذكرهم للدهر أو كثر .

---

[1] راجع : ببلوغرافيا : أبو تمام : حياته وشعره في المراجع العربية، والأجنبية ، لكوركيس عواد ، وميخائيل عواد .

وللدهر ذكر في كثير من أشعار العرب ،ومنثور كلامهم منذ العصر الجاهلي، وإحساس شديد بوطأته؛ حتى سموا به ،فكان في العرب القدماء من اسمه: دهر، وهو: دهر الجعفي، وكان في زمان مزاحم بن الحارث العقيلي الشاعر(١).

هذا . وفي شروح الشعر، وكتب الأدب القديمة أشارات يمكن أن تكون منطلقا ، لهذا البحث وأشباهه: من ذلك ما ذكره التبريزي، عند شرح قول أبي تمام ، في مدح أبي العباس: نصر بن منصور بن بسام:

أما وأبي أحداثِه إن حادثا   حَدَا بي عنك العيسَ للحادثُ الوغد

قال:"ويجوز أن يعنى بـ" أبي أحداثه ":الدهر، والشعراء مولعة بذمه"(٢). وأوضح منه ماذكره المرزوقي، عند إيراد قول قتادة بن مسلم الحنفي،وهو جاهلي:

ما كنتُ أول من أصاب بنكبة   دهرٌ، وحي باسلون صميم

قال:"وهذا على عادتهم، في نسبة الحوادث إلى الدهر، كما قال بعضهم:

يادهر قد أكثرت فجعتنا   بسَرَاتنا ووقرت في العظم(٣)

---

[1] انظره في : طبقات فحول الشعراء :٢/٧٧٠وهامش(٣) منها .

[2] شرح ديوان أبي تمام : ٢/ ٨٤. وفي الأصل: يغتي بدل يعني ، وهو تصحيف ظاهر . هذا .وفي كل موضع من البحث يذكر فيه : شرح التبريزي لديوان أبي تمام ، سأعبر عنه اختصارا بـ: " ديوانه "، فتنبه .

[3] انظر هذا البحث : ص

فأما تنكيره الدهر، فقد حُكي عن أبي زيد، وأبي عبيدة، ويونس: أن الدهر، والزمن، والحين، يقع على محدود، وغير محدود، وعلى عمر الدنيا، من أوله إلى آخره. وقال الخليل: "الأبد: الدهر الممدود. ويجعل اسما للنازلة"، ويقال دهر من الدهر، لبعضه، كما يقال: حين من الدهر، وقد اشتق منه، فقيل: إنها لداهرة الطول: أي طويلة جدا.."[1].

وذكر البكري بيتين نسبا لأبي نواس، وهما:

باح لساني بضمر السر وذاك أني اقول بالدهر

وليس بعد الممات منقلبٌ وإنما الموت بيضة العُقْر

وعقب عليهما بقوله : " وهذا شعر دهري زنديق "[2]. وأنت واجد أمثال هذه الإشارات كثيرا في شروح الشعر القديم ، في كل موضع يرِد فيه ذكر الشعراء الدهرَ ، وذمهم له ، ونسبتهم الفعلَ إليه .

وأوضح من كل ما سبق قول أبي العلاء المعري، في معرض حديثه عن أبي الطيب المتنبي:"..وأما شكيتُه أهلَ الزمانِ إليه[3]، فإنه سلك في ذلك منهاج المتقدمين، وقد كثر المقال في ذم الدهر، حتى جاء في الحديث:"لاتسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر"[4]. وقد عُرِف معنى هذا

---

[1] شرح الحماسة : ٧٦٦/٢

[2] السمط : ٥٢٣/١. وهما في الموشح : ٤٢٧ وفيه : مرتجع في موضع منقلب .وقيل في بيضة العقر : إنها بيضة الديك.العُقْر التي تجرب به المرأة أثيب هي أم بكر . من تفسير أبي عبيد البكري .

[3] الضمير في :" إليه" عائد إلى الدهر نفسه؛ لأن أبا الطيب قال : أذم إلى هذا الزمان أهيله .. البيت " وهو مما عيب عليه . انظر الغفران : ٤٢٦ الحاشية : ١

[4] رواه البخاري ومسلم

الكلام، وأن باطنه ليس كظاهره، إذ كان الأنبياء عليهم السلام، لم يذهب أحد إلى أن الدهر هو الخالق، ولا المعبود. وقد جاء في الكتاب الكريم:"وما يهلكنا إلا الدهر"[١] .وقول بعض الناس:"الزمان حركة الفلك" لفظ لا حقيقة له. وفي كتاب سيبويه: ما يدل على أن الزمان عنده: مضيُّ الليل والنهار. وقد تعلق عليه في هذه العبارة. وقد حددته حدا ما أجدره أن يكون قد سُبق إليه، إلا أني لم أسمعه، وهو أن يقال: الزمان شيء، أقل جزء منه يشتمل على جميع المدركات، وهو في ذلك ضد المكان، لأن أقل جزء منه، لا يمكن أن يشتمل على شيء، كما تشتمل عليه الظروف، فأما الكون فلا بد من تشبثه، بما قل وكثر.

والذين قالوا :"وما يهلكنا إلا الدهر"، وغير ذلك من المقال، مثل البيت المنسوب للأخطل، وذكره حبيب بن أوس لشمعلة التغلبي، وهو:

فإن أمير المؤمنين وفعلَه　　لكالدهر لا عارٌ بما فعل الدهر

وقول الآخر:

الدهر لاءَمَ بين ألفتنا　　وكذاك فرَّق بيننا الدهر

وقول أبي صخر:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها　　فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

=لم يُدع أن أحدا منهم، كان يقرب للأفلاك القرابين، ولا يزعم أنها تعقل، وإنما ذاك شيء تتوارثه الأمم، زمانا بعد زمان، وكان في عبد القيس شاعر، يقال له :"شاتم الدهر"، وهو القائل:

---

[1] الجاثية : ٢٤.

ولما رأيتُ الدهر وعْرا سبيله وأبدى لنا وجها أذب مجدّعا

وجبهةَ قرد كالشراك ضئيلة وأنفا، ولوّى بالعثانين أخدعا

ذكرتُ الكرام الذاهبين أولي الندى وقلت لعمرو والحسام:ألا دَعَا[١]

ثم قال أبو العلاء بعد هذا: "والزنادقة هم الذين يسمّوْن الدهرية، لا يقولون بنبوة، ولا كتاب". وعقد فصلا طويلا، ذكر فيه أسماء كثير ممن نسب إلى الزندقة في الإسلام، وفي الأمم الأخرى[٢]. وأنت تلاحظ أن أباالعلاء -رحمه الله- قد أربى في حديثه عن الدهرية في الشعر، على مَن تقدمه، وكشف فيه عن تعمقه، وتدقيقة، وواسع ثقافته، فحقه أن يعد في أبرز من نبه على الدهرية في الشعر.

وأجمع فصل في الدهرية في الشعر، وقفتُ عليه ما أورده الشريف المرتضى في موضعين من أماليه، فإنه ذكر هناك كثيرا من الأشعار الدهرية[٣]، التي قيلت في الجاهلية والإسلام، وضمنها كثيرا من التعليق والتفسير، لظاهرة الدهرية في الشعر[٤].

***

([1]) رسالة الغفران: ٤٢٦-٤٢٨. وانظر تخريج ما في النص، في حواشي الصفحات.

([2]) الغفران :٤٢٨-٤٧٨.

([3]) أردت بـ" الأشعار الدهرية " في هذا الموضع وغيره : الأشعار التي ذكر فيها الدهر ووصف

([4]) أمالي المرتضى : ١/١١٩،٤٦،٤٥-٢٦٤.

ومعلوم أن أبا تمام هو شاعر الإغراب في اللفظ ،والتعمق في المعنى، والتفنن في التصوير، والتلطف في صنعة البديع: يَدِب إلى المعاني في مكامنها، ويفض بكارتها ، ويفتق عنها كمائمها، ويفتح عن لآلئها أصدافَها، ويعدل عن ثيبات الصور إلى أبكارها، ويدع مبتذلها وقريبها ، ويكدح في طلب مصونها وبعيدها، ولا يعجبه الشعر عاطلا عن حلْيه وزينته ، ولا يرضى إلا بأن يحلي جيد قصائده بكل طريفة من حُلَى البديع.

هذا مذهبه الذي به عرف، وطريقته التي إليها ينسب، وهذا هو ما شغل نقاده ودارسيه قديما وحديثا، فمن راض عن طريقته، معجب بها، متأول له ما عيب عليه فيها، ومن ساخط على شططه في طريقته ، وجموحه في مذهبه، لا يلتمس له عذرا، ولا يتأول له عيبا .ومن متوسط في حكمه يمدح حسنه، ويذم رديئه، وكلهم مشغولون بطريقته ومذهبه. وبقيت بعد ذلك ظواهر معنوية وأسلوبية، في شعر أبي تمام فيها بقيةٌ للدارس، وفضلة للباحث، منها –فيما أعلم –هذا الموضوع الذي نحن بصدده: "الدهر في شعر أبي تمام".

وهذا البحث يفضي بالباحث لا محالة إلى تتبع العوامل التي أوجبت شكوى أبي تمام من الدهر، والسياقات التي وردت فيها هَذه الشكايات من الدهر، والمعاني التي ولَّدها منها، والصور الشعريةَ التي صور عليها الدهر: ما تابع منها فيه غيره، وما ولده هو أو ابتكره، وأشياء أخرى، يستوجبها الدرس والتحليل، وتدعو إليها الموازنة والنقد.

وإذا كان أبو تمام اشتكى دهره وذم زمانه، واشتكى الشعراء قبله وبعده أدهرهم، وذموا أزمنتهم؛ فنحن اليوم في ذلك مثلهم؛ بل نحن أولى

بهذا منهم؛ لأن دهرنا أسوء من دهورهم، وزماننا أقـبح مـن أزمنـتهم فنحن في زمان سوء، كثر شاكوه وقل شـاكروه، زمـانٍ يُـرى كثيـراً وهو عنيف بالأحرار مُزْرٍ بالكرام، مقدّم للضَعَفة من غير ذوي المروءة، مؤخِّر لذوي الفضل . زمان هو في أكثر شأنه جائر حكمه، مطفَّف كيله، مخسر ميزانه،

ولكن شكوى الزمان وإن كان فيها بعض راحة للـنفس = مـن جملة الحمق، فالزمان ليس بمعتب من يجزع ، ولا بمداو مـن يجـرح، ولا بمرض من يسخط، لا يبالي بمن شتمه، ولا يحنو على من اشـتكاه وخيرٌ من ذم الزمان الرضا بما يأتي به، والاحتيال له ، والصبر عليـه. والخير والشر في هذه الدنيا كفرسي رهان يسبق هذا مرة، ويسبق هـذا مرة، وليس سبق الشر دليلا على أنه فارق شريته، ولا تأخر الخير دليلا على أنه فارقته خيريته. والكيس من قدم الرضا وأخر السخط، ،والـذين ذموا الدهر من العقلاء ومنهم أبو تمام لم يَغِب عنهم هذا المعنى . ولكن أنى لنا بالصبر ، والنفوس على ما طبعت عليه وجبلت.على أن مجاهـدة النفس خير من مشايعتها على ما تهوى ..نعوذ بالله من الضـلال بعـد الهدى ، ونسأله من القول والعمل ما يرضى . وأثني على أخي الـدكتور علاء السيد ،الذي أعانني بتنسيق مادة هذا البحث على الكاتـب الآلـي . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمـد ،وعلـى آلـه وأصحابه أجمعين.

وكتبه:أبو حازم : كمال عبد الباقي لاشين

الفصـــل الأول

الشعـــراء والدهـــر قبل أبي تمام

لم يكن أبو تمام أول من اشتكى من الشعراء دهره وذم فعله، بل سـبقه إلى هذا كثير من الشعراء، في الجاهلية والإسلام ، اشتكوا أدهرهم كما اشتكى، وذموا أزمانهم كما ذم. فهذه الظاهرة قديمة إذن قدم ما وصلنا من الشعر العربي، وما أراها إلا ظاهرة عامة في سائر أشعار الأمم، وفي كل قرون الزمن.

وليس القصد في هذا الفصل إلى أن أذكر لك كل شعر قيل في ذم فعل الدهر، أو أن أسمي لك كل شاعر ذم فعله، وإنما القصد أن أختار من الأشعار التي ذكر فيها الدهر، وذم فعله قبل أبي تمام ، ما يُعرف به أن هذه الظاهرة قديمة في الشعر العربي، وأن أذكر لك ألفاظهم التي استعملوها في التعبير عن الدهر وفعله، والمقامات التي ذكروا فيها الدهر ، والسياقات التي سيق فيها، والمعاني التي ولدوها في حديثهم عنه، والصور التي صوروا بها الدهر، وأن أكشف عن دوافعهم ومعتقدهم في ذلك، حتى إذا صرنا إلى تتبع هذا كله في شعر أبي تمام، عرفنا موقع هذا الظاهرة من شعره، قياسا إلى من كان قبله من الشعراء، وما أخذه فيها من غيره، وما أضافه من عند نفسه.

وقد اقتصرت من الشعر الدهري[1] على ما جُعل فيه الدهر صانعا، ونسب إليه فعل يفعله بالأحياء، لا ما كان الدهر فيه ظرفا

---

١. أردت بـ " الشعر الدهري " حيث ورد من هذا البحث : الشعر الذي ذكر فيه الدهر وفعله ، وإن لم يكن دالا على أن قائله ممن يقول بالدهرية .

للأفعال لا أثر له، ووعاء للأحداث لا محدثا لها، ومفعولا فيه لا فعل له، من مثل قول: عمارة بن عوف العدواني، من المعمرين[1]

عُمرتُ دهـــرا ثـم دهـــرا وقــــد آمــل أن آتــــي علـــى دهـــــرِ

فـــإن أمُــت فـــالموت لـــي خيــرةٌ مـــن قبـــل أن أهـــذي ولا أدري

خمسون لــــي قـــد أكملــت بعـــدما ساعدنــــي قرنان مـــن عمـــري[2]

فالدهر في هذا البيت، وشبهه بمعناه اللغوي، وهو الزمن طـــال أو قصر ، ولا فعل له.

وقد يرى القارئ أني أشبعتُ هذا الفصل الأول ،وجئتُ فيه بمـــا يربو على الحاجة، وهذا حق ،وإنما حملني على ذلك أني وجدتُ أباتمـــام يتكئ على الشعراء قبله كثيرا في حديثه عن الدهر، في ما أخـــذه مـــنهم من الألفاظ والصيغ والمعاني والصور،وسترى ذلك فيما يتلو من البحث ، وأني لم أقف على أحد من الدارسين أفرد الظاهرة الدهرية في الشـــعر قبل أبي تمام بدراسة مستقلة ؛فأحببت أن يكون الحديث عن "الدهر فـــي شعر أبي تمام" موضوعا في سياق حديث الشعراء قبله عن الدهر.

***

١. ذكره أبو حاتم في المعمرين ، وقال : كان كاهنا ،أدرك أول ولايـــة عمـــر بـــن الخطاب رضي الله عنه ، وقد ذهب بصره وخرف، فكان لا يفتؤ يقـــول : "اقـــروا ضيفكم" . قلت : وأنعم بهذا من خرف . المعمرون : ٣٨، ٣٩.

٢. السابق والصفحة .

الصيغ المستعمله في التعبير عن الدهر وشغله:

الأكثر أن يقولوا: "فَعل الدهر كذا "؛ فينسبوا الفعل إلى الـدهر نفسـه ويذكروه بلفظه وهذا كثير جدا في الشعر قبل أبي تمام ، ومن ذلك مـثلا قول دويد بن زيد بن نهْد:

ألقى عليَّ الدهر رجلا ويدا
والدهر ما أصلح يوما أفسدا
يصلحه اليوم ويفسده غدا[١]

وقول جزء بن ضرار:

وحُدِّثْتُ قومي أحدث الدهر فيهم وعهدي بهم بالحادثات قريـب[2]

وقول الفرزدق:

إذا ما الدهر جرَّ على أنـاس كلاكلَه أناخ بآخريـنا[3]

وقول جريبة بن الأشيم الفقعسي:

إذا الدهر عضتك أنيابُه لدى الشر فازم به ما أزَمْ
ولا تُلْفَ في شره هائبا كأنـك فيـه مُسِرُّ السقَمْ[4]

وقول بشار بن برد:

ذراني أشُبْ همي براحٍ فإنني أرى الدهرَ فيه كُرْبة ومَضيقُ

١. طبقات فحول الشعراء : ١/ ٣٢، وأمالي المرتضى : ١/٢٣٧.
٢.شرح الحماسة للمرزوقي :١/٣٤٤.
٣. السابق :١/٣٤٥.
٤. نفسه :٢/٧٧٥.

وما أنا إلا كالزمان إذا صحـا   صحوت وإن مَاقَ الزمان أمـوق[١]

وكل هؤلاء الشعراء يذكرون الدهر بلفظه ،ويحيلون عليه في الفعـل: فهو –بزعمهم– الذي يطأ الأحياء برجله ويده، ويغْرَى بالكرام ويصطفي خالص مال الممسك البخيل، وهو الذي يرمي الأحياء بكل نازلة ،وينـيخ بكلكله على الناس جيلا بعد جيل، وينشب فيهم أنيابه في كل وقت وحين .وإنما ذكرت هذه الأشعار جميعا، وكان بعضها يجزئ؛ لأدل علـى أن لفظة الدهر مستخدمة في كل العصور .وقد ذكر المرزوقي قول قتادة بن مسلم الحنفي، وهو جاهلي:

ما كنتُ أول من أصاب بنكبة   دهر وحيّ باسلون صميم[2]

ثم قال...: "وهذا على عادتهم في نسبة الحوادث إلى الدهر، كمـا قـال بعضهم ، وهو الأعشى[٣]:

يا دهر قد أكثرت فجعتنا   بسراتنا ووقرت في العظم[4]

فصرح بأن من عادة الشعراء نسبة الحوادث إلى الدهر.

وأحيانا يذكون مضافا إلى الدهر فيقولون مثلا:(صروف الدهر) كقول الفند الزماني، –وهو جاهلي قديم من ربيعة–:

ولا تبقي صروفُ الدهـ   ـر إنسانا على حال[5]

وقول وعلة بن الحارث –من شعراء الوحشيات–:

---

1. الوحشيات : ١٦٤.

2. شرح الحماسة :٢/٧٦٦.

3. انظر ما يأتي : ٢٧

4 شرح الحماسة:٢/٧٦٦.

5. شرح الحماسة : ٢/٥٤٠.

أظن صروف الدهر والحَيْن منهم ستحملهم مني على مركب وعْر[1]

وقول أبي العتاهية:

طوتك صروف دهرك بعد نشر كذاك صروفه نشرا وطيا[2]

أو (خُطُوب الدهر)، كقول النابغة الجعدي:

وقد أبقت خطوبُ الدهر مني كما تبقي من السيف اليماني[3].

أو: (بنات الدهر)، كقول عمر بن قميئة، –وهو جاهلي قديم كـان فـي زمن حجر وابنه امرئ القيس–:

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمي وليس برامِ

فلو أنها نبل إذن لاتقيتها ولكنني أرمى بغير سهامِ[4]

وقول يزيد بن خذّاق:

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ أم هل له من حمام الموت من راقِ؟[5]

وقول ابن الزبعرى:

كل بؤس ونعيم زائل وبنات الدهر يلعبن بكل[6]

أو: (حانيات الدهر) كقول بعضهم، وأنشده الفراء. وذكـر المرتضـى أنهما لأبي الطمحان القيني[7]: من بني كنانة وهو من المعمرين:

حنتني حانيات الدهر حتى كأني خاتل أدنو لصيد

قصيرُ الخطو يحسب من رآني ولست مقيدا أني بقيد7

---

١. شرح الحماسة للمرزوقي:٢/٥٤٠. : ١٣٢.

٢. الوحشيات :١٣٢.

٣. شرح الحماسة : ٢/٧٧٥.

٤. أمالي المرتضى :١/٤٥، ٤٦.

٥. الوحشيات :١٣٢.

٦. طبقات فحول الشعراء : ١/٣٣٧.

7 أمالي المرتضى : ١/٢٥٧.

ويشبهه قول ثابت قُطنة العَتَكي، وهو أموي:

لما حنى الدهر من قوسي وعذرني شيبي وقاسيت أمر الغلظ واللين[1]

أو:(ريب الدهر) كقول عبد مناف بن ربع:

ألا أبلغ بني ظفر رسولا وريب الدهر يحدث بعد حين[2]

وقول فروة بن مسيك المُرادي:

ومن يغرره ريب الدهر يوما يجد ريب المنون له خؤونا[3]

أو:(حدثان الدهر) كقول زهير بن جناب من المعمرين:

ليت شعري والدهر ذو حدثان أي حين منيتي تلقاني

أسباتٌ على الفراش خُفَات أم بكفي مفجَّع حران[4]

وقول أبي كبير الهذلي:

والدهر لا يبقى على حدثانه قُبٌّ يردن بذي شجون مبرم[5]

وأراد بالعلج هنا: الحمار الوحشي.

وقول النابغة.

ومن يتربص الحدثان تنزل بمولاه عوان غير بكر[6]

وهذه الصيغة:"حدثان الدهر" كثيرة الورود في أشعار هذيل، وقد وردت في مواضع عدة من عينية أبي ذؤيب الهذلي في رثاء بنيه..، وسأعود إلى هذه القصيدة . وقال التبريزي في معنى:"والدهر لا يبقى على

١.أمالي المرتضى : /٤٠٧.

٢. أشعار الهذليين:٤٨/٢.

٣.الوحشيات:٢٨.

٤. المعمرون : ٣٥. والمفجع الحران : من قُتِل له فهو يطلب ثأره بجهده .

٥. شرح ديوان الهذليين :١١١/٢.والقب خماص البطون وأراد حمر الوحش . من شرح السكري.

6 ديوانه : ٨١.

حدثانه": هذا الكلام مثل، يقول: إن كان الدهر قد أساء إلـــي ، وفجعنـــي ببَنِيَّ، فمن عادته ألا يسلم على نوائبه شيء"[1].

وربما وردت عبارة: (حدثان الدهر) بصيغة:"مما يحدث الـــدهر" كقول صخر الغي الهذلي:

فذلك مما يحدث الدهرُ إنه   له كل مطلوبٍ حثيث وطالبُ [2]

أو(ما أحدث الدهر) كقول النابغة الجعدي، في مطلع القصيدة التي أنشدها النبي صلى الله عليه وسلم:

خليلي غضا ساعة وتهجرا   ولوما على ما أحدث الدهرُ أو ذَرَا[3]

وربما ذكروا لفظ: "الحدثان" وحده غير مضاف وهم يريـــدون حـــدثان الدهر، كقول أيمن بن خريم الأسدي:

رمى الحدثان نســوةَ آل حرب   بمقــدارٍ سَمَدْنَ له سُمُــودَا...[4]

وقد يعبرون بصيغة : (حتوف الدهر) كقول أبي خراش الهـــذلي في وصف مصرع حمار وحشي:

فخَرَ على الجبين فأدركته   حتوفُ الدهر والحيْن المفيد[5]

وهذه الصيغ التي فيها هذه المضافات إلى الدهر ،وهي : "صروف الدهر"،و"خطوب الدهر"،و"بنات الـــدهر" ،و"حانيـــات الـــدهر"،و"ريـــب الدهر"،و"حدثان الدهر"،و"حتوف الدهر"،وغيرها مما هو في معناهـــا = هي وقولهم:"فَعَل الدهر" ،في المعنى سواء.

---

١. شرح المفضليات : ١٤٠٩/٣.

[2] السابق :٧٥/٢.

[3] أمالي المرتضى: ٢٢٧/٢.

[4] المنازل والديار : ٤٦٨، ٤٦٩. وراجع تخريج الأبيات في الحاشية .

[5] أمالي المرتضى : ١٦٤/٢.

الدهر"،و"حدثان الدهر"،و"حتوف الدهر"،وغيرها مما هو في معناهـا =
هي وقولهم:"فَعل الدهر" في المعنى سواء.

وترِد في أشعارهم صيغ أخرى ليس فيها لفظ الدهر، والمراد بها هو الدهر. من ذلك لفظ "الزمان" ومنه قول كثير:

وكنت كذي رجلين: رجل صحيحة ورِجل رمى فيه الزمان فشُـلت[1]

وربما استعملوا في موضع الزمان: "الأيام"، أو "الليالي" ، أو نحو ذلـك.
وربما أضافوا إلى الزمان ، أو الأيام بعض ما كـانوا يضـيفونه إلـى الدهر، فقالوا: "ريب الزمان ،أو حوادث الزمان، أو: صروف الليالي ، أو حادثات الليالي، ونحو ذلك والمعنى واحد .

ومن أقدم من استعمل صيغة صـروف الليـالي الحـارث بـن مضاض الجرهمي في قوله:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسـمر بمكـة سـامر
بلـى نحـن كنـا أهلهـا فأزالنـا صروف الليالي والجدود العوائر[2]

واستعمل النابغة الجعدي "وقَعات الزمان" في قوله:

وقالت سليمى: أرى رأسه كناصية الفرس الأشهب
وذلك من وقعـات الزما ن ففيني إليك ولا تعجبي
أتين على إخوتي سـبعة . وعدن على ربعي الأقرب[3]

---

[1] أمالي المرتضى: ٤٦/١.
[2] المعمرون : ٥٤.
[3] المنازل والديار :٤٦٥، ٤٦٦. وانظر تخريج الأبيات في الحاشية .

وهذا كله وما أشبهه تصرف منهم في التعبير عن معنى الـدهر وفعله .

ومما استعمل من الألفاظ في معنى الدهر لفظ: " المنون" في قول أبي ذؤيب:

أمن المنون وريبها تتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

قال التبريزي:" والمنون يجوز أن يـراد بـه الـدهر، وحينئـذ يـروى معه:"وريبه" ؛لكونه مذكرا، ويكون زنته "فعول" من المن، وهو القطـع. ويجوز أن يكون المراد به المنية؛ ويروى معـه:"وريبهـا" ويجـوز أن يجري مجرى أسماء الأجناس في إفادته التكثير، يدل على ذلـك أنـه لا يجمع المنون كما تجمع المنية.

فإن قيل: وجه الكلام أن تقول: والمنـون لـيس بمعتـب ،لا والـدهر ،قلت:إن أريد بالمنون الدهر فإنما اختلف اللفظان، والمعنى واحـد، وإن أريد به المنية فإن الأحداث كلها لما كانت منسوبة إلى الـدهر والمنيـة بعضها، فكأنها من مسببات الدهر وأفعاله، وإذا كان كـذلك فالـدهر إذن يجب أن يكف عن فعله ،لا غيره[1].وقال أبو عبيد البكري في تفسـيره: "والمنون هنا الدهر ، فلذلك ذكره ، ومن أراد به المنية أنثه"[2].وقد يشهد لقوله ما قاله أبو ذؤيب في الشطر الثاني من البيت:

والدهر ليس بمعتب من يجزع

وآخرالبيت مرتب على أوله في المعنى ، فكأن الشاعر قال:

أمن الدهر وريبه تتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

---

[1] شرح المفضليات : ١٣٩٨/٣، ١٣٩٩.

[2] سمطاللآلي:٤٤٩/١.

وقال ابن منظور في اللسان :"والمنون الزمان. قال ابن بري:
قدر الموت، ألا ترى إلى قول أبي ذؤيب:

مَنايا يقربن الحتوفَ لأهلها جهارا ويستمتعن بالأَنَسِ الجُبّل

فجعل المنايا تقرب الموت، ولم يجْعلها الموت(1).

وفُسر لفظ "الماني" بأنه: الدهر في قول ساعدة بن جؤية:

ولو سامني الماني مكان حياته   أناعيمَ دهر من عِبَادٍ وجَامِلِ

قال أبو سعيد السكري في تفسيره :"ولو سامني الماني –أي: دهري–، أراده مني ،وعرض ذلك عليَّ. والماني: القادر، أي: الدهر". وقد يقوي هذا التفسير أن بعد البيت المذكور وبعقبه:

وقال اشترط ما شئتَ إنك ذاهبٌ   بحكمك من شَفْعِ المُنَى والجَعَائِلِ
لقلت لدهري: إنه هو عـزوتي   وإني وإن أرغبتني غير فاعل[2]

وذكر في اللسان: أن الماني هو القادر؛ لأنه من الفعل منَى بمعنى: قدّر، ولكنه أورد خبرا عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن منشدا أنشده:

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم   إن المنايا توافي كل إنسان
فالخير والشر مقرونان في قرن   بكـل ذلك يأتيك الجديدان

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :"لو أدرك هذا الإسلام!". وقال ابن منظور في معناه: حتى تلاقي ما يقدر لك المقدر وهو الله عز وجل"(1)

---

[1] لسان العرب : (منى)

[2] شرح ديوان الهذليين : ٢١٩/١.

ويمكن ان يقال: إن لفظ "المانِي" بمعنى القادركان يطلق على الله عز وجل عند من كان يعتقد الألوهية من العرب، ويطلق على الدهر عند من كان يقول منهم بالدهر المُفْنِي، ولنا عود إلى هذه المسألة عند ذكر الألفاظ والصيغ التي استعملها أبو تمام، في الدلالة على الدهر وفعله[٢].

****

السياقات التي ورد فيها نسبتهم الفعل إلى الدهر:

تأملتُ قدرا صالحا من الشعر الذي ذُكر فيه الدهر، قبل أبي تمام فرأيتهم يذكرون الدهر، وفعله أكثر ما يذكرونه في سياق حديثهم عن: الموت وصرعاه، وما يلحق بذلك من ذكر القرون التي سلفت ، والأمم التي بادت، والديارالتي خلت من أهليها. وفي سياق حديثهم عن الشيخوخة وويلاتها. وربما سيق ذكر الدهر في غير هذين السياقين.

وإذا عرفت أن الشيب والهرم هما: رسولُ الموت، وأن الشيخوخة هي: الموتة الصغرى، أمكنك أن تقول: إن مقام شكوى الدهر في الشعر قبل أبي تمام يكاد يدور حول موضوع: الموت، وما اتصل به. ولهذا يمتزج في أشعارهم التي ذكروا فيها الدهر ،حديثُهم عن الموت، بحديثهم عن الهرم ، أوبحديثهم عن الشيب، وربما ذكروا هذا كله في الموضع الواحد.

******

---

[1] لسان العرب (منى)

[2] انظر ما يأتي : ١٦٦

حديثهم عن صرعى الدهر :

قال عدي بن زيد وقد لـــج النعمان في حبسه:

إن للدهر صولة فاحـــذرنـــهـــا   لاتَنَامـــن قـــد أمنـــتُ الدهورا
قد يبيـــت الفتـــى صحيحا فيردى   بعد ما كـــان آمنـــا مســـرورا
إنـــما الـــدهـــر ليـــن ونطـــوح   يترك العظم واهيا مـــكســـورا
فســـل النـــاس أيـــن آل قبـــيس   طحطح الدهر قبلـــهم سابـــورا
خطـــفتـــه مـــنـــيـــة فـــتـــردى   وهو في الملك يأمل التعمـــيرا
وبنو الأصفر الملوك كـــذا لـــم   يتـــرك الدهـــر منهـــم مذكورا
لا أرى الموت يسبق الموت شيء   نغص الموت ذا الغنى والفقيرا[1]

فذكر عدي صولة الدهر ، وذكر ممن أفناه الدهر من العرب: آل قبيس، وتعدى العرب إلى العجم فذكر من صرعى الـــدهر مـــنهم: ســـابور ذا الأكتاف، وملوك بني اصفر، وهم الروم، وعدي كان كاتبا بالحيرة ،فهو على علم بأخبار الروم والفرس ، ومثل مقالة عدي هذه في الشعر القديم كثير [2].

وهم حين ذكروا صرعى الدهر من القرون الأول ، والأمـــم البائـــدة تخيروا أعظمها شأنا، وأشهرها ذكرا، وأقواها قوة ، وأنفـــذها ســـلطانا؛ ليدلوا –بزعمهم–على نفاذ الدهر في حكمه، وطلاقته في فعله،–وهو أحد المعاني التي وصفوا الدهر بها كما سيأتي–، وليقولوا: إنه إن كان فعـــل ذلك في الأمم القوية، فهو على من دونها من الأمم أقدر.

---

[1] شعراء النصرانية:٤٦٨.

[2] انظر : السابق:٦٣٩.

وذكروا صرعى الدهر من آبائهم ، وإخوانهم ، وقرنائهم الأقربين:

قال الحارث بن مضاض الجرهمي–وهو جاهلي قديم من جرهم الأكبر: جرهم بن قحطان ،وعاش فيما زعموا أربعمائة سنة–:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا صروف الليالي والجدود العواثر[1]

فذكر من سكن مكة من قومه ، ومن نزل منهم بين الحجون إلى الصفا .

وقال امرؤ القيس من أبيات:

أرجي من صروف الدهر لينا ولم تغفل عن الصم الصلاب

وأعلم أنني عما قريب سأنشب في شبا ظفر وناب

كما لاقى أبي حجر وجدي ولا أنسى قتيلا بالكلاب

فذكر من صرعى الدهر: أباه وجده، وهم ملوك كندة، وقال :إن الدهر فاعل به مثل الذي فعل بهم .

وقال زهير من قصيدة في رثاء هرم بن سنان:

فاستأثر الدهر الغداة بهم والدهر يرميني ولا أرمي

لو كان لي قرنا أناضله ما طاش عند حفيظة سهمي

أو كان يعطي النصف قلت له: أحرزت قسمك فاله عن قسمي

يا دهر قد أكثرت فجعتنا بسراتنا وقرعت في العظم

وسلبتنا ما لست معقبه يا دهر ما أنصفت في الحكم

أجلت صروفك عن أخي ثقة حامي الذمار مخالط الحزم

ينمي إلى ميراث والده كل امرئ لأرومة ينمي[2]

---

[1] المعمرون : ٥٤.

[2] ديوانه :٣٨٥.

وقال هدبة بن خشرم من ولد أبي حية الكاهن ،- وأبو حية كما قال البكري :هو صاحب العزى وسادنها وهو من قضاعة- وهدبة إسلامي، يكنى أبا عمرو-:

ألا يا لقومي للنوائب والدهر   وللمرء يأتي حتفه وهو لا يدري
وللأرض كم من صالح قد تلمأت   عليه فوارته بلماعة قفر
فلا ذا جلال هبنه لجلاله   ولا ذا ضياع هن يتركن للفقر[1]

وقال جزء بن ضرار:

وحدثت قومي أحدث الدهر فيهم   وعهدهم بالحادثات قريب
فإن يك حقا ما أتاني فإنهم   كرام إذا ما النائبات تنوب[2]

وقالت جليلة بنت مرة في زوجها كليب لما قتله أخوها جساس:

يا قتيلا قوض الدهر به   سقف بيتي جميعا من علِ

وإنما قالت: سقف بيتي؛ لأنها فقدت زوجها بالقتل، وتوشك أن تفقد أخاها بالقصاص، ولهذا لما قالت أخت كليب حين همّت جليلة بالرحيل :" رحلة المعتدي، وفراق، الشامت" فبلغ ذلك جليلة = قالت:"وكيف تشمت الحرة، يهتك سترها ، وترقب وترها"[3].

وربما مزجوا ذلك بالحديث عن موتهم هم، وقالوا: إن الدهر صارعهم كما صرع من كان قبلهم، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع   وتبقى الديار بعدنا والمصانع

---

[1] سمط اللآلي : ٦٣٩/٢.

[2] شرح الحماسة للمرزوقي : ٣٣٤/١.

[3] سمط اللآلي : ٧٥٦/٢.

وقد كنــت في أكناف جار مضنة ففارقنــي جــار بأربــد نــافع
فلا جَزِع إن فــرق الدهــر بيننا وكل فــتى يوما به الدار فاجــع
ولا أنا يأتيــني طــريف بفرحـــة ولا أنا مما أحدث الدهر جــازع
وما النــاس إلا كالديار وأهـلها بهــا يــوم حلوها وتغدو بــلاقع[1]

وقال شبيب بن البرصاء – وقد تغيب عن أهله غيبة ، ثم عــاد فوجــد جماعة من أهله وبني عمه قد ماتوا-:

تخرم الدهر إخــواني وغــادرني كمــا يغــادر ثــور الطــارد الفــرد
إني لبــاق قلــيلا ثــم لاحقهــم ووارد منهل الحوض الــذي وردوا[2]

وقالت الخنساء:

تعرقنــي الــدهر نهســا وحــزا وأوجعنــي الــدهر قرعــا وغمــزا
وأفنــى رجــالي فبــادوا معــا فأصــبح قلبــى بهــم مســتفزا
وكــانوا ســراة بنــى مالــك وزيــن المقامــة فخــرا وعــزا
كأن لــم يكونــوا حمــى يتقــى إذا الناس فى ذاك مــن عــز بــزا[3]

وهذا كثير جدا في أشعارهم. وقد جمع أسامة بن منقذ قدرا كبيرا مــن ذلك في كتابه: "المنازل والديار"[4].

وربما تحدث أحدهم عن صرع الدهر له وهو بعد حي ،ووصــف مــا يكون بعد موته ، وممن فعل ذلك يزيد بن خذاق ، وهو جاهلي قديم من شعراء عبد القيس:

---

[1] ديوانه : ١٦٨-١٧٢. والمنازل والديار :٦٩.
[2] المنازل والديار ٤٥٠، والأغاني ٢٧٧/١٢.
[3] المنازل والديار : ٤٥٠. وانظر تخريج الأبيات في الحاشية .
[4] انظر : المنازل والديار : ٤٢٨، ٤٤٠، ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٧١، ٤٧٧.

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ ... أم هل له من حمام الموت من راقِ

قد رجلوني وما بالشعر من شعث ... وألبسوني ثيابا غير أخلاقِ

وأرسلوا فتية من خيرهم حسبا ... ليسندوا في ضريح القبر أطباقي

وقسموا المال وارفضت عوائدهم ... وقال قائلهم :مات ابن خذاقِ

هون عليك ولا تولع بإشفاق ... فإنما مالنا للوارث الباقي [1]

ويزيد هذا من أقدم من رثى نفسه من الشعراء ،كما ترى وهم كثير.

****

وكما ذكروا صرعى الدهر من الإنسان ، أمَمًا وقرونا، وأفرادا ، ذكروا صرعاه من الحيوان وأكثروا من ذلك: فذكروا صرعى الدهر من الحمر الوحشية، ومن ذلك قول أبي كبير الهذلي، يخاطب ابنه خلّاوَة:

يبكي خلاوة أن يفارق أمه ... ولسوف يلقاها لدى المتهَوَّمِ

أخلاوَ إن الدهر مهلكُ من ترى ... من ذي بنين وأمهم ومن ابنُمِ

والدهر لا يبقى على حدثانه ... قُبٌ يردن بذي شجون مبرم

والقُب:حميرُ الوحش، وذكر الشاعر بعد هذا البيت عشرة أبيات جياد وصف فيها قصة هذه الحمر ومصرعها[2].

ومنه قول إبي خراش الهذلي:

أرى الدهر لا يبقى على حَدَثانه ... أَقَبُّ تباريه جَدَائدُ حُوَّلُ

---

[1] سمط اللآلي : ٧١٣/٢.

[2] ديوان الهذليين :٢/ ١١١– ١١٥.

وذكر بعده سبعة أبيات في وصف قصة هذا الحمار ومصرعه[1]. وذكر أبو خراش قصة أخرى في مصرع حمار وحش بدأها بقوله:

ولا يبقى على الحدثان علج   بكل فلاة ظاهرة يرود

يريد بالعلج: حمار الوحش. وختمها بقوله:

فخر على الجبين فأدركته   حتوف الدهر والحين المفيد[2]

وهذه القصة كما ترى مكررة كثيرا في أشعار هذيل، ومن الظاهر أنها كانت كثيرة الوقوع في بيئتهم، فعظم سلطانها على نفوس شعرائهم.

ومن القصائد الجامعة في بيان صرعى الدهر من الإنسان والحيوان عينية أبي ذؤيب الذائعة[3]، فإنه ذكر في أولها صرع الدهر أبناءه[4]. وقال في آخر قصتهم:

ولئن بهم فجع الزمان وريبه   إني بأهل مودتي لمفجع

كم من جميع الشمل ملتئم القوى   كانوا بعيش قبلنا فتصدعوا

ثم ذكر صرعى الدهر من حمر الوحش فقال:

---

[1] السابق :١١٧٢/ – ١٣٢.

[2] نفسه : ١٦٢٢/ – ١٦٤.

[3] أشعار الهذليين : ٣/١. وشرح المفضليات للتبريزي : ١٣٩٧/٣، والشعر والشعراء : ٦٥٧/٢، والمنازل والديار : ٤٢٠. وانظر تخريج القصيدة في الحاشية.

[4] المشهور : أن أولاده الذين رثاهم كانوا خمسة أو ثمانية ماتوا بالطاعون في عام واحد وكانوا هاجروا إلى مصر فالقصيدة على هذا اسلامية . وفي رواية : أنهم كانوا عشرة قتلتهم بنو أسد في الجاهلية قصاصا لمقتل تأبط شرا ، فجمع أبو ذؤيب أجسادهم على شرف من الأرض وقام في العرب بهذه القصيدة . فهي على هذا القول جاهلية . انظر الروايتين و تخريجهما في المنازل والديار : ٤٢٠.

والدهر لا يبقى على حدثانه جَوْن السراة له جدائل أربعُ

وقصّ قصة هذا الحمار وأتنه ومصرعهن، في واحد وعشرين بيتا من القصيدة. ثم ذكر صرع الدهر ثورا وحشيا فقال:

والدهر لا يبقى على حدثانه شَبَب أفزته الكلاب مفزعُ

وذكر قصة هذا الثور ومصرعه في أربعة عشر بيتا. ثم ختم بذكر صرع الدهر للفارس المستلئم في خمسة عشر بيتا، وبدأها بقوله:

والدهر لا يبقى على حدثانه مستشعِرٌ حلق الحديد مقنعُ

وهذه القصيدة كما ترى جامعة لأكثر ما تفرق في غيرها من الحديث عن صرعى الدهر من الإنسان والحيوان. وهؤلاء الشعراء الذين ذكروا مصرع هذه الحيوانات ذكروا لمصرعها سببا قريبا ظاهرا ، وسببا آخر بعيدا، أما السبب القريب فهو الصائد المتربص، والكلاب الصائدة، والسهام النافذة، وأما السبب البعيد فهو الدهر الذي أحالوا عليه في هذا كله، وبدأوا كل لوحة من تلك اللوحات بقولهم:" والدهر لا يبقى على حدثانه.." وسأعود إلى هذه المسألة.

****

وكما ذكروا صرعى الدهر من الإنسان والحيوان، ذكروا أيضا صرعاه من الطير . وقد مرت بك قريبا أبياتُ أبي خراش الهذلي في مصرع حمار وحش، التي بدأها بقوله:

أرى الدهر لا يبقى على حدثانه أَقَبُّ تباريه جدائد حوّلُ

وقد عطف على هذه القصة، قصةَ صقر من الصقور فقال:

ولا أمعــز الســاقين ظــل كأنــه	على محزَئِلات الإكام نضــيلُ
رأى أرنبا من دونها غول أشــرج	بعيدٌ عليهن الســراب يــزولُ
فضم جناحيه ومن دون ما يــرى	بلاد وحوش أمــرُع ومحــولُ
تُوائِــل منـــه بالضـــراء كأنهـــا	سفاةٌ لها فوق التــراب زليــلُ
يقرّبُه النهض النجيح لمــا يــرى	ومنـــه بـــدو مـــرة ومثـــول
فأهوى لها في الجو فاختل قلبهـــا	صيودٌ لحبات القلـــوب ختُـــول

فوصف كيف صرع هذا الصقر القوي الأرنبَ، ثم جعله هو أيضا من صرعى الدهر، كما كان ذلك الحمار الوحشي من صرعى الدهر.

وقد أكثروا من ذكر قصة النسر"لبد"[1]، وقالوا إن الدهر أفناه :قال لبيــد ابن ربيعة:

لما رأى لُبَدُ النسور تطايرت	رفع القوادم كالفقير الأعزل
من تحته لقمان يرجوا نيضَه	ولقد رأى لقمان أن لا يأتلي

وذكر الأعشى لبدا وأشار إلى فعل الدهر بالأحياء ،فقال:

لنفسك إذ تختار سبعــة أنسر	إذا مــا مضى نسر خلوتَ إلى نسرِ
فعمر حتى خال إن نســوره	خلود وهل تبقى النفوس على الدهر؟
وقال لأدناهن إذ حل ريشــه	هلكت وأهلكــت ابن عاد وما تدري[2]

وقصة لبد النسر هي فيما زعموا جزء من قصة لقمان بن عاديا الكبيــر، وهو أحد وفد عاد ،الذين بعثهم قومهم إلى الحرم ليستسقوا لهم. ولقمــان فيما زعموا أيضا معمَّر طويل العمر عاش خمسمائة وستين سنة، وكــان

---

[1] لسان العرب (لبد) وفيه قصة لقمان والأنسر .

[2] المعمرون : ٥.

أُعْطِي من العمر عمرَ سبعة أنسر، فكان يأخذ فرخ النسر الذكر ،فيجعله في أعلى الجبل ،الذي هو في أصله، فيعيش النسر ما شـاء الله لـه أن يعيش، فإذا مات أخذ غيره فصنع به كما صنع بالأول.

فكان آخر هذه الأنسر لبد، وكان الأطولَ عمرا من بينها . ثم مات لبد بعد ما طال عمره، فضُرب مثلا فقيل:"طالَ الأبد على لبـد"، واتخذتـه الشعراء مثلا. وقالت أعرابية في بنيها الذين ماتوا:

ربيتهم كنصـول الهنـد أربعـة بيض الوجوه لدى الهيجاء كالأسد
حتى إذا كملوا في السن واتسقوا أخنى على القوم ما أخنى على لبد[1]

والذي أخنى على لبد كما علمت : هو الدهر.

****

وقالوا: إن الدهر هو الذي أخلى الديار من أهليها، وأفرغها من قاطنيها، وهم يقولون هذا وهم يريدون ديار الأحبة ،أو مساكن أقوامهم .ومن ذلك قول النابغة:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلانا أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد

ثم قال بعد ثلاثة أبيات:

أمست خَلاءً وأمسى أهلُها احتَمَلوا أخنى عَلَيها الَّذي أخنى عَلى لُبَدِ[2]

---

[1] الوحشيات :١٤٣.

[2] ديوانه : ١٦، ١٧.

وقال عبيد بن الأبرص الأسدي:

لِمَن طَلَلٌ لَم تَعفُ مِنهُ المَذانِـبُ فَجَنبـا حِبِـرٍ قَـد تَعَفّى فَواهِبُ

دِيارُ بَني سَعدِ بنِ ثَعلَبَةَ الأولـى أَذاعَ بِهِم دَهرٌ عَلى النـاسِ رائِبُ

فَأَذهَبَهُم ما أَذهَبَ النـاسَ قَبلَهُم ضِراسُ الحُروبِ وَالمَنايا العَواقِبُ

أَلا رُبَّ حَيٍّ قَد رَأَينـا هُنالِكُـم لَهُم سَلَفٌ تَزوَرُّ مِنـهُ المَـقانِـبُ

فَأَقبِل عَلى أَفواقِ مالِـكَ إِنَّـما تَكَلَّفتَ مِلْ أَشياءِ ما هُـوَ ذاهِـبُ[1]

وقال أيضا:

دارُ حَيٍّ أَصابَهُم سالِفُ الدَهـ ـرِ فَأَضحَت دِيارُهُم كَالخِلالِ[2]

وكانوا يرون أن الدهر يعاندهم فيما أحبوا ،ويخالفهم إلى كل خير أرادوه، ومن ذلك قول النابغة يخاطب نفسه:

تكلفني أن يغفل الدهر همها وهل وجدت قبلي على الدهر قادرا[3]

وقال عبيد بن الأبرص، يذكر أن الدهر أفسد عليه أيام الهوى والشباب:

هَل اللَيالِيَ وَالأَيّـامُ راجِعَـةٌ أَيّامَ نَحـنُ وَسَلـمى جيرَةٌ خُلُطُ

إِذ كُلُّنا وَمِقٌ راضٍ بِصـاحِبِهِ لا يَبتَـغي بَـدَلاً فَالعَيشُ مُغتَبِطُ

وَالشَملُ مُجتَمِعٌ ما اعتاقَهُ قِدَمٌ وَالدَهرُ مِنهُ عَلَيَّ الحَيْفُ وَالفُرُطُ[4]

فهذا زعمهم فيما قالوه: من أن الدهر يصرع الأحياء ، ويغرى بالكرام ، ويعمد إلى الأقوياء من كل جنس، ويخرب الديار . وستعرف معتقدهم في هذا،فيما يأتي من الحديث، في موضعه.

---

[1] ديوانه: ١٢٥. وهي مما في نسخة الأعلم ولم يروها الأصمعي .

[2] ديوانه: ٨.

[3] السابق: ١٠٥.

[4] ديوانه: ٦٧.

المعمرون والدهر:

أكثر المعمرون من العرب، في ما بقي من أشعارهم، و منثور كلامهم من ذِكْر الدهر وفعله، وما لقيهم به، وما لقوا منه، وهذا فيما بدا لي أكبر مقام ذكروا فيه الدهر وفعله ، بعد مقام حديثهم عن صرعى الدهر، من الإنسان والحيوان والجماد ؛ فالدهرفيما قالوا: هو الذي بلغ بهم حد العجز الموهن، وأكل شبيبتهم، وردهم إلى الشيخوخة الفانية، قال دويد بن نهد– وعاش فيما زعموا أربعمائة وستا وخمسين سنة–:

ألقى عليَّ الدهر رجلا ويدا والدهرَ ما أصلح يوم أفسدا

يفسد ما أصلحه اليوم غدا[1]

وعبارة : "ألقى عليَّ الدهر رجلا ويدا" ،عبارة تصويرية جامعة، لكل ما لقيه دويد وأمثاله من المعمرين من الدهر، وما رُدوا إليه من أرذل العمر. والدهر –بزعمهم– هو الذي ردهم إلى أرذل العمر، وكساهم من بعد قوة ضعفا، حتى بات أحدهم كَلاًّ يُحمل ولا يَحمل ، ويَطعَم ولا يُطعِم ويُنتقَل به ولا يَنتقل. ومن ذلك قول محصِّن بن عِتبان بن ظالم الزبيدي وهو من سعد العشيرة، وقد عاش فيما زعموا مائتين وستا وخمسين سنة:

ألا يا أسمَ أعياني الركوب وأعيتني المكاسبُ والذهُوبُ
وصرت رزية في البيت كَلاً تأذى بي الأباعد والقريبُ
كذاك الدهر والأيام غولٌ لها في كل سائبة نصيب2

---

[1] المعمرون : ٢٥.

٢. السابق :٢٦، ٢٧.

وهذه الصورة الناطقة بالعجز، الباعثة على الإشفاق: صورةُ من بـات لا يقدر على ركوب دابته، أو يتصرف في طلب الرزق، المُلقى في البيـت كأنه قطعة حجر، يتأذى به البعيد، ويمله الداني القريب =هـذا المعنـى الإنساني مكرر كثيرا في أشعار هؤلاء المعمرين، بصورشتى؛ فمن ذلك قول دريد بن الصمة- وعاش نحوا من مائتي سنة:

فَإن يَكُ رَأسي كَالثَغامَةِ نَسـلُهُ يُطيفُ بِيَ الوِلدانُ أَحدَبَ كَالقِردِ
رَهينَةَ قَعرِ البَيتِ كُلَّ عَشيَّـةٍ كَأَنّي أُرقى أَن أُصَوَّبَ في المَهدِ
فَمِن بَعدِ فَضلٍ من شَبابٍ وَقُوَّةٍ وَرَأسٍ أَثيثٍ حالِكِ اللَونِ مُسوَدِّ[1]

ورسم النمر بن تولب صورة معبرة لما آل إليه أمره من الـوهن المفني، والعجز المردي فقال:

لَعَمري لَقَد أَنكَرتُ نَفسي وَرابَني مَعَ الشَيبِ أَبدالي الَّتـي أَتَبَدَّلُ
وتسميتي شيخاً وقد كان قبلـه ليَ اسمٌ فلا أُدعى به، وهو أوَّلُ
وَزهدي فَيَكفيني القَلـيلُ وَإنَّنـي أنام إذا أمسي فلا أَتَعـلَّلُ
وَظَلَعي وَلَم أكسر وَإنَّ حليلتي تَحوزُ بَنِـيها فـي الفِرَاشِ وَأُعزَلُ
فُضولٌ أَراها في أَديمِيَ بَعدَ مـا يَكونُ كِفافَ اللَحمِ أَو هُوَ أَجمَلُ
يُحِبُّ الفَتى طولَ السَلامَةِ وَالغِنى فَكَيفَ تَرى طولَ السَلامَةِ يَفعَلُ(2)

وأعجب من كل ما تقدم، وأكثره أثرا في النفس قولُ زهير بن جناب وهو من قضاعة -وعاش فيما زعم أبو حاتم وغيره أربعمائة وعشرين سنة-:

---

[1] المعمرون : ٢٧.

[2] نفسه : ٧٩، ٨٠.

أَلا يا لَقَومي لا أرى النَجمَ طالِعاً مِنَ اللَيلِ إِلاّ حاجِبي بِيَمِيني
مُعَزّبَتي عِندَ القَفا بِعَمودِها يَكونُ نَكيري أن أقولَ: ذَريني
أَميناً عَلى سِرّ النِساءِ وَرُبَّما أكونُ عَلى الأَسرارِ غَيرَ أَمينِ
وَلَلمَوتُ خَيرٌ مِن حِداجٍ مُوَطَّأٍ مَعَ الظَعنِ لا يَأتي المَحَلَّ لِحينِ[1]

وإنما قال: "معزبتي عن القفا بعمودها"؛ لأنه– فيما روي – سمع بعض نسائه تتكلم ،بما لا ينبغي أن تتكلم به وزوجها حاضر، فنهاها ، فقالت له: اسكت، وإلا ضربتك بالعمود!!، فما كنت أراك تسمع شيئا ولا تعقله". فانظر إلى رجل سيد يؤول أمره إلى مثل هذا!!. وقوله:" أمينا على سر النساء..الخ من لطائف القول؛ لأنَ السر عنهم يكون السر المعروف، وهو ما يسارُّ به الإنسان غيره ، ويكون أيضا النكاح، وإياه أراد فيما أظن.

ومن ذلك أيضا قول أبي السمال الأسدي: سِمْعَان بن هبيرة، يذكر واحدة من أهله، والأرجح أنها امرأته، قالوا: وعاش سمعان بن هبيرة، وهو أبو السّمال الأسدي سبعا وستين ومائة سنة:

وهازئة من شيبتي وتحنّني وطول قعودي بالوصيد أُفكّرُ
تقول: فتى سمعان بعد اعتداله وبعد سواد الرأس فالرأس أزعرُ
فقلت لها: لا تهزئي إنّ قصرك الـ مَنايا، وريب الدّهر بالمرء يغدرُ
فكم من صحيح عاش دهرا بنعمة فحل به يوم أغرُّ مشهرً
فصار لَقًى في البيت لا يبرح الفنا رذيّا عليه كآبة وتوقّرُ
وقد كان مدلاجا إلى المجد متعبا إليه المطايا عمرهُ ليس يفترُ

[1] السابق :٣٤.

فلـــما ترامتـــه المنـــايـــا وريبُـــها تقوَّس منه الظَّهر فالخطـــوُ مُقصرُ
وعاد كفرخ النَّسر أعمى عن الّتي يريد طوال الدَّهر يهـــذي ويهـــذر
فإن أكُ شيـــخا فـــانيـــا فلربـــما أصبتِ الَّذي أهوى وما كنت أحذرُ[1]

وكان بعض العرب مع ما عرف عنهم من معرفة حـــق الكبيـــر ربما ضاقوا بمعمرهم إذا كبر وخرف ، وعاش على ذلك زمنـــا. ومـــن ذلك ما روي عن هبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي، جدِّ زهير بن جناب، فقد زعموا أنه عاش سبعمائة سنة!!، وخرف حتى مله أهله، وكان بنـــو بنيه وبنو بناته وإخوته يضحكون منه ،ومن اخـــتلاط كلامـــه[2] . وكـــان بعضهم -فيما يروى- ربما حجب معمره، وحبسه مخافة أن يظهر للناس اختلاطه،كما فعل بأوس بن ربيعة الأسلمي، وحارثة بن عبيد الكلبي"[3].
قلت: وأنا اتهم هذا الخبر وأشباهه ، فما أظن أبدا أنه كان في العرب من يفعل ذلك ،إن لم يكن برا بالآباء، فمن مخافة العار، وفـــي الخبـــر ابـــن الكلبي وأبوه، وهما يتهمان.

ويعارض هذا الخبر ما روي عن تيم الله بن ثعلبة بن عكابة بن صعب...، وعاش طويلا، وكان من دهاة العـــرب فـــي زمانـــه، قـــال أبوحاتم:" وكان الذي تولى كبْرته من بنيه هلال، فقال في ذلك الأخـــنس ابن عباس .. بن عبد العزى بن هلال بن تيم الله بن ثعلبة:

حملنا الشَّيخ تيمَ الله عـــوْدا وكان وليَّ كبرته أبُونا
ولم يك طبُّ أعمامي عقوقا ولكـــنا كفينـــا ما ولِينا

---

[1] المعمرون : ٦٥.
[2] نفسه : ٣٧.
[3] السابق : ٩٤، ٩٥.

جــزيناه بنعمتــه عليــنا وأطرفناه حتى مات فينا[1]

فهذا هو الأشبه بوفاء العرب، وفرارهم مما يذم.

وكان ربما دفع المعمرينَ ما آل إليه أمرهم من الوهن بعد الجلَد، والعجز بعد القدرة إلى الحديث عن حتمية الموت، وأنهــم وغيــرهم لا محالة صرعى الدهر يوما. من ذلك قول مصاد بن جناب من بني عمرو ابن يربوع بن حنظلة بن زيد مناة– وعاش أربعين ومائة سنة:

للموت ما نغذى وللموت قصرنا ولا بد من موت وإن نفس العمرُ
فمَن كان مغروراً بطول حياتــه فإنـــي حميل أن سيصرعه الدّهر
فليس بباق إن سألت ابنَ مالك على الدهر إلا من له الدّهرُ والأمر[2]

وربما بلغ الأمر بأحدهم مبلغ تمني الموت، ومن أبلغ الأمثلة على ذلك قول مسافع بن عبد العزى الضَمْرِيّ، وعاش ستين ومائة سنة:

لعمرُكما لو يسمع الموت قد أتى لـــداع علـــى بـــرء جفته العَوائدُ
به سقـــم من كـــل سقـــم وخبطة من الدّهر أصغى غصنه فهو ساجد
إذا مرَّ نعش قيل نعشُ مســـافعٍ ألا لا بودي لو بنـــي لـــي لاحـــدُ
يظنون أنـــي بعـــدُ أوّلُ مـــيّت فأبقى ويمضـي واحـــدٌ ثـــمَّ واحـــدُ
فقالوا له لمَّـــا رأوا طولَ عمره: تأتَّ لـــدار الخُلـــد، إنّـــك خـــالدُ
غِضَابٌ عليَّ أن بقيــتُ وإنَّني بودّي الّذي يهوون لو أنـــا واجـــدُ[3]

وقال كعب بن رداة النخعي –وعاش سبعين ومائة سنة–:

---

[1] المعمرون : ٩٤، ٩٥.

[2] نفسه : ٣٠.

[3] السابق : ٣٠، ٣١.

لقد ملّني الأدنى وأبغض رؤيتي   وأنبأني ألاّ بحلّ كلامي
على الراحتين مرّة، وعلى العصا   أنوء ثلاثاً بعدهنّ قيامي
فيا ليتني قد سخت في الأرض قامة   وليت طعامي كان فيه حِمامي[1]

وكانوا ربما قالوا إن الدهر أفناهم وهم -بعد أحياء، ولكنها حياة- كما عرفت من قولهم- خيرٌ منها الموت، وكأني بهم قد عدوا الهرم الموتةَ الصغرى، ومن هنا قالوا: إن الدهر يهرمهم، كما قالوا:إن الدهر يميتهم.

****

دهرية العرب قبل الإسلام:

قد علمت مما تقدم أن الشعراء في الجاهلية وأوائل الإسلام، قد أكثروا من قولهم: إن الدهر يصرع الأحياء، ويبغيهم الغوائل، وينزل بهم النوازل. فما دلالة هذا كله على معتقدهم؟. وأقول: لولا ما أخبرنا الله تعالى به من شأنهم ، ما كان لنا أن نعرف على وجه القطع ما تدل عيه تلك الأشعار ،من حقيقة معتقدهم في الدهر. قال الله تعالى "وقالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم، إن هم إلا يظنون"[2]. فأخبر سبحانه أنه كان في العرب قبل الإسلام -دهريون ، ينسبون إلى الدهر ما ليس له، ويدّعون له ما لا يقدر عليه. ولم يرد الحديث عن الدهرية: دهرية الاعتقاد – تصريحا في غير هذا الموضع من كتاب الله.

---

[1] المعمرون : ٩٣.
[2] الجاثية :آية ٢٤.

وقال ابن كثير -رحمه الله- في تفسير الآية السابقة من سورة الجاثية:"يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد. "وقالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا"، أي: ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم، ويعيش آخرون، وما ثم معاد ،ولا قيامة.

وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة، والإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدُّورية المنكرون للصانع، المعتقدون أنه في كل ستة وثلاثين ألف سنة، يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول؛ ولهذا قالوا: وما يهلكنا إلا الدهر.

قال تعالى: "وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون"، أي يتوهمون ويتخيلون"[1]. وأكثر المفسرين قبل ابن كثير وبعده يقولون في معنى الآية مثل هذا القول ،أو قريبا منه[2]. فهذه الآية على قول ابن كثير وغيره ليست في دهرية العرب وحدهم، -وإن كان ظاهر الآية يوهم أنها في دهرية العرب دون غيرهم-، بل هي فيهم، وفي دهرية سائر الأمم، ممن عاصرهم أو كان قبلهم، أو جاء بعدهم.

---

[1] تفسير ابن كثير : ٤/١٥٠، ١٥١.

[2] انظر : الفخر الرازي : مفاتيح الغيب :١٧٩/٢٧، وأبو السعود :في تفسيره :٧٢/٨، والشيخ الجمل في :الفتوحات الإلهية: ١١٩/٤.والبيضاوي في : أنوار التنزيل :٣٨٢/٢.وقد أمدني علامة الشباب أخي الدكتور : إبراهيم الهدهد بأقوال هؤلاء المفسرين فجزه الله عني وعن العلم خيرا.

والقرآن ينسب هؤلاء الدهرية جميعا –وفيهم دهرية العرب– إلى القــول بالجهل، وينفي عنهم العلم؛ لأنهم قالوا بالظن في ما لا يقال فيه بالظن ، واطمأنوا إلى التوهم، فيما لا يقطع فيه إلا بصحيح العلم ،وقاطع الحجة.

وقال الخوارزمي في فصل "أسماء أربــاب النحــل المختلفــة: "الدهرية:"الذين يقولون بقدم الدهر[1].وقـــال عـــن الســـمنية وغيـــرهم: "السمنية هم أصحاب سُمْن، وهم عبدة أوثـــان، يقولـــون بقـــدم الـــدهر، وبتناسخ الأرواح، وأن الأرض تهوي سفلا أبدا. وكان الناس على وجـــه الأرض سمنيين وكلدانيين ، فالسمنيون هم عبدة الأوثان، والكلـــدانيون: هم الذين يسمون :الصابئين والحرنانيين، وبقاياهم بحـــران، والعـــراق، ويزعمون: أن نبيهم "بوذاسف" الخـــارج فـــي بـــلاد الهنـــد، وبعضـــهم يقولون:"هرمس"، فأما "بوذاسف" فقد كان في أيام "طهمـــورث" الملـــك، وأتى بالكتابة الفارسية.وسمي هؤلاء صابئين في أيـــام المـــأمون. فأمـــا الصابئون على الحقيقة ففرقة من النصـــارى، وبقايـــا الســـمنية بالهنـــد والصين"[2].

والذي يعنينا هنا هم: دهرية العرب قبل الإسلام . وهذه الآيـــة: آية الجاثية قاطعة في أنه كان في العرب قبل الإســـلام دهريـــو اعتقـــاد يقولون: إن الدهر هو الذي يهلكهم، كما أهلك من كان قبلهم. وفي هذا ما يدل على أن الشعر الذي ذكروا فيه فعلَ الدهر بهم، وعددوا صرعاه من الإنسان والحيوان الطير،والجماد ، دليلٌ على دهريتهم، وبرهان على ما نسبه القرآن إليهم. وقولهم:"وما يهلكنا إلا الدهر" إنكار للبعث والمعـــاد،

---

[1] مفاتيح العلوم: ٣٥.

[2] السابق : ٣٦.

كما قال ابن كثير رحمه الله بدليل آية"المؤمنون[1]": "إن هـي إلا حياتنـا الدنيا نموت ونحيـا ومـا نحـن بمبعـوثين" . فقولـه تعـالى علـى-لسانهم:"...وما يهلكنا إلا الدهر" في الجاثية، بإزاء قوله تعـالى:"...ومـا نحن بمبعوثين" في المؤمنون، مع اتفاق الآيتين في بقية المعنى.

وفي سورة الجاثية[2] أيضا " قل الله يحييكم ، ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة". فالحديث عن المعاد والبعث في هذه الآيـة، بعـد الإحيـاء والإماتة، كأنه رد على ما قالوه أولا ،وهو قولهم :"...ومـا يهلكنـا إلا الدهر". وبين الأيتين آية واحدة، ،وهي قوله تعالى:" وإذا تتلـى علـيهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا: ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين" .

على أن آية الجاثية قد أنصفت العرب ، من حيث أخبرت أنه لم يكـن لهم علم، يهديهم في هذا الأمر المحير: أمر الموت، فهم في ذلك أولـى بالعذر من الدهريين، الذين جاءوا في أزمنة الأنبيـاء ،أو فـي أعقـاب أزمانهم، فكان لهم من العلم ما لو شاءوا لدلهم على الصواب، وأخذ بهم إلى الحقيقة. ولعله لهذا أطال الله تعالى في القرآن في الحديث عن مسألة الحياة والموت، وأخبر في آيات كثيرة أنه خالق الموت والحيـاة، وأنـه المحيي المميت؛ ليصحح للعرب بالوحي، ما ضلت فيه أوهامهم من أمر الموت والحياة.من ذلك قوله تعالى:"كيف تكفرون بـالله وكنـتم أمواتـا فأحياكم، ثم يميتكم ثم يحييكم" البقرة:٢٨، وقوله:" وهو الذي أحياكم ثـم يميتكم ثم يحييكم" الحج:٦٦، وقوله:" الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم" ، الروم:٤٠، وآيات أخرى كثيرة في هذا المعنى.

---

[1] آية:٣٧.

[2] آية:٢٦.

ولكن من أين وقع للعرب القول بالدهرية في العصر الجـاهلي؟.لـم أقف على قول صريح قاطع في هذا . ولا يبعد أن يكون هذا الأمر قـد سقط إليهم، في جملة ما سقط إليهم من عقائد الأمم قبلهم.وقد عرفت من نص كلام الخوارزمي السابق: أن الدهرية عُرفت في بلاد العجـم مـن قديم، وأن بعض هؤلاء الدهريين كانواعلى أطراف بلاد العرب،وكـان من عرب قلب الجزيرة من يخالط هؤلاء لدواعي التجارة أوغيرها، فلعل العقيدة الدهرية عُرفت في العرب من قبَل هؤلاء. وكثيـر مـن العقائـد الفاسدة–ومنها الدهرية، والثنوية ، أو المانوية، والمزدكية–، عرفت فـي بعض أهل العراق في الإسلام، بتأثير تلك العقائد العجمية القديمة، فمـا يمنع أن تكون انتقلت إلى العرب في الجاهلية، على نحو ما انتقلت إليهم في الإسلام؟. هذا. وقد صار الرد على الدهرية، الـذين يقولـون بقـدم الدهر من بعدُ، من جملة أصول الدين التي يتكلم فيها المتكلمون[1].

وقد علمنا أن العرب لم تكن فيهم عبادةُ الأصنام ، ثم وقعت لهم مـن بعض الأمم، التي كانت تعبد الأصنام حولهم، فعُرفت فيهم. فما يمنع أن يكون القول بالدهرية قد وقع لهم ،كما وقعت لهم عبادة الأصنام؟.وعبارة ابن كثير: "يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار، ومن وافقهـم مـن مشركي العرب.." تدل على أن العرب وافقوا في هذا المعتقـد غيـرهم، من الأمم التي دانت بذلك، وقد تكون الموافقة عن أخذ وتـأثر، وقـد لا تكون، وقد ذكرتُ من قبل قول أبي العلاء المعري: إن القول بالدهريـة

[1] مفاتيح العلوم : ٣٩.

شيء، مما تتوارثه الأمم[1]، فهو على هذا ممن يقول : إن العرب أخذوا هذا من غيرهم، وتأثروا فيه ببعض من خالطهم أو خالطوه..

وليس ببعيد أيضا أن يكون العرب لما حيرهم أمر الموت الذي ينــزل بهم بغتة، ولا ينجو منه أحد: من إنسان أو حيوان، أو طير، وأعجـزهم أن يجدوا لذلك تفسيرا قريبا ، ولم يكن في أيديهم علم حاضـر يهـديهم، =أعملوا الظن والتوهم ،كما أخبر القرآن الكريم، فلم يجدوا غير الـدهر، الذي هو وعاء للأحداث والنوازل، فنسبوا إليه فعل ما يقـع فيـه مـن الأحداث والنوازل ، متوهمين أن الدهر هو يفعل بهم هذا . وقـد أخبـر القرآن عـنهم أنهـم قـالوا: إن الـدهر يهلكهـم أي: يميـتهم، ولـم يقولواصراحة: إن الدهر يحييهم، فلعلهم لهذا أنكروا البعث، ولو كـانوا يظنون أن الدهر يحييهم ويميتهم معا، لجاز عقلا أن يكونـوا ظنـوا أن الدهر يبعثهم كما أماتهم.

ومن جملة معاني الأشعار الدهرية عند العرب: ذم الدهر وسـبه وشتمه. وهذا الذم السب دليل على أنهم كانوا يعتقدون أنه الفاعل بهـم، ويؤيد هذا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تعالى: يؤذيني ابن لآدم يسب الدهر، وأنا الدهر ، بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره. وفي رواية:" لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر"([2]).

وقال ابن كثير نقلا عن الشافعي وأبي عبيـدة وغيرهمـا مـن الأئمة:= " كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بـلاء أو نكبـة قالوا: يا خيبة الدهر، فينسبون تلك الأفعال إلى الدهر ويسـبونه، وإنمـا

---

[1] رسالة لغفران : ٤٢٦- ٤٢٨.

[2] من أحاديث الصحيح : البخاري :٤/ ٧٨. وابن كثير : ٤/١٥٠، ١٥١.

فاعلها هو الله تعالى ،فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة. فلهذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال. وهذا أحسن ما قيل في تفسير هذا الحديث"[1] و غلط ابن كثير ابن حزم ، ومن نحا نحوه من الظاهرية، ممن أخذ بظاهر عبارة:" إن الله هو الدهر"؛ فعدوا الدهر من أسماء الله الحسنى[2]!!! وهذا من عجائب الأخذ بالظاهر.

وفي هذا الكلام ما يدل على أن سب الدهر كان جاريا على ألسنة العرب في الشعر ، وفي منثور الكلام أيضا؛ لأن عبارة: "يا خيبة الدهر" مما كان يقال في غير الشعر، وقد وجدنا في الشعر عبارة: "لحى الله دهرا" ،أو "لحى الله هذا الدهر" ونحوهما، والمعنى واحد كما ترى.

وقد ذكرت من قبل أبياتا لذي الإصبع العدواني يقول فيها:

ولَقَبْلُ ما رام الإله بكيده   إرما وهذا الحي من عدوان

وبعد أربعة أبيات قال:

لا تعجبن أمامَ من حدث عرا   فالدهر غيرنا مع الأزمان[3]

فذكر الإله في أول الأبيات، وجعل الفعل له، ثم ذكر الدهر في آخر الأبيات وجعل الفعل له أيضا. أفيصح من أجل هذا أن يقال: إن بعض العرب كان معتقدهم في الدهرية، مثلَ معتقدهم في الألوهية؟، فكانوا يعرفون الإله الحق إذ سئلوا عنه ، ويقولون في الأصنام-مع هذا-: إنها

---

[1] تفسير ابن كثير :٤/١٥١.

[2] ابن كثير : ٤/١٥١.

[3] شعراء النصرانية : ٦٣٩.

تقربهم من الله زلفى، وكذلك كان منهم من يعتقد أن الله هو يميته ويحييه على الحقيقة، ثم جعل الدهر واسطة في فعل الموت، كما جعل الأصـــنام واسطة في القربى من الله؟.

*****

معاني الأشعار الدهرية قبل أبي تمام:

ولّد الشعراء العرب، في الجاهلية ،وأوائل الإسلام، في حديثهم عن الدهر جملة من المعاني، تفرعت عن نسبتهم الفعل إلى الدهرأذكر منها:

١ – شكوى الدهر:

فقد أكثروا جدا من شكوى الدهر ،والتوجع منه، وقالوا أنــه يــرميهم بكل بلية ورزية، ويقعد لهم كلّ مرصد: يتخطــف الأحبــاب، ويجنــدل الأبطال ، ويفرق الجمع، ويبدد الشمل، إلى أخر ما قالوا. ومــن ذلــك قول الفنّد الزماني، وهو جاهلي قديم من شعراء ربيعة:

ولا تبقي صروف الدهـــ ـــر إنسانا على حال[1]

وقال آخر في ابن عم سوْء:

أعان عليّ الدهر إذ حك بركَه كفى الدهر لو وكلتَه بي كافيا[2]

---

[1] شرح الحماسة : ٢/٥٤٠.
[2] السابق :١/٣٩٣.

ومن ذلك أيضا قول فالج بن خلاوة من غطفان –عاش مائة وثمانين سنة، وكان فارسا، وعرِّيضا، يعترض فيما لا يعنيه من الأمر، حتى ضرب به المثل، فقيل للرجل –إذا عرض فيما ليس من شأنه–:" أنت من هذا الأمر فالج بن خلاوة.."

وقد كنت ذا بأسٍ على النَّاس مرَّة ... إذا جئت أمرا جئته الدَّهر من علِ
فلمَّا رماني الدَّهر صـــرت رزيَّة ... لكل ضعيف الركن أكشف أعزل
فيا دهر قدما كنت صعبا فلم تزل ... بسهمك ترمي كلَّ عظم ومفصل
كذلك هذا الدهـــر:صارت بطونه ... ظهورا وأعلى الصدر منه كأسفل
فقد صرت بعد العزّ أغضى مذلَّـــة ... علـــى الهول والأزمان ذات تنقُّل
فصبرا على ريـــب الزمان وعضّه ... ولا تـــك ذا تيـــه ولا تتـــعلل[1]

وهذه شكوى قد قرنت بالتجلد للدهر ، والصبر على أحداثه ونُوَبِه . وقد مرت أمثلة كثيرة من شكوى الدهر، فأغنى ذلك عن ذكر المزيد.وجـــل حديث المعمرين عن الدهر، وفعله– كما علمتَ– مما يدخل فـــي بـــاب شكوى الدهر، وذم الزمان، وقد مرت له أمثلة كثيـــرة مـــن أشـــعارهم.
ولعلك تقول: ما وجه شكوى هؤلاء المعمرين من الدهر، ومـــا حـــاجتهم إلى مزيد من العيش، وقد أفنوا بعد الدهور دهورا؟. والجواب:أن أكثـــر شكواهم لم تكن شكوى المستزيد من العيش، الراغب في طول العمر، بل شكوى من ملّ عيشه، وسئم حياته، واستبطأ موته، وتعجل أجله.

٢ – الإقرار بالعجز عن مقارعة الدهر: والأكثر في أشعارهم أن يظهروا العجزَ عن مقارعة الدهر، والضعفَ عن مغالبة الحدثان. قال أكثم بـــن

---

[1] المعمرون : ٦٦، ٦٧.

صيفي في بعض حكمه:" إنك لن تخبأ للدهر خبئا إلا سألكَهُ([1])، يعني أنه لا يستعصي على الدهر شيء من أمر الناس". وذلك أنهم رأوا أن الدهر يُفني ولا يَفنى" كما قال زهير-والأَصمعي وغيره ينسبه لصرمة ابن أبي أنس الأنصاري":

بدا لي أن الناس تفنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا(٢)

وقال النابغة الذبياني:

تكلفني أن يفعل الدهر همها وهل وجدت قبلي على الدهر قادرا(3)

وقال دويد بن زيد بن نهد، من المعمرين، لما حضرته الوفاة:

اليوم يبنى لدويد بيتهْ لو كان للدهر بلى أبليتهْ

أو كان قرني واحدا كفيته(٤)

وقال زهير في جملة قصيدة رثى فيها هرم بن سنان:

فاستأثر الدهر الغداة بهم والدهر يرميني ولا أرمي

لو كان لي قرنا أناضله ما طاش عند حفيظة سهمي

أو كان يعطي النِّصف قلت له: أحرزت قسمك فاله عن قَسْمي

يا دهر قد أكثرت فجعتنا بسراتنا وقرعت في العظم

وسلبتنا ما لست معقبه يا دهر ما أنصفت في الحكم

---

[1] السابق : ١٧.

[2] هو في ديوان زهير بشرح ثعلب : ٢٨٥. وقال الأصمعي وغيره : هو لصرمة بن أبي أنس الأنصاري : الشعر والشعراء : ١٧٩/١.

[3] ديوانه : ٢٢٧.

[4] طبقات فحول الشعراء : ٣٢/١.

أجلت صروفك عن أخي ثقة   حامي الذمار مخالط الحزم
ينمي إلى ميراث والده   كل امرئ لأرومة ينمي[1]

فقالوا-كما ترى-: إنه لا خير في معاندة الدهر؛ لأن الدهر يُبلِي ولا يبلَى، ويرمِي ولا يرمَى، وليس بالقِرْن الذي يدفع شره، أو العادل الذي يعطي النصف من نفسه.وربما قال بعضهم: إن خيرا من معاندة الدهر مسالمته والتسليم له، والرضا بحكمه، فمن ذلك، قول، الأضبط بن قريع:

وصل وصال البعيد ما وصل الحبـ   ـل وأقص القريب إن قطعه
واقبل من الدهر ما أتاك به   من قرَّ عينا بعيشه نفعه[2]

وقول مضرس بن ربعي يوصي ابنه:

فلا تيأسنْ من صالح أنْ تنالهُ   وإنْ كانَ شيئا بين أيد تبادرهْ
وما فاتَ فاتركه إذا عزَّ واصطبر   على الدهر إنْ دارتْ عليك دوائرهْ[3]

وإنما أقروا للدهر بفعله ،لا عن رضى منهم، ولكنهم رأوا في أنفسهم العجز عن مقارعته أو ملاقاته ، فرأوا أن خير ما يدافع به الدهر الصبر على نوازله، والتجلد لمصائبه، وربما أظهر أحدهم التماسك للدهر،أو التقَوِّي عليه، وقال إنه ثبت للدهر، وبقيت فيه على كثرة الحدثان بقية،كما قال الجعدي:

فأبقى الدهر والأيام مني   كما أبقى من السيف اليماني

---

[1] ديوانه بشرح ثعلب :٣٨٥.
[2] المعمرون : ١٢.
[3] السابق :١٣٣.

تفلل، وهو مأثور جراز   إذا جمعت بقائمه اليدان[١]

وأوضح منه في المعنى قول جريبة بن الأشيم الفقعسي، وهو جاهلي أسلم:

إذا الدهر عضتك أنيابه   لدى الشر فازم به ما أزَمْ
ولا تلفَ في شره هائبا   كـأنك فيه مسر السقَيـمْ

قال المرزوقي:" فازم به أي: فاعضض به، يعني صابره"[٢]. ولكن هذا المذهب في أشعارهم قليل .

٣- ذم الدهر وشتمه: وقد جرتهم شكوى الدهر، والجزع مما يـأتيهم منه= إلى ذمه وشتمه، وقد أكثروا من ذلك ، حتى كان في العرب من اسمه "شتيم الدهر"، من عبد القيس ،وقد سبقت الإشارة إليه[٣].

وربما خلطوا الذم بالشكوى، والشكوى بالذم. وقد نقل عن زهير بن جناب قوله:" الإنسان في الدهر غرض تعاوره الرماة، فمقصر دونه، ومجاوز له، وواقع عن يمينه وشماله، ولا بد أن يصيبه". قال المرتضى-بعد ما نقل هذا القول-: وزهير بن جناب هذا ،كان على عهد كليب وائل، ولم يكن في العرب في زمانه من هو أنطق وأوجه عند

---

[1] طبقات فحول الشعراء : ١/١٢٤. وأمالي المرتضى : ١/ ٢٦٤.
[2] شرح الحماسة : ٣/١٠٧٦.
[3] انظر هذا البحث : ١١

الملوك منه، ولذا كان يسمى الكاهن؛لسداد رأيه، ولم تُجْمِع قضـــاعة إلا عليه، وعلى رزاح بن ربيعة[1] .

وقال يزيد بن خذاق:

هل للفتى من بنات الدهر مـــن واقِ   ثم هل له من حمام الموت من راقِ [2]

ونقل ابن قتيبة عن أبي عمرو بن العلاء: أن هذا أول شعر قيل فـــي ذم الدنيا. ولا أدري كيف يكون هذا؟!. وقد عرفتَ أن قدامى المعمرين مـــن العرب ذموا الدهر. ويزيد بن خذاق هذا ليس ذاهبا في القدم، فقـــد كـــان هو وأخوه سويد في زمن عمرو بن هند، ولهما فيه كلام من القوارع[٣].

٤ – **الدعاء على الدهر:** وهو معنى متصل بذمهم له، وشتمهم إياه: قـــال رجل من كلب:

لحى الله دهرا شره قبل خيره   ووجدا بصيفي قد أتى بعد معبدِ[4]

وقال أعرابي:

لحى الله دهرا شره قبل خيره   تقاضى فلم يحسن إلينا التقاضيا[5]

---

[1] أمالي المرتضى : ١/٢٣٩، ٢٤٠.

[2] سمط اللآلي : ٢/٧١٣.

[3] انظر : الشعر والشعراء : ١/٣٩٣.

[4] شرح الحماسة : ٣/ ١٠٧٤.

[5] السابق : ٣/ ١٠٧٦.

وعبارة لحى الله دهرا في الشعر ، كقولهم : ياخيبة الدهر في معتاد الكلام ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا.

٥- نداء الدهر: وربما نادى أحدهم الدهر، نداء المتوجع منه، المستجير من فعله، كقول زهير من قصيدة في رثاء هرم بن سنان – وقد سبقت الأبيات–:

يا دهر قد أكثـرت فجعتنـا ... بسـراتنا وقرعت في العظم

وسلبتنا مـا لسـت معقبـه ... يا دهرَ ما أنصفت في الحكم

أَجْلَتْ صروفك عن أخي ثقة ... حامـي الذمـار مخلط الحزم

ينمـي إلى ميـراث والـده ... كل امرئ لأرومـة ينـمي[1]

٦- تولع الدهر بالكرام: ومنه قول طرفة:

أرى الدهرَ يعتامُ الكرام ويصطفي ... عقيلةَ مال الفاحش المتشدد[٢]

٧- تلون الدهر وتقلبه: فالدهر قُلب ذو ألوان، لا يبقي الناس على حالة واحدة. وينتقل بأهله من خير إلى شر، ومن شر إلى خير، قال دويد بـن نهد، من المعمرين – وقد تقدمت الأبيات–:

ألقى علي الدهر رجلا ويدا

والدهر ما أصلح يوما أفسدا

---

[1] ديوانه :٣٨٥. وراجع شرح الحماسة للمرزوقي : ٧٦٦/٢. فقد نسب بعضهم فيـه البيت الأول للأعشى .

[2] شرح الحماسة ..: ٣٤٤/١.

يصلحه اليوم ويفسده غدا

وقال خطاب بن المعلى:

أنزلني الدهر على حكمه من شامخ عال إلى خفضِ

وغالني الدهر بوفْرِ الغنى فليس له مال سوى عرضي

أبكاني الدهر ويا ربما أضحكني الدهر بما يُرضي[1]

والمراد هنا البيت الأخير فإنه قال: إن الدهر قد أبكاه اليوم وكان قد أضحكه من قبل زمانا. وقال المرزوقي في شرح البيت الأول من هذه الأبيات:" يقول للدهر حكمٍ معروف، وطريق مألوف، في رفع الوضيع، وحط الرفيع، فأجرى حكمه علي"[2] وهذا يعود إلى معنى الإقرار بالعجز عن مقارعة الدهر ومغالبته، وقد ذكرته أولا.

وقال عقيل بن علفة:

وللدهر أثواب فكن في ثيابه كلبسته يوما أَجَدَّ وأخلقا[3]

وأثواب الدهر حالاته. وقال عبد الله بن عنمة -وهو إسلامي شهد القادسية-:

أبلغ بني الحارث المرجو نصرهم والدهر يحدث بعد المرَّة الحالا[4]

وقال النابغة:

---

[1] شرح الحماسةللمرزوقي :١/٢٨٥.

[2] السابق :١/٢٨٥.

[3] شرح الحماسة : ١/٢٨٥، وأمالي المرتضى : ١/٣٧٤.

[4] أمالي المرتضى : ٢/٥٨٤.

قل للهمام وخير القول أصدقه   والدهر يومض بعد الحال بالحال[1]

وقال عَبِيد:

فخلّدت بعدهم ولست بخالد   فالدهر ذو غِيَرٍ وذو ألوان[2]

وكما أن الدهر يتنقل عندهم بالناس من حال إلى حال، فهو ينتقل أيضا من قدامى صرعاه إلى صرعى جدد، ويضع مرفوعا من الناس ، ويرفع وضيعا. قال العلاء بن قرظة ،خال الفرزدق:

إذ ما الدهر جر على أناس   كلاكله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا   سيلقى الشامتون كما لقينا[٣]

هذه أبرز المعاني التي ولّدها الشعراء في الجاهلية، وأوائل الإسلام –في حديثهم عن الدهر وفعله. وكُنّ على ذكر من هذه المعاني؛ فإنها ترد كثيرا في شعر أبي تمام كما سيأتي، على أن أبا تمام إذا أخذ المعنى تصرف فيه، وأجَدَّ له كسوة، فصار له فيه من الإحسان على قدر تصرفه وتفننه ، ثم هو يجهد نفسه في استخراج المعاني التي تركها سابقوه ، وستقف على هذا عند الحديث عن معاني الدهر في شعر أبي تمام.

---

[1] ديوانه : ١٦٥.

[2] ديوانه : ١٣١.

[3] الشعر والشعراء : ١/٤٨٥، وراجع شرح الحماسة : ٣/ ١٢٠٨.

أبو تمام والدهر

أكثر أبو تمام في شعره من شكوى الدهر ، وأسرف في ذمه ولومه، وأربى في ذلك على غيره من الشعراء. ولو كانت شكواه في دور واحد من أدوار حياته، أو طور واحد من أطوار عيشه، أو غرض واحد من أغراض شعره، لقلنا عرض من الهَمِّ عرَض له، أو فاجعة من الأمر فجعته، أو نازلة من النوازل ألمت به، -أوجت شكواه ، وأظهرت جزعه، فإذا ذهب السبب ذهبت الشكوى، وسكن الجزع.

ولكني وجدت شكواه من الدهر وفعله، وذمه صنيعَه يصحبه في سائر أدوار حياته مذ كان فتى حدثا ، قذفت به الشام إلى مصر، إلى أن أصبح كهلا مجربا، ومنذ كان فقيرا معدما،يتلقط عيشه بالمدح واحتراف الأدب، إلى أن صار شاعرا مادحا نابها ،قد ملأ يديه من الدنيا. ووجدت شكواه من الدهر وفعله صوتا يتردد في سائر أغراض شعره، حتى لا تكاد تمر له قصيدة ،لا يشتكي فيها الدهر شكوى صريحة ظاهرة، أو خفية باطنة، وسترى نماذج ذلك كله فيما يأتيك من الحديث.

وإذا كان شاعر عبد القيس الذي لقب بـ " شاتم الدهر"، قد ألصق به هذا اللقب؛ لأنه جعل للدهر وجها أذنب مجدعا، وجبهة قرد، وأنفا ضئيلا، وأخدعا في قوله:

ولما رأيت الدهر وعراً سبيله   وأبدى لنا ظهراً أجَبَّ مسلعا

وجبهة قرد كالشراك ضئيلة   وصَعَّر خديه وأنفا مخدعا

ومعرَفَة حصَّاء غير مفاضة   عليه ولونا ذا عثانين أنزعا

ذكرت الكرام الذاهبين أولي الندى وقلت لعمرو والحسام: ألا دَعَا[1].

فأولى بهذا اللقب أبو تمام الذي نسب الخُرْق إلى الدهر في قوله:

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

وشبهه بالعبد المجدَّع في قوله:

لَقَد ساسنا هذا الزَمانُ سِياسَةً سُدىً لَم يَسُسها قَطُّ عَبدٌ مُجَدَّعُ

وجعله يصرع في قوله :

تروح علينا كل يوم وتغـــتدي خطوب كأن الدهر منهن يصرع

بل جعله حمارا في قوله :

فلو ذهبت سنات الدهر عنه وألقى عن مناكبه الدثار
لعدل قسمة الأرزاق فينـــا ولكن دهرنا هذا حمار

وأوصافـًا أخرى كثيرة ، من جنس هذا ألصقها أبو تمام بالدهر ، ستمر بك تباعا ، هي ومواضعها من ديوانه .وقد صرح أبو تمام بأن من مذهبه ذم الدهر فقال :

أسيء على الدهر الثناءَ فقــد قضى علي بجور صرفُهُ المتتابعُ
أيرضخنا رضخَ النوى وهو مصمت ويأكلنا أكلَ الدَّبَا وهو جائعُ؟

---

[1] الصناعتين ٣٠٣، ورسالة الغفران :٤٢٨.مع اختلاف في الرواية . وقال أبو هلال :"وما أعرف متى رأى هذا للدهر جبهة كالشراك ، مع هذا الذي عدده فجـــاء بمـــا يضحك الثكلى..."

شكوى أبي تمام في مصر :

مجيء أبي تمام إلى مصر: متى جاء؟ ولم جاء؟ من مشكل حياته الذي لا يخلص إليه إلا بصعوبة. ولن تعرف تفسير شكوى أبي تمام في مصر، حتى تعرف السبب الذي جاء به إليها، وما كان أمّله فيها، ثم ما لقيه فيها، وما كابده، حتى فارقها وهو لها ذام وعليها حانق، وفيها من الزاهدين. والروايات متساندة على أن أبا تمام قدم إلى مصر في حداثة سنه، وأنه كان في أول أمره يسقي الماء في مسجدها الجامع . قال ابن المستوفي يرويه عن غيره: "أبو تمام شامي الأصل، كان بمصر في حداثته، يسقي الماء في المسجد الجامع، ثم جالس الأدباء وأخذ عنهم، وتعلم منهم، وكان فطِنا فهِما، وكان يحب الشعر ، فلم يزل يعانيه، حتى قال الشعر فأجاد"[1]. وهذ المعنى بعينه تجده عند الخطيب البغدادي، وابن خلكان، والسيوطي[2]، وغيرهم.

فما الذي يحمل فتى حدثا على أن يفارق أهله، ويدع وطنه، وترمي به الفلوات، وتقذف به ظهور العيس إلى بلد غير بلده، وقوم غير أهله. وليس الغريب أن يأتي أبو تمام إلى مصر؛ فقد جاءها قبله وبعده شعراء كثيرون ، وكانت مصر والشام يومئذ كالبلد الواحد تباعد ما بين طرفيه ، ولكن الغريب أن يأتي أبو تمام في هذه السن التي لا يستقل الفتى فيها عادة بنفسه، ولا يكلف معالجة العيش وحده. وهو فيما يبدو لم يكن يسقي الماء يومئذ في المسجد الجامع بمصر حسبة، ولا طلبا لمثوبة، ولكنه على الأرجح كان يتكسب من ذلك عيشه، ويسد منه

---

[1] النظام ...: ١/١٩٣.

[2] انظر : تاريخ بغداد :٨/٢٤٨، والوفيات : ١/١٢١، وحسن المحاضرة : ١/٥٥٩.

جوعته. ومجيؤه إلى مصر في هذه السن، وعلى تلك الحالة،قد ينصر رأي من قال إن أباه كان رجلا فقيرا، ضيقا العيش، وإنه ترك أبا تمام بقرية "جاسم" بالشام عند حائك، أو قزاز، ورحل إلى دمشق ليعمل خمارا!![1].

والاختلاف في أبي تمام، وأسرته، ونسبه قديم: أهو طائي صليبة من أنفسهم أم لا؟، وأكان أبوه نصرانيا أم لا؟. والصولي وهو من المتصرين لأبي تمام يقول: "وقيل: إن أبا تمام من بني عدي بن عمرو ابن الغوث من طيء، وقيل: كان أبوه نصرانيا من أهل "جاسم"، واسمه "تدوس"، فصيره أبو تمام:"أوسا". ومما يدل على أن أباه كان نصرانيا، ما قاله فيه أبو الوليد يهجوه من أبيات:

لو أن عبد مناف في أرومتهم   تقبلوك لما ضروا وما نفعوا
مرباع قومك ناقوس وشمعلة   فاذكر مرابيعهم فيها إذا ارتبعوا

ويقال: إن اسم أبيه "كاوس"، وفيه يقول أحمد بن محمد الخثعمي:

ولقد طلبت أبا فأعجز وُجْدُه   حتى انبرى لك كاوس الخمار
فحذفت كافا كنت تعلم أنها   إن زدتها لقصيدتيك زِيَار[2].

والشعراء يتقول بعضهم على بعض في الهجاء ، ويكذب بعضهم على بعض، وربما بلغ الأمر مبلغ اختلاق نسب لا وجود له. ولا حظ أن العبارة جاءت في هذا الخبر بصيغة التمريض: "وقيل". والبكري يقطع بطائية أبي تمام فيقول :"وهو أبو تمام حبيب بن أوس بن ثابت، طائي

---

[1] الإنسان والتاريخ في شعر أبي تمام : ١١٦.

[2] ديوانه :٤/٦٠٥،٦٠٤. والزيار : ما يوضع في فجم الدابة لتلجم به.(الهامش).

من أنفسهم.."[1]. وأبو تمام لم يذكر أياه صراحة في فخره ، على كثرة ما افتخر!!، بل وصل نفسه بطيء، ورجالها في الجاهلية والإسلام. وله قطعة زهدية يقول فيها :إن النسب هو :الدين وحسن الأدب، يقول:

إذا ما شئت حسن الد   ين منك بصالح الأدب
فممن شئت كن فلقد   فلحت بأكرم النسب
فنفسك قط أصلحها   ودعني من قديم أب [2]

فماذا تفهم من قوله : "ودعني من قديم أب"، مع كثرة فخره في شعره ، على أن للزهد مذهبًا يخالف مذهب الفخر.

وأدوار حياة أبي تمام الظاهرة لنا من أخباره وأشعاره خمسة أدوار: ما قبل مجيئه إلى مصر، ثم المدة التي أقامها في مصر، ثم مقامه في الشام بعد عودته إلى الموصل ، ثم رحلته إلى العراق ، وقد طال فيه مقامه، ثم رحلته إلى خراسان[3]: فقد كان في أول أمره منقطعا إلى بني عبد الكريم الطائيين بحمص ، وكانوا محسنين إليه فمدحهم ، وهجا عتبة بن أبي عاصم الحمصي لما هجاهم ، ثم انتقل إلى مصر فمدح بها عياش بن لَهيعَة الحضرمي ، وأقام عنده مدة يستبطئه ويستزيده ،فلم يجد عنده ما أمل .ثم هجاه، ثم سار إلى دمشق فمدح بها أبا المغيث بن إبراهيم الرافقي فلم ينل منه خيرا ثم هجاه ، ثم سار إلى المأمون في بلاد الشام ومدحه، بقصيدتين فما وجد من يوصلهما إليه

---

[1] السمط : ٤٢٥/١.
[2] ديوانه :٥٩٣/٥.
[3] ديوانه:٦٠٥/٤.

.ثم سار إلى العراق في خلافة المعتصم ، ثم رحل إلى خراسان[1].وهو في هذه الأدوار كلها في حركة لا تفتر، وترحال لا يكاد ينقطع .وهو القائل يعني نفسه:

سلي هل عمرتُ القفر وهو سباسب   وغادرت ربعي من ركابي سباسبا
وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق   وشرقت حتى قد نسيت المغاربا
خطوب إذا لاقيتهن رددنني   جريحا كأنني قد لقيت الكتائبا[2]

وقد أعملتُ الرأي في مجيء أبي تمام إلى مصر: متى جاء ؟، وما الذي جاء به؟ .أما متى جاء إلى مصر؟ فمن المشكل حقا؛ لأن مولده مختلف فيه كثيرا، فقد قيل: ولد سنة ١٧٢هـ، وقيل:١٨٢هـ، وقيل ١٨٨هـ، وقيل:١٩٠هـ-وهذا القول منسوب إليه، مروي عنه- وقيل:١٩٢،هـ[3]. وهذا الاختلاف في سنة مولده مانع من تحديد عمره حين جاء إلى مصر، أو تعيين سنة مجيئه إليها على وجه القطع.

والذي جاءت به الرواية أنه كان في أول أمره منقطعا إلى بني عبد الكريم الطائيين بحمص،كما قلتُ ، ثم انتقل إلى مصر فمدح بها عياش بن لَهيعة الحضرمي، وأقام عنده مدة يستبطئه ويستزيده ،فلم ينل منه خيرا ، ومات عياش فهجاه بعد موته...[4] .

---

[1] ديوانه :٤/٥٦٤.

[2] من مدحة في الحسن بن سهل :ديوانه :١/١٤٧.

[3] أخبار أبي تمام : ٢٧٢.

[4] ديوانه : ٤/٦٠٥

وعياش بن لَهِيعة ولي مصر سنة ٢٠١هـ، فينبغي أن يكون مدحُ أبي تمام له بعد هذا التاريخ .والأستاذ محمد عبده عزام يقول: إن أبا تمام اتصل بمصر أولا بالمطلب الخزاعي، وهو قائد يمني، قبل أن يتصل بعياش بن لهيعة، وهو أيضا قائد يمني[1]. والمطلب الخزاعي ولي مصر من قِبَل المأمون في ربيع الأول سنة١٩٨هـ على الصلاة والخراج، وكانت ولايته سبعة أشهر ونصفا، ثم صرف في شوال سنة١٩٨، وعزل وسجن ،وكان في حبس عبد الله بن العباس بن موسى، ثم عاد إلى ولاية مصر بإجماع الجند في الرابع عشر من المحرم سنة١٩٩هـ، ثم خلعه السري بن الحكم ، فتركها إلى مكة سنة ٢٠٠هـ، وكانت ولايته في هذه المرة سنة وثمانية أشهر[2].

وفي ديوان أبي تمام بيتان صدرهما : " وقال يهجو المطلب الخزاعي وكان مدحه " وهما :

أول عدل منك فيما أرى أنك لا تقبل قول الكذب
مدحتكم كذبا فجازيتني بخلا لقد أنصفت يا مطلب [3]

ويشبه هذا أن يكون من شعر البدايات الأولى . ثم وليها -أي مصر- بعده السري بن الحكم باجماع الجند على الصلاة والخراج مستهل رمضان من سنة ٢٠٠هـ، ثم وليها سليمان بن غالب البجلي على الصلاة والخراج ، بمبايعة الجند في ربيع الأول سنة ٢٠١هـ،

---

[1] ليال خمس مع أبي تمام :٥٢.

[2] الولاة والقضاة :١٥٢-١٦١.

[3] ٣٢٤/٤.

فجعل على شرطه أبا بكر بن جنادة المغافري، ثم عزله وولّى مكانه عياش بن لهيعة بن عيسى الحضرمي سنة ٢٠١هـ[1].

فعلى هذا يكون أبو تمام كان في مصر قبل سنة ٢٠٠هـ.فإن كان مولده سنة ١٩٢هـ فقد مدح المطلب الخزاعي وعمره ثماني سنوات!!وهذا بعيد ،وإن كان مولدسنة١٩٠هـ، وهو المروي عنه فقد مدحه وعمره عشر سنوات ، وهذا اقرب إلى القبول. وابن المستوفى والخطيب البغدادي يقولان عن أبي تمام :"كان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع.."[2]، والسيوطي ينقل عن ابن خلكان: "أنه كان في مصر في شبيبته"[3]. فهل لفظ حداثته عند الأولَيْن مساو في المعنى للفظ شبيبتِه عند الأخير؟.

والتبريزي يقول: إنه تعلم الشعر في مصر[4]. فكيف يكون قد مدح بني عبد الكريم الطائيين، وهجا عتبة الحمصي لما هجاهم، كل ذلك قبل أن يأتي إلى مصر، ثم يكون قد أتى مصر حدثا، يسقي الماء في المسجد الجامع بها، ويكون قد تعلم الشعر في مصر؟!.والتبريزي يقول أيضا :إن أولاد عبد الكريم الطائيين كانوا يزعمون أن أبا تمام أدبهم، وكان يختلف إليهم، وهم يفخرون بذلك. وبعيد جدا أن يكون أبو تمام أدبهم قبل أن يذهب إلى مصر، وهو دون الثامنة. والصواب أن يكون ذلك بعد أن عاد من مصر، فإنه نزل ببني عبد الكريم مرة أخرى،

---

[1] السابق :١٦٠-١٦٦.

[2] النظام .. : ١٩٣/١.

[3] حسن المحاضرة : ٥٥٩/١، والوفيات : ١٢١/١.

[4] ديوانه :٦٠٥/٤.

مقْدمَه من مصر."حدث محمد بن عبد الكريم قال :"لما صار إلينـــا أبـــو تمام مقدمه من مصر عمل قصيدته التي مطلعها:

أرامة كنت مألف كل ريم ..[1]

فاتصل خبرها بعتبة بن أبي عاصم الذي يهجوه أبو تمام[2]، وهو كلبي من قضاعة، وكان عالما أديبا شاعرا، فأحب أن يسمع هذه القصيدة من أبي تمام ، فقال لمن حضره: "ائتوني به"، فجاءوه به فأنشده إياهـــا، فلما فرغ من إنشاده قال عتبة :" أحسنتَ ياغلام علـــى صـــغر ســـنك". فسكت أبو تمام ثم قال: يا عم أنشدني من شعرك. فأنشده قصـــيدة فلمـــا فرغ قال أبو تمام : "يا عم ما أحسنت على كبر سنك"، فقال عتبة لبنـــي عبد الكريم ، لمّا سمع من أبي تمام ما سمع: أخرجوا هـــذا مـــن بلـــدنا، فليس يصلح أن يقيم معي في بلد"[3].

والأستاذ البهبيتي يزعم أن أبا تمام نزل مصر مـــرتين: الأولـــى سنة٢٠٣هـــــ، والثانية سنة ٢١١هــ ،وفيها ذكَر الوقعة التي كانت بين عبد الله بن طاهر، وعبد الله بن السري، وذلك في خلافـــة المـــأمون[4].
قلت: وهذه الواقعة كانت في المحرم من سنة ٢١١هـــ، ولما وقعت قال أبو تمام:

---

[1] تمام البيت : ..لو استمتعت بالأنس القديم .ديوانه :١٦٠/٣.

[2] انظـــــر أهـــــاجي أبـــــي تمـــــام لـــــه فـــــي ديوانـــــه :٢٩٨/٤،، ٢٩٩، ٣٠٢،٣٠٥،٣٣١،٣٤٠،٣٨٧،٣٩٣،٤٠٤.

[3] ديوانه :٦٠٥،٦٠٦/٤

[4] أبو تمام الطائي: ٩٠ وما بعدها

لعمري لقد كانت بمصر وقيعة   أقامت على قصد الهدى كل مائل

ولما أخرج ابن طاهر عبيدَ بن السري إلى بغداد، منتصف جمادى الأولى سنة ٢١١هـ قال أبو تمام:

فأورده بغداد يهوي برحله   زمولٌ ترامى في قلاص زوامل

وكان مقام عبد الله بن طاهر، منذ أن صحت ولايته على مصر إلى أخرج منها إلى العراق سبعة عشر شهرا وعشرة أيام[1]. ولعل هذا الشعر هو الذي حمل الأستاذ البهبيتي على أن يقول: إن أبا تمام كان بمصر بين سنتي ٢١١هـ و ٢١٤هـ[2].

والصواب عندي: أن أبا تمام قال هذا الشعر، ولم يكن يومها في مصر، وإنما بلغته الواقعة وهو بالشام أو بالعراق فوصفها، ولعله كان موصول الحبل يومئذ بعبد الله بن طاهر، وهو أحد ممدوحيه من بعدُ؛ لأنه وصف إيقاع ابن طاهر بابن السري بقوله: "لعمري لقد كانت بمصر..إلخ"، وهذا لفظ من يحكي حدثا بلغه خبره، ويذكر إيراد ابن طاهر إياه العراق بقوله: "فأورده بغداد ..إلخ"، وهو لفظ الحاضر ببغداد المشاهدِ لما وقع، أو القريبِ العالم بالخبر. وحين قتل أهل الحوف عميرَ ابن الوليد الذي استخلفه المعتصم على مصرَ بعد ابن طاهر، في الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٢١٤هـ، ولم يقِم عميرٌ في مصر حتى قتل إلا ستين يوما!= قال أبو تمام:

---

[1] الولاة والقضاة : ١٨٠-١٨٤ .

[2] أبو تمام الطائي :٦٣.

ألا رزئت خراسان فتاها غداة ثوى عمير بن الوليد...

وقال أيضا :

أنعي عمير بن الوليد لغارة بكر من الغارات أو لعوان ...[1]

وحين ولي عيسى بن يزيد الجلودي على مصر، ولايته الثانية من قبل المعتصم، فأوقع به أهلُ الحوف وقعة منكرة في رجب من سنة ٢١٤هـ، قال أبو تمام يهجوه :

الله أرهقك الهزيمة إذ جذبتك أحبالُ الردى جذبا[2]

ثم قدم المعتصم فهزم أهل الحوف ، في العشرين من شعبان ٢١٤هـ [3].ولا ريب في أن أبا تمام لم يكن في مصر سنة ٢١٤هـ، إذ لم يقل به أحد فيما أعلم.ويُذكر أن المعتصم كان قد جعل ولاته على مصر: على صلاتها وشرطتها من العجم!!، وأرسل إلى واليه عليها، "كَيْدَر"، واسمه نصر، أن يسقط مَن في الديوان من العرب، ويقطع أعطياتهم!! ففعل، وبئس ما فعل. وكان عنبسة بن إسحاق الضبي آخر من ولي مصر من العرب، وآخرَ من صلى بالناس في المسجد الجامع، وليها أربع سنين، وأربعة أشهر، وخرج إلى العراق في رمضان سنة ٢١٤هـ[4].

---

[1] الولاة والقضاة: ١٨٠-١٨٤.

[2] ثلاثون بيتا في ديوانه :٤/٣٢٠-٣٢٣.وفيه الله أعطاك الهزيمة ..إلخ .

[3] الولاة والقضاة: ١٨٠-١٨٨.

[4] نفسه :٢٠٢.

والذي يترجح عندي من هذا كله أن أبا تمام كان في مصر أواخر المائة الثانية ، ومطلع المائة الثالثة، وأنه أقام في مصر سنوات ثلاث أو نحوها ، قبل أن يتصل بعياش، جالس فيها أهل الأدب، وتفتقت موهبته في قرض الشعر، ثم اتصل بعياش ، وكان منه معه ما كان من مدح، وعتاب، وهجاء، ثم ترك مصر إلى الشام ، فنزل ببني عبد الكريم الطائيين، فأقام مدة مدحهم فيها، وهجا من هجاهم، وكانت قد استقامت له في الشعر طريقة، ثم حدث له مع عتبة الحمصي ما حكيتُه قبل، فترك حمص.

أما ما دفع بأبي تمام إلى مصر ففي ديوانه قصيدة، في أول قافية اللام ، قدم لها التبريزي بقوله: "وقال يصف تعذر الرزق عليه بمصر" ، وفيها يقول:

بنفسي أرضُ الشام لا أيمنُ الحمى	ولا أيسرُ الدهنا ولا وسطُ الرملِ
ولم أر مثلي مستهاما بمثلكم	له مثل قلبي فيه ما فيه لايغلي
عدتني عنكم مكرها غربة النوى	لها طَرْبَةٌ في أن تُمِر ولا تحلي
إذا لحظت حبلا من الحي محصدا	رمته فلم يسلم بناقضة الفتل
أتت بعد هجر من حبيب فحركت	صبابة ما أبقى الصدودُ من الوصل
أخمسة أحوال مضت لمغيبه	وشهران بل يومان نِكْلٌ من النِّكْلِ[1]
توانى وشيك النجح عنه ووكلت	به عزمات أوقفته على رجل
ويمنعه من أن يبيت زماعُه	على عجل أن القضاء على رسل
قضى الدهر مني نحبه يوم قتله	هواي بإرقال الغريرية الفتل
لقد طلعت في وجه مصر بوجهه	بلا طالع سعد ولا طائر سهل

[1] النِّكلُ: القيد الشديد والجمع أنكال. من حاشية الديوان.

وساوسُ آمالٍ ومذهب همة تخيلُ لي بين المطية والرحل
وسورة علم لم تسدد فأصبحت وما يتمارى أنها سورة الجهل
نأيتُ فلا مال حويتُ ولم أقم فأمتع إذ فجعت بالمال والأهل
عصيت شَبَا عزمي لطاعة حيرة دعتني إلى أن أفتح القفل بالقفل
ولو أنني أعطيت يأسي نصيبه إذن لأخذت الحزم من مأخذ سهل
وكان ورائي من صريمة طيء ومعن ووهب من أمامي ما يُسْلي
فلم يك ما جرعت نفسي من الأسى ولم يك ما جرعت قومي من الثكل[1]

ففي هذه الأبيات الغنية بالدلالة إشارات دالة منها: قوله: "عدتني عنكم مكرها.."، ففي هذا القول دليلٌ على أن أبا تمام لم يأت مصر، حين جاءها مختارا، بل أكرهته على المجيء أسباب، ودعته إليه دواع لم يكن فيها مختارا، وكذا قوله: "أتت بعد هجر من حبيب.."، والضمير في :"أتت.." عائد على غربة النوى، التي قذفت به إلى مصر، وقد فسر الصولي البيت بقوله: "أي أتت غربة النوى بعد هجر، فحركت بالبين باقي الوجد، فاجتمع هجر وفرقة". وأبو تمام يقول: "بعد هجر من حبيب.."، ويكرر المعنى في قوله:

قضى الدهر مني نحبه يوم قتله هواي ... البيت.

وفي إحدى معاتباته لعياش أبيات أخر بها- إن لم تكن في امرأة أخرى- أن تكون في هذه المرأة التي أحبها، وترك موطنه لإخفاقه في حبها، وهي قوله:

أما الذي في جسمه فسل التي هجرته وهو مواصل لم يهجر

---

[1] ديوانه :٤/٥٢٢-٥٢٥.

صفراء صفرة صحة قد ركبت جثمانه في ثوب سقم أصفر
قتلته سرا ثم قالت جهرة قول الفرزدق : لا بظبي أعفر
نظرت إليه فما استتمت لحظها حتى تمنت أنها لم تنظر
ورأت شحوبا رابها في جسمه ماذا يريبك من جواد مضمر[1]

فهل يمكن أن يقال:إن مما جاء بأبي تمام إلى مصر مكرها، هوى حبيب حيل بينه وبينه، أو تجربةُ حب فاشلة، أعقبته هجرا، وأورثته صدا، وأثمرت حرمانا ويأسا، فطلب بالرحيل النسيانَ ، وظن في السفر السلوان؟، الشعر يدل على هذا المعنى صراحة. وقد يمنع من المضي في هذا الافتراض إلى منتهاه أن أبا تمام جاء إلى مصر يوم جاءها، فتى حدثا، وصبيا غرا غفلا، كما قيل. ولكن الحداثة معنى نسبي، وأبو تمام كان ابنَ موت، سبق سنَّه، وفاق أترابه، وأحكمته التجارب صغيرا، وله في هذا نظراء وأشباه. وهو القائل يصف نفسه:

ست وعشرون تدعوني فأتبعها إلى المشيب ولم تظلم ولم تحُبِ
يومي من الدهر مثل الدهر مشتهر عزما وحزما، وساعي منه كالحقب
فأصغري أن شيبي لاح بي حدثا وأكبري أنني في المهد لم أشب
ولا يؤرقك إيماض القتير به فإن ذاك ابتسامُ الرأي والأدب[2]

على أن الحداثة ممن يعقل، ليست مانعة من العشق، والوقوع في الحب، لا بل هي حرية أن تجعل الهروبَ هو الحل الأقرب، و الخيار الأسهل؛ وأبو تمام يقول :

---

[1] ديوانه :٤/٤٥٠.
[2] من مدحة في الحسن بن سهل :ديوانه :١/١١٦،١١٥.

أخمسة أحوال مضت لمجيئه ... البيت

وهذا دليل على أنه كان قد مر عليه في مصر يوم قال ما قال، خمسة أعوام ويزيد، ثم هاهو يتحدث ، وكان ما حدث له، حدث في اليوم الفائت، أو بالأمس القريب، فإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن التجربة الوجدانية ، والمحنة العاطفيةالتي كابدها، كانت ما زالت حية في نفسه، تؤلمه غاية الألم، بعدما تركت في قلبه نُدبة، وفي نفسه جرحا لا يندمل، وليست من جنس ما ينسى من التجارب سريعا، أويسلى عنه من قريب.

وأبو تمام يذكر في الأبيات السابقة أيضا أن مما رمى به إلى مصر :"عزمات أوقفته على رجل"، و"ووساوس آمال.."، و"همة تخَيَّل له بين المطية والرحل"، و "سورة علم لم تسدد، فكانت سوْرة جهل"، و"رجاء اجتناء الجود"، و"حيرة دعته إلى أن يفتح القفل بالقفل"، وفي هذا كله ما يدل على أن ما ناله في الشام ،فرمىَ به إلى مصر = كان من أسبابه الفقرُ والعوز، وسود الحال وضيق ذات اليد، فزينت له نفسه، أو زين له غيره أنه واجد في مصر ما أراد من الغني، وما كان يطلب من المال، فلم يكن ما أراد، ولا وجد فيها ما توقع، ففجع بالأهل والمال معا، وللمال مع أبي تمام قصة ، كانت من جملة أسباب شكواه من الدهر، وسأعود إليها لاحقا.

وفي بائية له يذكر وطنه الشام وهو منه بعيد، ويدعو لدمشق والبقاع والقوطة الخضراء جميعا بالسقيا، ثم يقول:

بلاد أفقدتنيها هناة يشيِّب كرُّها من لا يشيب

وكم عدوية من سر عمر لها حسب إذ انتسبت حسيب

لها من طيء أمٌّ حصان نجيبة معشر وأب نجيب

تمنى أن يعود لها حبيبٌ مُنًى شططا وأين لها حبيب

يعني "بالتي "من سرعمرو" أمَه، وحبيب هنا : اسم أو صفة ، يعني نفسه وهو اسمه أو: شخص حبيب إليها، ويقول:

ولو بصرت به لرأت جَرِيضًا بماء الدهر حليته الشحوب

كنصل السيف عُري من كساه وفَلّت من مضاربه الخطوب

زعيما بالغنى أو ندب نوح تعَطّط في مآتمه الجيوب

فأصبح حيث لا نقع لصادٍ ولا نشب يلوذ به حَريب

بمصر وأي مأربة بمصر وقد شعبت أكابرَها شعوبُ[1]

ويذكر ما كان بمصر من أكابر العرب الأولين، من قبائل:"يُحَابر"، و "وتُجيب" ، وحيا حضرموت: "حارث ، وشبيب"، و"خولان"، و" يحصب "، ممن كان يقصد ويحمد، ويقول: إنه خلف من بعدهم خلف منهم، وأصبية ليس لهم ما كان لآبائهم:

أولئك لا خوالف أعقبتهم كما خلفت هواديها العجُوب

حواقلة وأصبية ترامت بهم بيد الدخالة والسهوب

فلا الأحداثُ بالأحداثِ ترجى فواضلهم ولا الشيخان شيب

كلا طعميهم سلَعٌ وصاب فأي مذا قتيهم تستطيب !؟

لهم نسب وليس لهم فعَال وأجسام وليس لهم قلوب[1]

---

[1] ديوانه:٤/٥٥٥- ٥٥٧. وتعطط: تشقق، والحريب: المسلوب. وشعوب :اسم للمنية .من شرح التبريزي والحاشية.

وهو لم يقل هذه القصيدة في مصر، بل قالها بعد ما تركها؛ لأنه يقول فيها:

أرومُ حِمى العِراقِ فتَدَّريني　　　رِماةُ جَوىً لِشَجوٍ ما تُصيبُ

ويقول :

تحيفتِ الأمورُ أبا سعيدٍ　　　وضاقَ بأهلهِ اللقمُ الركوبُ[2] ..

يريد أبا سعيد الثغري ، أحد ممدوحيه بعد ما ترك مصر .وهو في القصيدة يتذكر ما كان أخرجه من وطنه الشام، ورمى به إلى مصر، فيقول: إنما دفعه إلى هذا "هناتٌ يشيب كرُها من لا يشيب. وفسرت الهنات بأنها جمع هنة، وهي كناية عن الخطوب. وهذه الخطوب ، على الأرجح هي ما كان ذكره في القصيدة السابقة.

وذكْر من ذكرهم أبو تمام من قبائل اليمن يوحي بأنه غُرر به حين أُوحِي إليه ، أو ظن هو أنه إن نزل مصر ، وفيها من فيها من قبائل اليمن وحضرموت، وهو يمني مثلهم، - وجد عندهم متسعا، وصادف هناك غنى، ولذا كان أول ممدوحيه في مصر، عياش بن لهيعة، وهو حضرمي يمني الأصل مثله، فوجد الأمر على خلاف ما أمل، وعلى غير ما كان أوحي به إليه ،أو منّته نفسه ، فذم خطته في قصده مصر، وفاضت نفسه أسى وألما، فوجد في ذم الدهر وأهله متنفسا ومستراحا.

---

[1] ديوانه :٤/٥٥٢-٥٦٢ .والهوادي : الأعناق. والعجُوب: جمع عجْب:وهو عظم الذنب.والحواقلة : الشيوخ: جمع حوقل.والدخالة والسهوب : الدَّخلُ في الأنساب.والسلع ولصاب ضربان من الشجر مرّان. من شرح التبريزي.

[2] اللقم الركوب : الطريق الذي جرت عادته أن يركب.

وأشعار أبي تمام في عياش بن لَهِيعة: من مدح ،وعتاب ،وهجاء تقدم لنا مادة خصبة عن نفس أبي تمام يومئذٍ، وعن أسباب شكواه المــرَّة من الدهر، وذمه له. وقد نقل الصولي عن البحتري عن أبي تمام نفسه[1] أن أول قصيدة قالها في عياش هي:

تقِي جمحاتي لستُ طوعَ مؤنبي وليس جنيبي إن عزلتِ بمصحبي[2]

وأول ما في هذه القصيدة أن أباتمام يومئذ كان شــديد الاعتــداد بنفسه وفنِّه ، عظيم الاتكال على عقله ورأيه، فهو يقــول ابتــداء لمــن خاطبها من النساء: اتقي جموحي وشموسي، فلست ممن يطيع مؤنبا، أو يقبل عزلا، وهو خلاف المذهب الأشهر في الغزل. ثم يقول لها:

أحاولتِ إرشادي فعقلي مرشدي أم استمتِ تأديبي فدهري مؤدبي

هما أظلما حاليَّ ثمَّت أجْـلَيَـا ظلاميهمــا عن وجه أمرد أشيب

وثاني ما في هذه القصيدة أن كان يومئذ عظيم الطموح، قــوي الأمل، ماضي العزم شديد الجلد، قد حدثته نفسه بأنــه بــالغ مــا أراد، مدرك ما تمني، يقول:

شجى في حلوق الحادثات مشرق بــه عزمة في الترهات مغــرب

كأن له دينا على كــل مشــرق من الأرض أو ثأرا لدى كل مغرب

وهو في هذه القصيدة يكشف عن أحد الأسباب التي رمت به إلى مصر ، دون غيرها في قوله لعياش :

[1] أخبار أبي تمام : ١٢١. وديوانه :٦٠٣/٤.

[2] القصيدة في ديوانه :١٥٣/١-١٦٣.

وأنت بمصر غايتي وقرابتي   بها وبنو الآباء فيها بنو أبي

فقد دفعه إلى مصر ، على ما رجحتُ من قبل: مَنْ فيهـا مـن اليمنيين ، الذين هم من قرابته، وبنو أبيه.. وكان أبو تمام بعـدُ يتخيـر أكثر ممدوحيه من اليمنيين، والطائيين بخاصة، كما نرى فـي مدائحـه لمحمد بن حميد الطوسي، وإخوته، وهم من بني نبهان بن عمـرو بـن الغوث من طيء ، وفي مدائحه لأبي سعيد: محمد بن يوسف الثغري[1].

وقد ذكَرَ أبو تمام أن عياشا أعطاه على أول قصيدة مدحه بهـا خمسة آلاف درهم[2] وهي:

تقي جمحاتي لستُ طوع مـؤنبي ... ، ولا أدري كـم أعطـاه عياش بعدها على مدائحه الأخرى فيه، ولو كان أبو تمام مـن القـانعين باليسير، المكتفين بالقليل، لكان له فيما أخذ من عياش يومئذ غناء. ولكن الرجل كان – فيما يدالي من شعره في مصر – عظـيمَ الرجـاء، قـوي الطموح، شديد الإعتداد بنفسه، مفرط الثقة فيما يسـتحقه مثلـه؛ ولـذا أسرع إلى عتاب عياش ،حين أبطأ عليه سيبُه، وقلَّ له رفده، وخلط لـه مدحا بعتاب، ثم غلبه داء الشعراء، فخلص إلى ذمه وهجائه، وأسـرف في هذا .قال من قصيدة لعياش خلط فيها مدحا بعتاب:

أثأرتني الأيـام بالنظـر الشـز   ر وكانت وطرفُها لي غضيضُ
كيف يضحي برأس علياء مضْحٍ   وجنـاح السمـوِّ منـه مهيض
همـة تنطـح النجـوم، وجـد   آلف للحضيض فهـو حضيض

---

[1] راجع باب : طيء ونسب أبي تمام فيسها من كتاب : أبو تمام الطائي : ١–٣٨.
[2] أخبار أبي تمام :١٢١.

ويقول له فيها:

لن يهــز التصــريحُ للمجد والسؤ ... دد مــن لم يهــزّه التعريض
كل يــوم نــوعٌ يقضيــه نــوع[1] ... وعَروض يتلوه فيك عَروض
وقواف قد ضج منها لما استعـ ... ـمل فيها المرفوعُ والمخفوض
المديح الجزيل والشكــر والفكـ ... ـرُ ومــرُّ العتاب والتحريض
وحياة القريض إحيــاؤك الجــو ... دَ فإن مات الجود مات القريض
يا محب الإحسان في زمن أصــ ... ـبح فيه الإحسان وهو بغيض
قل: لعًا لابن عثرة ما له منـ ... ـها بشيء سوى نداك نهوض
لا تكن لي ولــن تكــون كقــوم ... عــودهم حين يعجمون رفِيض
عندهم محضر من البشر مبســو ... ط لعــافٍ ونائــلٌ مقــبــوض
وأقل الأشــياء محصــولَ نفــع ... صحةُ القول والفعال مريــض[2]

وواضح من الأبيات أن أبا تمام كان قد أطــال ، وافــتن فــي مــدح عياش، فلم يلق منه ما كان أمل ،وأنه كان مدح قوما آخرين في مصر –لعلهم من بني لَهيعة أيضا، أو من غيرهم–، فلم يحظ منهم بطائــل؛ بــل بسطوا له وجوههم، وقبضوا عنه أيديهم، مما زاد في إحساسه بالإخفاق، وأطلق لسان شكواه من الدهر وأهله.

وأبو تمام كان يحب أن تبسط له اليد من ممدوحيــه، والوجــهُ جميعا،–ومثله في هذا أبو الطيب المتنبي، وإن كان أبو تمام لايبلغ فــي هذا مبلغه –، ولذا قال في بعض عتابه عياشا:

---

[1] أي : نوع من الشعر أقوله فيك، يتلوه نوع .يريد تفننه في مدحه
[2] ديوانه :٢٩١-٢٩٣.

ليس يدري إلا اللطيف الخبير أي شيء تُطوى عليه الصدور
ويقولـــون: إنك المرء بالغيـــ ـــب محامٍ عن الصديق نصور
فإذا جئتُ زائرا حجبت وجـــ ـــهك عنـــي كآبـــةٌ وبســـور
فتَطلَّق مـــع العنايـــة إن الـــ بشـــر في أكثر الأمور بشـــير
إن في البشر روضة فإذا كـــا ن ببـــذل فـــروضـــة وغديـــر
فاقسم اللحظ بيننا إن في اللحـــ ـــظ لعنـــوان ما يجن الضمير[1]

فهو لا يكفيه من ممدوحه يد مبسوطة، ووجة عبوس.ويظهر لي أن من أسباب أسى أبي تمام ، وشكواه في مصر، أنه ابتلي فيها بقوم حاســدين من أهل العلم والأدب وغيرهم، حسدوه على أدبه وذكائه، ووقعوا فيــه عند عياش، لأنه يقول له في إحدى اعتذارياته له:

من أشتكي وإلى من أعتزي وندَى من أجتدي كلُّ أمـــر فيك منتقضُ
مودة ذهبت أثمارها شُــــــــبَة وهمـــة جوهـــر معروفها عرض
أظـــن عنـــدك أقوامـــا وأحسبـــهم لم يأتلوا فيَّ ما أعدُوا وما ركضوا
يرمونني بعيـــون حشـــوها شـــزر نواطقٍ عن قلوب حشوها مرض[2]

قال التبريزي في شرح هذه الأبيات : "يعرض بابن الأعرابي"، وأبوتمام يقول : " أظن عندك أقواما.." ، فهو يقصد ابن الأعرابـــي وغيـــر ابـــن الأعرابي .

******

[1] ديوانه :٤/٤٤٨.
[2] ديوانه :٤/٤٦٦.

طموح أبي تمام وطمعه من أسباب شكواه :

وقد استبان لي أن من أقوى أعداء أبي تمام في مصر – وبعد مصر – طموحُه وطمعه، و قوة أمله، وإفراطه في الرجاء، وعجلته في بلوغ ما أمّل. وهذا ما زاد في كمده، وأطلق من شكاته.ولذا كان يستحث عياشا ويستبطؤه، ويقول له في إحدى معاتباته:

لا تنسَ تسعة أشهر أنضيتُها دأبا وأنضضتني إليك ونيفا
بقصائد لم يرْوِ بحرُك وردها ولو الصفا وردت لفجّرت الصفا!
للـه أي وسيلة في أوّلٍ أقوى ولكن آخرا ما أضعفا[1]
إني أخاف بلحظتي عقباك أن تُدعى المطول وأن أسمّى الملحفا[2]

ويقول في أخرى:

الفطر، والأضحى قد انسلخا ولي أمل ببابك صائم لم يفطر
عام ولم ينتجِ نداك وإنما تتوقّعُ الحبلى لتسعة أشهر!
جِشْ لي ببحر واحد أغرقك في مدح أجيش له بسبعة أبحر
كم من كثير البذل قد جازيتُه شكرا بأطيب من نداه وأكثر
شر الأوائل والأواخر ذمة لم تصطنع وصنيعة لم تشكر[3]

وأحْرِ بهذه القصيدة أن تكون قيلت مع التي سبقتها، أو بعيدها بقليل ؛ لأنه قال في الأولى: تسعة أشهر ونيفا، وقال في الثانية: عاما.وقوة آمال أبي تمام، وما أوره إخلافُها من الحزن= باد في بواكير

---

[1] أي : ما أكثر ما تكون الوسائل في بداياتها قوية،ثم تضعف في أخرياتها .
[2] ديوانه :٤/٤٧٤،٤٧٣.
[3] ديوانه :٤/٤٥٤،٤٥٣.

شعره: يقول في قصيدة ذكر الصولي وابن دريد، وغيرهما أنها من أول شعره، و قالها في جعفر بن الخياط ، وقيل في غيره:

شجا في الحشا ترداده ليس يفتر   به صمن آمالي وإني لمفطر

ويقول في وصف ممدوحه فيها :

به ائتلفت آمالُ وافدة الغنى   وقامت لديه جمة تتشكر
أبا الفضل إني يوم جئتك مادحا   رأيت وجوه الجود والنجْح تزهر
وأيقنت أني فالج غمْرَ زاخر   تثوب إليه بالسماحة أبحر
فلا شيء أمضى من رجائي في الندى ولا شيء أبقى من ثناء يحبَّر[1]

فهو يقول: إن في حلقه شجى لا يفتر ترداده؛ لأن آماله، وأماني نفسه لا تتحقق،مع أنه مجد في الطلب، عازم على النجح. وهو يعلق آماله على هذا الممدوح، عسى أن تلقح عنده أماني نفسه، ويفرخ طير رجائه.

ويكرر أبو تمام هذا المعنى في بعض مدائحه لعياش، فيقول واصفا نفسه:

أثأرتني الأيام بالنظر الشز   ر وكانت وطرفها لي غضيض
كيف يضحي برأس علياء مضح   وجناح السموِّ منه مهيض
همة تنطح النجوم، وجد   آلف للحضيض فهو حضيض
كم فتى ذل للزمان وقد ألـ   ـقى مقاليده إليه القبيض[2]

---

[1] ديوانه :٢/٢١٥-٢١٦.

[2] ديوانه :٢/٢٨٩،٢٨٨. وفسر القبيض : بأنه الخلق كلهم . وقيل غيره .

وقول أبي تمام: (همة تنطح النجوم ..البيت.) تصوير معبر عن شخصيته ونفسيته ، كاشف عن سبب شكواه، وثورة نفسه. وعلى قدر اعتداد المرء بنفسه، وطموحه، وقوة رجائه، يكون حزنه إذا حرم، وشكواه إذا بخس، وهذا ما وقع لأبي تمام. ولذا قال لعياش في بعض معاتباته له:

ذل السؤال شجى في الحلق معترض من دونه شرق من خلفه جرضُ
ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت من ماء و جهي إن أفنيته عوَضُ
إني بأيسر ما أدنيتَ منبسط كما بأيسر ما أقصيت منقبضٌ[1]

لقد كان هذا الفتى الموهوب يحمل نفسه حملا على انتظار عطاء ممدوحيه وإن طال ، ويجرع نفسه صاب سؤالهم وانتظار نوالهم ، فإذا صادف حرمانا ،أو إبطاء سخط وتشكى، وألقت نفسه بما فيها من الغيظ والحسرة، وكان يجد في الدهر مخرجا، ومتنفسا؛ فيعود عليه باللائمة، ويلقي عليه بتبعة ما تغشاه من الحرمان ، وما لقي من الخسران.

ويدلك على أن أبا تمام كان رجلا ثائر النفس، إذ حرم بلغ أقصى السخط، ورمت نفسه بالزبد، =أهاجيه المرة لعياش من مثل قوله:

النار والعار والمكروه والعطب والقتل والصّلب والمران والخشب
أحلى وأعذب من سيْبِ تجود به ولن تجود به يا كلْب يا كلِب
أشكيتموني فلما أن شكوتكم عضبتم دام ذاك السخط والغضب
بني لَهيعة ما بالي وبالكم وفي البلاد مناديح ومضطرب..
عياش ما لكِ في أكرومة أرب ولا لأكرومة في ساقط أرب

---

[1] ديوانه :٤/٤٦٥.

يا أكثر الناس وعدا حشوه خُلْفٌ   وأكثر الناس قولا كله كذب
ظللت تنتهب الدنيا وزخرفها   وظل عرضك عرض السوء ينتهب[1]

وبين هذا الهجاء لعياش ، وهجاء المتنبي لكافور الإخشيدي شبه ونسب.وبني لَهِيعة الحضرميين ، الذين هجاهم أبو تمام حين هجا عياشا، قوم من العرب لهم قُدمة في مصر، وقدم صدق في العلم والقضاء والولايات: فعبد الله بن لهيعة الحضرمي كان رأسا في القضاء، ولهيعة ابن عقبة الحضرمي – والد عبد الله بن لهيعة السابق– عده السيوطي[2]، ممن كان بمصر من مشاهير التابعين، الذين رووا الحديث، ومات– رحمه الله– سنة ١٠٠هـ، وعياش بن عقبة بن لهيعة الحضرمي، عده السيوطي أيضا في مشاهير أتباع التابعين، الذين خرَّج لهم أصحاب الكتب الستة من أهل مصر. وعبد الله بن عقبة بن لهيعة ، قاضي مصر المعروف بابن لهيعة، عده السيوطي فيمن كان بمصر من الأئمة المجتهدين، ومات –رحمه الله– يوم الأحد نصف ربيع الأول سنة١٦٤هـ ، وهو أخو لهيعة بن عقبة السابق ذكره.

ولهيعة بن عيسى بن لهيعة الحضرمي استخلفه ،على الصلاة بمصر عبدُ الله بن محمد بن إبراهيم ، الذي يقال له: ابن زينب، وكان ابن زينب قد ولي الصلاة في مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٩هـ.[3]، ولهيعة بن عيس الحضرمي– والد عياش ممدوح أبي تمام– ولي القضاء في مصر من قبل عباد بن محمد سنة ١٩٦هـ، وعزل في أول ولاية المطلب الخزاعي سنة ١٩٨هـ، ثم أعاده المطلب مرة أخرى سنة

---

[1] ديوانه : ٣١٣/٤، ٣١٤.

[2] حسن المحاضرة : ٢٦٢/١، ٢٨١، ٣٠١، ٤٢١، ٤٢٥.

[3] الولاة والقضاة : ١٤٠.

١٩٩هـ ، وبقي على قضاء مصر إلى أن مات –رحمه الله – مستهل ذي القعدة سنة ٢٠٤هـ، وهو القائل: " أنا تاسع تسعة ،ولولا القضاء من حضرموت على مصر ".

قلت: والتسعة هم: يونس بن عطية، وأوس بن عبد الله، ويحيى ابن ميمون، وتوبة بن نمر، وخير بن نعيم، وغوث بن سليمان، ويزيد ابن عبد الله، وعبد الله بن لهيعة، ولهيعة بن عيسى"[1]. وقد قال الشاعر:

لقد ولي القضاء بكل أرض من الغر الحضارمة الكرام
رجال ليس مثلهم رجال من الصيد الجحاجحة الضخام

وأرسل معاوية بن أبي سفيان إلى مسلمة بن مخلد –وهو على مصر–: لا تولّ عملك إلا أزديا أو حضرميا؛ فإنهم أهل الأمانة "[2]ومن مآثر لهيعة بن عياش –رحمه الله– أنه استكتب سعيد بن تليد –حين رُد إلى القضاء مرة ثانية في ولاية المطلب الخزاعي– وجعله على مسائله، وعهد إليه أن يجدد السؤال عن الشهود، والموسومين كل ستة أشهر ، فمن عرَض له الحرْج أوقفه ، وأبطل شهادته. وكان جمع أيضا أموال أحباس السبيل، التي كانت في أيدي القضاة، وفرض منها للمطوعة ، الذين يحرسون الثغور، فصار ذلك سنة من بعده، وكان الناس يسمونها :"فروض لَهِيعة"، ولذا قال الشاعر مرداس المرادي:

لعمري لقد سارت فروض لهيعة إلى بلد قد كاد يهلك صاحبه
إلى بلد تُقرى به البوم والصدى تعاوَرُه الروم الطَغام تحاربه

---

[1] الولاة والقضاة : ٤٢٥.
[2] السابق :٤٢٦.

رشيد وإخـــــنا والبرلس كلها ودمياط والأشتوم تعوي ثعالبه

لهيعَ لقد حزت المـــكارم والثنا ومن عند ربي فضله ومواهبه

فقد عمرت تلك الثغور بســـنة تعد إذا عدت هـناك مناقبه[1]...

وسماها ابن أبي الليث: "فـروض القاضـي"، وكانـت الثغـور العامرة بأهل الديوان ، وطائفة من المطوعة –قـد عُطلـت ،وهجـرت بمصر زمان فتنة الأمين والمأمون؛لأن الأمين تشاغل عن عطـاء أهـل الديوان والمطوعة"[2].وكان لهيعة بن عيسى الحضرمي حين ولي قضـاء مصر أول مرة في شعبان سنة ١٩٦هـ، أراد أن يولي علـى القضـاء عبد الله بن وهب بن مسلم –وكان القاضي الأكبر يختار من دونـه فـي القضاء –، فاستتر منه وهب ، وقال: "يارب يقدم عليك إخـواني غـدا علماء حلماء فقهاء، وأقدم عليـك قاضـيا؟! لا يـارب ولـو قرضـتُ بالمقاريض"[3] –رحمه الله– والقضاءُ يومئذ يهرب منه الأتقيـاء، ويقـدم عليه من يقدم.

وعياش بن لهيعة بن عيسى الحضرمي –ممدوح أبي تمام– قد عُرف أمره، وأخوه عيسى بن لهيعة بن عيسى الحضرمي كـان علـى المظالم في مصر، زمن ولاية اسحاق بن يحيى بن معاذ، زمن المتوكـل سنة ٢٣٥هـ[4].هؤلاء هم آل لَهِيعَة الحضرميين، الذين قدم أبـو تمـام مصر على من قدم عليه منهم، فمدح منهم من مدح، وهجا مـن هجـا،

---

[1] الولاة والقضاة : ٤١٩-٤٢١.

[2] السابق : ٤٢٠،٤١٩.

[3] الولاة والقضاة : ٤١٨.

[4] الولاة والقضاة : ١٩٨.

وخص عياش بن لهيعة ، بمر هجائه ، وصب عليه جام غضبه . وإنما استطردت بذكر منا قب آل لَهِيعَة الحضرميين بمصر ؛ لتقف على لؤم الشعر والشعراء في باب الهجاء.وكم كذب الشعراء وغَوُوا ، وكم وضع الشعر من رفيع ، ورفع من وضيع .

ومن لؤم أبي تمام أنه هجا عياشا بعد موته !بمثل قوله فيه :

أعزز بعياش علي مغيّبا في غير حفرته الحجى والخيرُ
ما زال غل الذّم ثاني عطفه حتى أتاه الموت وهو أسير
يا عبرة الله التي من طرزها نَشَوَا فكان القرد والخنزير[1]

وقوله أيضا فيه:

إني بشتم امرئ أكدت خليقته وكان باللؤم مشهورا لمعذورْ
يا خلقة قد أمال الدهر أشطرها لم يكفها من عقاب الله تغييرْ
لم يخطئ الرأيَ غيلانٌ وشيعته إن لم تكن أخطأت فيك المقاديرْ[2]

يقول أبو تمام هذا في هجاء عياش ميتا ، وقد كان قال في مدحه حيا :

رأيت لعياش خلائق لم تكن لتكمل إلا في اللباب المهذب
أخو عزمات بذله بذل محسن إلينا ولكن عذره عذر مذنب
إذا أمه العافون ألفوا حياضَه ملاء وألفوا روضَه غير مجدب
إذا قال: أهلا مرحبا نبعت لهم مياه الندى من تحت أهل ومرحبِ

---

[1] ديوانه :٤/٣٦٠،٣٥٩.

[2] السابق :٤/٣٧٢. .وانظره : ٤/٣٦١،. ٤/٤١٥،٣٢٧،٣٢٥،٣٨٥، ٣٤٥،٣٤٧،٤١٥،٤٢٢،٤٢٤،٤٢٥.

تركن حطاما منكب الدهر إذ نوى   زحامي لما أن جعلتك منكبي
وما ضيق أقطار البلاد أضـــافني   إليك ولن مذهبي فيك مذهبي[1]

وليس أبو تمام نسيج وحده في أنه مدح ثم هجـا مـن مدحـه، فأكذب نفسه، ونقض بالهجاء ما كان بناه بالمدح، فهذا كثير في الشـعر ،وقد كان هذا كثيرا في زمانه، وأبو عبادة البحتـري معاصـره هجـا أربعين رئيسا ممن كان مدحهم: منهم الخليفتان: المنتصـر والمسـتعين، وفيهم وزراء، وقواد، وكتاب، وعمال، ورجال قضاء، بعد ما كان أخـذ جوائز هؤلاء جميعا[2].

وهجاء من مات، وذهب أثره ، وطوي خبره، فلم يعد يملك عن نفسه دفعا، ولا لهاجيه ردا= قبيح جدا، وقد فعله أبو تمـام مـع عيـاش وغيره كما ترى . وقد روي أن الفرزدق لما نُعي لجرير، وهـو عنـد المهاجر بن عبد الله باليمامة، قال:

مات الفرزدق بعد ما جدعتُه   ليت الفرزدق كان عاش قليلا

فقال له المهاجر: "لبئس ما قلتَ!!، تهجو ابن عمك ، بعـد مـا مات!! لو رثيته كان أحسن بك". قال: "والله إني لأعلم أن مقامي بعـده لقليل، وإنْ كان نجمي موافقا لنجمه. فلأرثينه". قال: بعد ما قيلَ لـك؟!. لو كنتَ بكيتَه ما نسيتكَ العربُ"[3].وكان الفرزدق في مثله أكرم نفسا مـن جرير، مع عرامة الفرزدق ، وجرأته على الأعـراض، فقـد روي أن

---

[1] ديوانه :١/١٥٩-١٦١.
[2] انظر : الموشح : ٥١٥.
[3] طبقات فحول الشعراء :٢/٤١٧

يزيد بن عبد الملك أمره أن يهجو يزيدَ بن المهلب ، وأهلَ بيته لما قُتِـل يزيدُ بن المهلب، فقال الفرزدق: "لقد امتدحت بني المهلـب بمـدح مـا امتدحت بمثله أحدا، وإنه لقبيح بمثلي أن يكذب نفسه على رأس الكبـر" فأعفاه الوليد[1].

وإنما أردت بإثبات أهاجي أبي تمام عياشا حيا وميتا أن أقـول: إن هذا الإخفاق الذي لقيه أبو تمام في مصر عند عياش، أبقى له غصـة في حلقة، ولظى في صدره بقيا معه طويلا، وكانا من جملـة الأسـباب التي دفعته إلى طول الشكوى، وكثرةِ ذم الدهر، في مصر، وبعد مصر، وفي كل أدوار حياته، كما سترى. وهو يهجو الزمان أي الدهر ضـمن بعض هجائه عياشا ، فيقول:

فقدتك من زمان كل فقد وغالت حادثاتك كلَّ غول
مَحَت نكباتُه سبلَ المعالي وأطفأ ليلُه سرُجَ العقول
فما حيل الأديب بمدركات عجائبه ولا فكر الأصيل
فلو نُشِر الخليل له لعفت رزاياه على فطَـن الخليل

ويظهر أن بعض أهاجيه عياشا كانت وهو في مصر لـم يبرحهـا؛ لأنه يقول في هذه القصيدة نفسها :

سأظعن عالما أن ليس برء لسقمي كالوسيج وكالزميل[2]
ولو كانت يمينك ألفَ بحر يفيض لكل بحر ألفُ ميل .[3]

---

[1] السابق :٢/٦٥٨.

[2] الوسيج والزميل نوعان من سير الإبل ، يعني أن شفاء نفسه في الترحال .

[3] ديوانه :٤/٤١٨.

وفي باب الفخر في ديوان أبي تمام شعر كثير ، يسجل فيه هموم نفسه، ويفصح عن أسباب شكواه .فلقد نال من حادثات الدهر فرادى ومَثْنَى ،فما وجد سلاحا في مقارعة الدهر أقوى من الصبر، لو كان يستطيعه،يقول:

وحادثاتٌ أعاجيبٌ خَسَا وَذَكَا   ما الدهرِ في فعلها إلا أبو العجب
يغلبن قودَ الكماة المعلمين بها   ويستَقِدنّ لفرسان على القصب
فما عدمت بها – لاجاحدا عدما– صبرا يقوم مقام الكشف للكرب
ما يحسم العقلُ والدنيا تساسُ به   ما يحسم الصبرُفي الأحداث والنُوَب
الصبر كاس وبطن الكف عارية   والعقل عارٍ إذا لم يكْسَ بالنشب
ما أضيعَ العقل إن لم يرع ضيعتَهُ   وفْرٌ وأيٌّ رحًى دارت بلا قطُب[1]

وكان من أعظم الدروس التي استفادها أبو تمام من تجربته المرة في مصر، أن الأماني بطبيعتها عصيِة ،وأن العاقل لا يبلغ بعقله وحده كل ما أراد، ولا غاية ما تمنى، فكم من عاقل محروم مضيق عليه، وكم من غبي واجد موسع عليه. وكأني به وقد زينت له الشبيبة، أن فتى ذكيا عبرقيا موهوبا مثله، مدركٌ بالعقل ما تمنى، بالغ بالأدب ما شاء واشتهى من الغنى، والتكريم ، فوجد العقل والمال في زمانه كالخصمين ، والأدب والفقر إلفين ، لا يكادان يفترقان، ومن هاهنا كانت ثورته وشكواه.

---

[1] ديوانه :٤/٥٤٧، ٥٤٨.

وقد ألانت الأيام بعدُ من شكيمته ، وكبحت من جماح نفسه ، ولكن بقيت له الشكوى بعد تجربته في مصر، يعلو صوتها في شعره حينا ، ويخفت أحيانا .يقول في القصيدة السابقة:

كم ذقت فيالدهر من عسر ومن يسر	وفي بنيالدهر من رأس ومن ذنب
أغضِي إذا صرفه لم تغضِ أعينُه	عني وأرضيإذا مما لَج في الغضب
وإن بليتُ بجِد من حزونته	سهلته فكأني منه في لعب
مقصر خطرات الهم في بدني	علما بأني ما قصرت في الطلب
ما زلت أرمي بآمالي مراميَها	لم يُخلِق العرضَ مني سوءُ مطلبي
إذا قصدتُ لشأو خلتُ أني قد	أدركتُه أدركتني حرفةُ الأدب
بغربة كاغتراب الجود إن برقت	بأوبة ودقت بالخُلْف والكذب
وخيبةٍ نبعت من غيبة شسَعَت	بأنحس طلعت في كل مضطرب
ما آبَ من آبَ لم يظفر ببغيته	ولم يغِبْ طالبٌ للنجح لم يخِبِ[1]

وهذا كلام نفس يؤودها ما لقيته، ويثقل عليها ما تحمله، وهو مستغن عن الشرح والتعليق.وقصائد أبي تمام الفخرية ، التي وصف فيها خروجه من مصر تجربةٌ شعرية نفسية غنية جدا بالدلالات: يقول في إحداها :

جمعتُ شعاع الرأي ثم وسمتُه	بحزم له في كل مظلمة فجر
وصارعتُ عن مصر رجائي ولم يكن	ليَصرَعَ عَزمي غيرَ ما صرَعَت مصرُ
فطحطحتُ سدا سد يأجوج دونه	من الهم لم يُفرَغ على زُبْره قِطْر
بذعلبة ألوَى بوافر نحضها	فتىً وافرُ الأخلاق ليس له وَفْر

---

[1] ديوانه : ٥٤٩، ٥٥٠.

وما الفقر بالبيـد الخـلاء بـل التـي نَبَت بي وفيها سـاكنوها هـي القفـرُ

ومـن قـامرَ الأيـام عـن ثمراتهـا فـأحْجِ بهـا أن تنجلـي ولهـا القمـرُ

فإن كـان ذنبـي أن أحْسَـنَ مطلبـي أساءَ ففي سـوء القضـاء لـي العـذرُ

قضاءَ الذي ما زال فـي يـده الغنـى ثنَى غربَ آمـالي وفـي يـدِيَ الفقـرُ

ومضى بعد هذه الأبيات في الفخر بطيء[1].وتوشك هذه القصيدة أن تكون وثيقة نفسية ،تحكي حالة أبي تمام النفسية، حين نَبَت به مصر ، وفيهـا ساكنوها، كما قال هو. لقد أنِفَت نفسه من المقام الذليل، وجمـع للرحيـل حزمه وعزمه، وناقة على البيداء صابرة ، وترك مصر برجاء صـريع، وأمل جريح، وسَدٍّ من الهم كسد يأجوج ومأجوج، ويدٍ فارغة من الغنى، وهو يعتذرعن إخفاقه بسوء القضاء!!، ومعاندة الدهر.واعلم أن تجربـة أبي تمام في مصر ، وما لقيه فيها، قد صبغت نفسه بصبغة بقيت فيهـا إلى أن مات، وهي إحساسه بظلم الحياة له، وجورهـا عليـه، و بـأن الدهر يعانده ويمطله، والأيام تترصده وتعانده ، و تحول بينـه وبـين أماني نفسه، فأصبح الإحساس بالظلم معنى أصيلا من معاني نفسـه، وأصبح ذم الدهر، والشكوى منه معنى مطرّدامن معاني شعره.

ومصر قبل أن يأتيها أبوتمام، وحين جاءها، كان فيها هرج كثير وخروجٌ على الخلافة، وفتن لا تنقطع، وكان بعض العرب في مصر –ظالمين أو مظلومين– من وقود هذه الفتن.فقد ذكر ابن أثيـر أن أهـل مصر اعتادوا سنة ١٧٦هـ ، وقبلها المُطْلَ بالخراج وكسْره[2]. وخـرج أهل الحُوف على ليث بن الفضل سنة ١٨٦هـ؛ لأن مُساحَهُ ،الذين بعث

---

[1] القصيدة في ديوانه :٤/ ٥٦٧-٥٧١.

[2] الكامل :٦/١٢٧.

بهم ليمسحوا الأرض المزروعة جاروا، فتظلم الناس، فلم يسمع إليهم[1].

وفي ولاية معاوية بن صرد سنة١٩١هـ امتنع أهل الحوف أيضا من أداء الخراج، وخرج أبو النديّ، وهو رجل من بَلِيّ ، في ألف رجل فقطع الطريق، وأخاف الناس [2]. والحوفية الذين كانوا بمصر كثيري الثورات، قوم من العرب أصليم من قيس وقضاعة[3].ومن أجل هذا جعل المعتصم بعد ذلك ولاتَهَ على مصر من الأعاجم، ووضع من العرب وأسقط أعطياتهم من الديوان ، كما ذكرتُ من قبل.

وفي سنة ١٩٦هـ سعى السري بن الحكم وغيره في خلع الأمين بمصر، غضبا للمأمون لما خلعه الأمين، وفي هذا العام وقعت الفتنة بمصر، بين شيعة المأمون والأمين، واستطار الشر بين الناس ، ولم يهدأ الأمر إلا حين قُتِل الأمين، واستقامت البيعة للمأمون سنة ١٩٨هـ[4].

وهذه الأحداث كلها أو جلها ، كانت على الأرجح قبل أن يأتي أبو تمام إلى مصر، وبقي هذا القلق والاضطراب مدة مقام أبي تمام في مصر، وبعَيْدَ خروجه منها، فقد كان بعض الولاة فيها يولون، ثم يعزلون، ثم يولون مرة أخرى، ويُحبسون ويُقتلون أحيانا ، وكان الجند ربما اختاروا لأنفسهم خلاف من يختاره الخليفة، وقد حدث هذا ، أو بعضه للمطلب الخزاعي وغيره.ولم يستقم الأمر في مصر بعض

---

[1] الولاة والقضاة :١٤٠.

[2] السابق :١٤٢،١٤٣.

[3] الكامل : ١٤١/٦.

[4] نفسه :١٤٨-١٥١.

استقامة إلا حين قدم إليها عبد الله بن طاهر بن الحسين من الشام سنة ٢١٠هـ. قال يونس بن عبد الأعلى ، وهو مصري: "أقبل إلينا فتى حدثاً من المشرق – يعني عبد الله بن طاهر – ، والدنيا عندنا مفتونة ،قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب، والناس في بلاء، فأصلح الدنيا وأمن البرئ، وأخاف السقيم، واستوسقت له الرعية بالطاعة"[1]. على أن هذا الأمر لم يطل، فأُرسِل الأفشين(حيدر بن كاوس الصغدي) إلى مصر سنة ٢١٦هـ ، لقمع ثورة على الظلم في أسفل أرض مصر، قام بها عرب مصر وقبطُها، وبقي بها إلى قدوم المأمون ، ثم قدم المأمون مصر في عاشر المحرم من سنة ٢١٧هـ ، فضبط أمر مصر، وأبْرَد فتَنَها، وارتحل في الثامن عشر من صفر من سنة ٢١٧هـ، فكان مقامه فيها من لدن جاءها إلى أن رحل تسعة وأربعون يوما"[2].

فقد جاء أبو تمام إلى مصر إذن، والأمر فيها مضطرب، والفتن فيها على قدم وساق. وما أشك في أن هذا كان له بعضُ الأثر، فيما لقيه أبو تمام في مصر، وفيما اصطبغ به شعره من الشكوى ، فإن الأمن والعدل إذا تحققا نال الجميع منهما قسطا قلّ أو كثر، والخوفَ والظلم إذا حكما نال الجميع منهما قسطا أيضا قل أو كثر. وقد ظَلَم أبو تمام مصر، وأهلَ مصر، كما ظلمهم المتنبي من بعده، حين قال–وقد سبق البيت–:

وما القفر بالبيد الخلاء بل التي ... نبت بي وفيها ساكنوها هي القفر

وإنما نال الشاعرين في مصر بعضَ ما كان نال أهلها .ومصر مع الشعراء كالأمِ التي عقها بنوها ، فكم أكل منهم من أكَلَ من خيرات

---

[1] نفسه : ٣٩٩/٦.

[2] الولاة والقضاة :١٨٩-١٩٢.

أرضها ، وشرب منهم من شرب من ماء نيلها ، ثم مضوا فذموها وذموا أهلها . فلله هي من أم لم تُبَرّ .

والبلاء الواقع على أهل مصر قديم .وقد نقل السيوطي عن محمد بن حبيب قال: إن الغنى قال أنا لاحق بمصر، فقال له الذل خذني معــك[1]" . وقال القاضي الفاضل: "أهل مصر على كثرة عددهم، وما ينســب مــن وفور المال في بلدهم، مساكينٌ يعملون في البحر، ومجاهيدُ يدأبون فــي البر"[2] . وقيل إن الحجاج سأل ابن القرية: عن طبــائع أهــل الأرض ، فكان قوله في أهل مصر :"هم عبيدٌ من ملك"[3]. وما أجدر هذه الأقــوال أن تكون صوابا لاطرادها إلى اليوم .

****

بين أبي تمام والمتنبي في مصر :

وكنتُ قد تتبعتُ حياة أبي الطيب المتنبي، وحركة نفسه في مصــر[4]، وأنا الآن أجد مشابهة قوية، وشيئا من الاختلاف، بين تجربة الشــاعرين في مصر، و ما أراداه فيها، ثم ما لقياه في مصر، وما تركته من أثــر في نفسيهما: فأبو تما م جاء إلى مصر ، يحمل أمــلا ورجــاء، وأبــو الطيب جاء إلى مصر يحمل أملا ورجاء، وكلا الشاعرين مدح من مدح

---

[1] حسن المحاضرة : ٢/٣٣٦.

[2] السابق : ٢/٣٣٧.

[3] نفسه : ٢/٣٣٩.

[4] انظر : المتنبي في مصر : دراسة تؤرخ لنفس أبي الطيب المتنبي في مصر مــن شعره . مطبعة الحسين ١٩٩٣ . الطبعة الأولى .

في مصر، ثم عاتبه، ثم هجاه هجاء مرا، وخرج من مصر، ذاما لها، مبغضا لأهلها، مقرا بسوء رأيه في قصدها، وقبح خطته في إيثارها على من دونها من البلاد، بعد ما زعم أنه جاءها مضطرا، واختارها مكرها.وكلا الشاعرين ترك مصر وراء ظهره، و قد حمل معه إخفاقه، وفارقها وفي نفسه من الحزن والثورة ما فيها.

وإن لم يكن ما أراده أبوتمام من مصر ، هو عين ما أراده أبو الطيب منها : أما أبو تمام فقد حدثته نفسه أو زين له غيره ، وسولت له حداثة الشباب، وفتاء السن، أنه واجد في مصر ، عند بني أبيه من اليمنيين الحضارمة ما أراد من الغنى والوفر، ومصادفٌ منهم من يعرف له تميزه وبراعته، ويقدر فيه موهبته وعبقريته ، فلم يكن له ما أراد ففزع إلى الشكوى، ومر الهجاء. وأما أبو الطيب المتنبي، فإني كنت رجحت[1] أن نفسه حدثته بأنه واجد في مصر حلمه القديم ، الذي لم يفارقه أبدا، وهو: أن ينال ولاية أو ملكا، وظن أنه إن قدم على كافور الإخشيدي، وهو عبد في أصله، ملكه إدبارُ الزمان، وذهابُ الكَمَلة من أحرار الرجال= أمكنه أن يفتنه عن رأيه، وأن ينتزع منه بالمدح ما شاء واشتهى، فلم يكن له ما أراد ، ففزع إلى مر الهجاء والشكوى أيضا.

وأبو تمام يوم جاء إلى مصر جاءها فتى طامحا طامعا: حياته أمامه، وآماله عفيةٌ فتيةٌ، فأنشأ له الإخفاق في مصر حزنا تأصل في نفسه، و لم يفارقه بعدها أبدا، وشكوى من الدهر وفعله لزمته –كما قلت– فيما بعدها من أدوار حياته، وأطوار عيشه. وأبو الطيب جاء إلى مصر كهلا مجَربا، قد عجمته الأحداث ، وضرجته الخطوب، وذاق حلو

[1] راجع : المتنبي في مصر ..: ١٧ وما بعدها .

العيش ومره، فكانت مصر فرصته الأخيرة ، ونزلها بأمل شَـابَ ولــم يمُت ، فلم ينشئ له الإخفاق في مصر حزنا لم يكن، وإنما زاده الإخفاق فيها حزنا على حزن،وحسرة على حسرة ، وثورة على ثـورة .فمصــر عند أبي تمام باكورةُ أحزانه ويأسه، وفاتحة آلامه وشكواه ، وعند أبــي الطيب خاتمة أحزانه ويأسه ، ونهاية آماله وأمانيّه .

ولم تكن الولايات أو الضياع من هم أبي تمام في مصر، أو في غيرها، كما كانت من هم أبي الطيب في مصر، وقبل مصر، حيث قــال لكافور:

إذا لم تَنط بي ضيعة أو ولاية   فجودك يكسوني وشغلك يسلب[1]

أما أبو تمام فإن جُلّ همه كان في تحصيل المــال، وإدراك الغنـــى، ولذا حين وعده أبو الحسين بن شبانة ، بأن يهب له ضيعة، وأبطأ عليـــه في ذلك، = طلب منه المال وأعلمه بأنه لا يريد الضيعة ، ذكـــر ذلــك الصولي. وقال أبو تمام في ذلك :

فدع ذكر الضياع فبي شِماس   إذا ذُكِرت وبي عنها نفار
ومـــا لي ضيــعة إلا المطايا   وشـــعرٌ لا يباع ولا يعار
وما أنا والعقَار ولســت منه   على ثقة وجودك لي عقار[2]

[1] ديوانه : ٨٦/١. وانظر المتنبي في مصر : ١٧ وما بعدها .
[2] ديوانه : ١٦٠/٢.

وحين ولاه الحسن بن وهب ، كاتب محمد بن عبد الملك الزيات بَرِيدَ الموصل . لم تدم ولايته إلا سنة واحدة .[1] على أني وجدت أبا تمام قد طلب الولاية لأخيه سهم ، من يحيى بن عبد الله ، فقال :

أجزل له الحظَّين منك وكن له   ركنا على الأيام ليس بواه
بولايتين: ولايةٍ مذكورة   مشهورة وولاية بالجاه

وفي رواية أخرى:"من كورة" بدل :" مذكورة."قال التبريزي في شرح البيتين :"يقول: أجزل حظي سهم ، بولايتين ، توليهما إياه . فإحدى الولايتين: ولايةُ كورة توله إياها، وولاية إخرى بإيجّاهك إياه: أي تجعله وجيها عندك ؛ ليجل في عيون الناس، ومن كان يستصغر قدره"[2].

****

شكوى أبي تمام بعد مصر:

قلت فيما سبق : إن الإخفاق الذي لقيه أبو تمام في مصر، أبقى له غصة في حلقه، ولظى في صدره، وهمًا في قلبه، بقيت معه طويلا بعد ما ترك مصر، وكان هذا الإخفاق الذي بدأت به حياتُه، من جملة الأسباب، التي جعلت الشكوى من الدهر وأهله، و الإكثار من لومه ولومهم، وذمه وذمهم= صوتا قويا جهيرا، يتردد في سائر شعره في مصر، وبعدها، وفي حالَيْ عسره ويسره جميعا:ففي قصيدة قالها في

[1] أخبار أبي تمام : ٢٧٢.
[2] ديوانه :٣/٣٥٠.

مدح بني عبد الكريم الطائيين، وكانت – على الأرجح – بعيد عودته من مصر، يقول:

ومما ضرم البرحاء أنـــي شكوتُ فما شكوتُ إلى كريم
أظن الدمع في خدي سيُبقى رسوما من بكائي في الرسوم
وليل بــت أكلــؤه كأنــي سليــم أو سهرت على سليم
أراعي من كواكبه هجَانــًا ســواما ما تريع إلى المُسيم
فأقسم لو سألتَ دجاهُ عني لقــد أنباكَ عن وجْدٍ عظيم [1].

وفي قصيدة قالها بالموصل بعدما ترك مصر ، ومدح بها محمــد بــن حسان الضبي، نراه يشكو فعلَ الدهر به، فيقول:

تواترت نكبات الدهر ترشقنـــي من كل صائبة عن قوس غضبان
مدّت عنان رجائي فاستقدتْ له حتى رمت بي في بحر ابن حسان
لما تواترت الأيام تعبَــثُ بــي وأســقطت ريحُها أوراقَ أغصاني
وصلتُ كفَّ منَى منِّي بكَفِّ غنَى فــارقت بينــهما همي وأحزاني.[2]

وفي قصيدة قالها وهو عند أبي سعيد الثغري ، نراه يقول :

لقد ساسنا هذا الزمــان سياســة سدى لم يسسها قط عبد مجــدع
تروح علينا كل يــوم وتغتــدي خطوب كأن الدهر منهن يصرع
حلت نطف منها لنكسٍ وذو النهى يُــداف لــه سُمٌ من العيش منقع
فإن نك أهمِلْنا فأضعف بســعينا وإن نــك أجبِــرْنا ففــيم نتَعتَعُ؟[1]

---

[1] ديوانه :١٦١/٣، ١٦٠. وضبط في الديوان " سَنيقى" وأولى بها أن تكون " سيُبقي" فتلك طريقة أبي تمام .

[2] ديوانه :٣١٢/٣.

وفسر التبريزي البيت الأخير من هذه الأبيات بقوله: "يقول:إن خلينا والدنيا ؛ لينال كل منها بقدر[2]طاقته وسعيه، فما أضعف سعينا، وأخلق بأن لا ننال به شيئا ، وإن نك أجبرنا على ما نحن فيه من الغنى والفقر ، وتفاوتنا في الرزق ، ففيم نهذي ونردد في الكلام ؟! . والتعتعة : ترديد الكلام "[3]. هذا . وأبو تمام كان قد أقبلت عليه الدنيا ، عند أبي سعيد ، وطاب له عيشه : وهو يقول في هذا :

أحين رفعتَ من شأوي وعادت   حُوَيلي من ندى كفيك حالا

بفضلك صرتُ أكثرهم عطاء   وقبلك كنت أكثرهم سؤالا

فلا يكدر قليبك لي فإني   أمد إليك أسبابا طوالا[4]

وهو مع هذا يشكو الدهر عنده كما ترى . ويقول من قصيدة مدح بها أحمد بن أبي دؤاد :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل   ويكدي الفتى في دهره وهو عالمُ

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجى   هلكن إذن من جهلهن البهائمُ

فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد   ولا المجْدُ في كف امرئ والدراهمُ

وهذه شكوى من جنس شكواه المتقدمة من الدهر ، وإن لم يذكر هنا صراحة أن الدهر هو الفاعل به ما فعل .وكان أبو تمام عند أبي سعيد الثغري بالعراق بعد سنة ٢١٤هـ، ثم قصده مرة أخرى وهو بأذربيجان سنة٢٢٠هـ، ومدحه ابن أبي دؤاد كان في زمان المعتصم الذي بويع

---

[1] ديوانه :٣/٢٢٥،٢٢٤.

[2] ديوانه :٣/١٤٩.

[3] شرح ديوان أبي تمام : ٢/٣٢٥.

[4] ديوانه :٣/١٤٩.

سنة ٢١٨هـ، أو ٢١٩هـ –وهي السنة التي مات فيها المأمون–ومات– أي المعتصم– سنة٢٢٧هـ، وفيها ولي الواثق. وأبو تمام يشكو في هذه القصائد جميعا الأشدين عليه يومئذ، وهما: الفاقة، والهم، وهمه وليد فاقته ، وفاقته من أسباب همه وشكواه .

والأكثر أن الشعراء قبل أبي تمام يستطيلون بالشباب على الدهر، فإذا أدركهم المشيب ونزل بهم وهنه، ذلوا للدهر بعد تأب، وسكنوا بعد شموس، وأكثروا حينئذ من شكوى الدهر ولومه وذمه[1]. ولكن أبا تمام يشتكي الدهر وهو بعد شاب فتي، يقول في قصيدة مدح بها الحسن بن سهل:

ست وعشرون تدعوني فأتبعها   إلى المشيب ولم تظلم ولم تحب
يومي من الدهر مثل الدهر مشتهر   عزما وحزما وساعي منه كالحقب
فأصغري أن شيبا لاح بي حدثا   وأكبري أنني في المهد لم أشب

ويقول له فيها :

بلوت منك وأيامي مذممة   مودة وُجدت أحلى من النشَبِ
من غير ما سبب ماض كفى سببا   للحر أن يعتَفِي حرا بلا سبَبِ[2]

وفسر التبريزي البيت الأول من هذه الأبيات بقوله :"تدعوني إلى المشيب ست وعشرون سنة ، فأجيبها، ولم تدعني إلى المشيب في غير وقته؛ فتكون لي ظالمة، جائرة عليّ؛ فإني قاسيت من الدهر، ما لو شبت

---

[1] انظر الفصل الأول : ٣٦

[2] ديوانه :١/١١٥-١٢١.

معه في المهد لم ينكر". وأبو تمام يكرر كثيرا هذا المعنى: معنى: أنـــه شاب في الحداثة، وأنه شيَّبَته في الشباب الهمومُ، وأحداث الدهر ونوبه.

وكان مما ضاعف همه ، وأطلق من شكاته -كمـا قـال فـي القصيدة ،التي مدح بها ابا سعيد الثغري، والأخرى التي مدح بهـا ابـن أبي دؤاد- أن يرى النكس، وهو: الجاهل الأحمق موسعا عليه، يحلو لـه العيش، والعاقل الأريب-وهو قطعا عاقل أريب- ذا فاقة، ترميه نكبـات الدهر عن قوس غضبان، وتعبث به ،مسقطة أوراق أغصانه، ممعنة في حرمانه.وفي قصيدة قالها بنيسابور وقدم لها التبريـزي بقولـه :"وقـال يصف سوء مطلبه بنيسابور، ويشكو الدهر"، = يقول:

فإن أك قد حللتُ بدار هون صبوتُ بها فقد يصبو الحليمُ
ألومُك لا ألو سواك دهـرا قضى لي بالذي يقضِي سدوُمُ
إذا أنا لم ألمْ عثرات دهـر أصبتُ بهـا الغداة فمن ألومُ ؟
وفي الدنيا غنى لم أنبُ عنه ولكـن ليـس في الدنيا كريمُ[1]

وهو يقول في مطلع هذه القصيدة :

صريع هوى تغاديه الهموم بنيسابور ليس له حميـم
غريب ليس يؤنسه قريـب ولا يأوي لغربته رحيـم
مقيم في ديار نوًى شطـون يشاقهه بـها كمـد مقيـم
يمد زمامه طمـعٌ مقيـمٌ تـدرع ثوبه رجلٌ عديـمُ
رجاء مـا يقابلـه رجـاء هو اليأس الذي عقباه شوُمُ[2]

---

[1] السابق : ٥٣٨/٤.
[2] نفسه :٥٣٦/٤.

وأبو تمام يشكو الدهر أكثر ما يشكوه، وتثور نفسه ثورتها، وترمي بزبدها،إذا اجتمع عليه: العدم، والغربة، وبينُ الحبيب، وإخلاف الرجاء، وطمع لا يقابله بذل. وقد اجتمت له جميعا وهو بنيسابور كما ترى. والذي لقيه أبو تمام في نيسابور من جنس ما كان لقيه في مصر، والشام، والعراق، وهو في هذه التجارب جميعا يذم الدهر، ويجأر بالشكوى منه، ويحنّ إلى وطنه الشام ، حنينَ من لا يتبع القول الفعل، ويجعل العودة شفاء للحنين .

هذا. وشكوى أبي تمام في حداثته في مصر، مما عُرِف سببه، وسهل تفسيره، لأنه عاني يومئذ ما عانى من الفاقة، في حداثة من سنه، ولين من عوده، وبعد عن أهله، و غربة عن وطنه. ولكن استمرار شكواه بعد مصر، حين أحكمته التجارب، وأقبلت عليه الدنيا، وملأ يديه من عطايا ممدوحيه،= مما يصعب تفسيره، إلا بما حدثتك به ، من أن تجربة أبي تمام المرة في مصر، قد تركت له غصة في حلقه، وهما في صدره ،وإحساسا متأصلا بظلم الدهر له، وعتوه عليه، ثم لم يفارقه ذلك الإحساس أبدا.

******

أبو تمام والمال :

كان أبو تمام عظيمَ الهم والهمة في طلب المال ، وإدراك الغنى ، تدل على ذلك كثرة كاثرة من أخباره وأشعاره : كان اجتداء ممدوحيه شغله الشاغل ، وكان مقدما لديه حتى على الاشتغال بالرد على من هجاه ؛ فقد أمسك عن هجاء مخلد بن بكار وغيره ، وحجته في ذلك أن الهجاء

يرفع من خسيستهم ، وأنه ليس فيه فضل عن مدح من يجتديهم من ممدوحيه[1] : أي أن جل قوته موجه إلى اجتداء من يمدحهم ، واستخراج ما يمكنه استخراجه من أيديهم من المال ، وهذا حال رجل جعل من طلب المال همه الأول. وكان هذا الأمر معروفا عن أبي تمام في عصره ، حتى هجاه به بعض من هجاه من الشعراء . فقد روي أن أبا تمام لما عزم على الانحدار إلى البصرة والأهواز ، لمدح من بهما ، وعلم بذلك عبد الصمد بن المعذل، كتب إليه:

أنت بين اثنتين تغدو مع النا س وكلتاهما بوجه مذال

لست تنفك طالبا لنوال من حبيب أو طالبا لوصال

أي ماء لماء وجهك يبقى بعد ذل الهوى وذل السؤال

فأضرب أبو تمام عن عزمه ، وترك لعبد الصمد البصرة والأهواز .[2]

ولقد روى الحسن بن الحسين الأزدي، أن أباه رأى أبا تمام يخفف في صلاته ، فقال له : "أتمَّ يا أبا تمام" ، فقال أبو تمام – حين انصرف من صلاته – : " قلةُ المال ، وطول الأمل ، ونقصان الجدة ، وزيادة الهمة، يمنع من إتمام الصلاة، لا سيما ونحن على سفر!!.. فقال الحسين: "وددتُ أنه يعاني فروضه، كما يعاني شعره"[3].، فإن صح هذا الخبر، كان من أقوى الأدلة ، فيما نحن بصدده .

وقد علِم أن المنهوم في طلب المال لا يشبع، وإن أعطي العطاء الجزيل ، فالقليل يحمله على طلب الكثير، والكثير يحمله على طلب ما

---

[1] أخبار أبي تمام : ٢٤١.

[2] السابق :٢٤١،٢٤٢.

[3] أخبار أبي تمام : ١٧٥.

هو أكثر . وعنده دائما في ذلك حجج لا تنقطع . ومن طريف ما وقفت عليه في هذا احتجاجُ الحطيئة– وأبو تمام يشبهه فيه من بعض الوجوه – في قوله :

يقولون: يستغني والله ما الغنى   مـن المال إلا ما يُعف وما يكفي
لعمري لشدت حاجة لو علمتُها   أمامي وأخرى لو ربَعْتُ لها خلفي
فهلا أمرتَ ابني هشامٍ فيربَعا   على ما أصابا من مئين ومن ألف ؟!

وأراد بابني هشام : ابني هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكانا تاجرين ثريين، يتجران ببلاد الروم وفارس والحبشة [1]. فالحطيئة يقول لمن يدعوه إلى القناعة : مر بها أولا هذين التاجرين الغنيين ، ابني هشام .

وكان أبو تمام يحتال أحسن احتيال ، لاستخراج المال من ممدوحيه: يستخرجه بشعره ومدائحه تارة ، ويستخرجه أخرى بحسن حديثه، وحلو مفاكهاته، وحاضر جوابه. وظريف أدبه، فإذا لم يجد مع هذا ما يرضيه ويشبعه، ولم يعط ما يستحقه مثله، ورأى أيدي ممدوحيه أقفالا، ضاعت مفاتيحها= استعان على نيل عطاء ممدوحيه بذوي الجاه عندهم، وتوسل إليهم بأهل الوجاهة لديهم. قال يخاطب علي بن الجهم، ويستنجز له وعدا من عثمان بن إدريس الشامي:

أتترك حاجتي غرض التواني   وأنت الدلو فيها والرشاء
تألف آل إدريس بن بدر   فتسبيبُ العطاء هو العطاء
وخذهم بالرُّقى إن المهارى   يهيجها على السير الحداء

---

[1] السمط : ١/٣٩٠.

فإما جاز مني الشعر فيهم   وإما جاز منك الكيمياء[1].

فانظر إلى قوله : " وخذهم بالرقى...، فإنه يدلك على مقدار طمع هذا الرجل ، ولطف احتياله في استخراج مال ممدوحيه . وروي أن عبد الله بن طاهر أمر له بعطاء، ووقع له به، فتأخر، فسأل أبا العميثل، الشاعر، المختصَّ كان بابن طاهر، - أن يسعى له في تحصيل ما كُتب له به، وقال لأبي العميثل في ثنايا مدحه لابن طاهر:

وأرى الصحيفةَ قد علتها فترة   فترت لها الأرواح في الأجسام
إن الجياد إذا علتها صنعة   راقت ذوي الألباب والأفهام

يعني بالصحيفة: الصحيفة التي وُقّع له فيها بالعطاء. وفسر الصولي البيت الثاني بقوله: "يقول إذا تكلمت في أمري، كان أرْوَحَ له "[2]. وهو يقول: إن إبطاء العطاء تفتر له روحه في جسمه!، فكيف لو حرم العطاء ومنعه ؟؟ !.فإذا لم يجْد المدح والتوسل فزع أبوتمام إلى الشكوى:شكوى الزمان وأهله. ولام الممدوح والشفيع جميعاً، كما نرى في عتابه لموسى بن إبراهيم الرافقي، حين ضن عليه بجاهه، ولم يتشفع له عند بعض ممدوحيه، فقال:

إبى الحزمُ لي مُكثا بدار مضيعة   وعنس أبوها شدقم وجديل
وإن امرأً ضنت يداه على امرئ   بنيل يد من غيره لبخيل[3].

---

[1] ديوانه : ٤/٤٤٠.
[2] ديوانه : ٣/٢٨١.
[3] ديوانه :٤/٤٤٧.

وأبو تمام جاء بعقب زمان كان الممدوحون فيه يعطون العطاء الجزيل، ثم لا يرون أنهم كافؤوا مادحيهم، أوقاموا بحق مدحهم لهم. فذهب هذا الزمن أو كاد ، وجاء أبو تمام في زمان قلّ فيه أمثال هؤلاء، ووجد غيرهم من أهل الغنى ، ممن يحرم الغريب كما يحرم القريب ، ويعتذر عن الإحسان كما يُعتَذَر عن الإساءة ، بهذا وصفهم أبو العيناء عند المتوكل[1].

وأبو تمام ملحاح سؤول وقد عرف هذا عنه وهجاه به بعض معاصريه كما عرفتَ قبلُ ، ولكنه لم يبلغ مبلغ أن يذل في ذلك نفسه ، أو يهين فيه مروءته : ففي خبر أنه لما قدم على عبد الله بن طاهر في خراسان وأنشده قصيدته التي مطلعها :

هن عوادي يوسف وصواحبه فعزما فقدما أدرك السؤل طالبه

– فلما فرغ من إنشادها نثر عليه ابن طاهر ألف دينار، فلقطها الغلمان، ولم يمَس منها أبو تمام شيئا، فوجَد عليه ابن طاهر، وقال:"يترفع عن بري، ويتهاون بما ألزمته به" ، فما بلغ أبو تمام منه بعد ذلك ما أراد.[2]. وقد ورد مثل هذا الخبر بصيغة أخرى، وهي أن ابن طاهر أمر لأبي تمام بشيء لم يرضه، ففرقه أبو تمام، فغضب عليه ابن طاهر؛ لاستقلاله ما كان أعطاه، وتفريقه إياه، فشكا أبو تمام هذا إلى أبي العميثل، شاعر آل طاهر، فقال أبو العميثل لابن طاهر: أيها الأمير، أتغضب على من حمل إليك أمله من العراق ؟!، وكدَّ فيك جسمه وفكره، ومن يقول فيك:

---

[1] أمالي المرتضى : ٣٠٠/١.

[2] أخبار أبي تمام :١١٧.

يقول في قُومِسٍ صحبي وقد أخذَت   بنا السرى وخُطى المهرية القُودِ
أمطلعَ الشمس تنوي أن تؤم بنـا   فقـلت: كلا ولكن مطلع الجودِ

فدعا به ابن طاهر، ونادمه يومه ذاك، وخلع عليه، ووهـب لـه ألف دينار، وخاتما كان في يده له قدر[1]. ولا أدرى أهو موقف واحد، ثم غيرت الرواية الخبر، أم هما موقفان متشابهان.

ولكن أبا تمام يبلغ أحيانا مبلغ الضراعة في طلب العطاء، من مثل قوله لمحمد بن عبد الملك الزيات:

أكابرناعطفا علينا فإننا   بنا ظمأ مُرّد وأنتم مناهل [2].

وهذا يقوله ملحف سؤول، لا قانع متعفف. ومن كان عيشه مـن عمـل لسانه كأبي تمام، فلا يسلم من الوقوع في مثل هذا ، ولعله كان يفعله مع أودائه ، ومن جمعه معه نسب الأدب مثل ابن الزيات.

وكان أبو تمام يرى أنه قد أعد للغنى عدته، لو طاوعه الـدهر، وسالمته الأيام ، وأنه راض نفسه على صحة العلـم، وجـودة الشـعر، وسعة الرواية، وأخذ في حياته بالحزم، وعلو الهمة، وقوة الحيلة، ثم هو بعد هذا كله، سيء جَدُّه ، مدفوع عن آماله، ينتظر ما يفيض مـن بـين أصابع ممدوحيه، الذين هو عند نفسه أولى من كثير منهم ، بأن يكـون ممدوحا لامادحا، ومعطيا لا آخذا. ومقصوداً لا قاصدا.وهو يقول لمحمد ابن يوسف الثغري :

[1] أخبار أبي تمام :٢١٣.
[2] ديوانه :١٣١/٣

الدهر يسمح بالتي تهب الغنى   لمـؤمل أو صادر أو قاصد

فعلام أصبح من نداك بمعزل   وسواي تلحظه بعين الواكد[1]

ويقول فيها :

اليأس ألزمني محلَّ القاعد   إذ ليس جدي في الجدود بصاعد.

والحق أن أبا تمام كان من كَملة الرجال فـي العلـم والأدب، والدرايـة والرواية، جدَّ في ذلك حين هزل غيره، وحفظ حين ضيع سواه، وسـهر حين نام أترابه. وقد روى الجمل المصري الشاعر الراوية: أنـه خـرج مع أبي تمام إلى شاطئ النيل بمصر، ودفعا ثيابهما إلى قبطية تغسـلها، أما الجمل فنام، وأما أبو تمام فما فرغت المرأة من دق ثيابه، حتى كـان قد حفظ خمس عشرة قصيدة من شعر الطرماح[2].هذا وأبو تمـام يومئـذ فتى حدث ، تغريه الحداثة باللعب، وتزين له الفتوة إنفاق الوقت في اللهو والعبث.

وقد بقي هذا دأبَ أبي تمام فيما بقي من عمره، مستهترا بالشعر نظما ورواية، وعلما، مشغوفا به مشغولا، كما قال الآمدي وغيره، أمـا شعره وما له فيه من إبداع وإجادة فمعلوم مشهور، وأما روايته للشـعر، فتدل عليها كثرة إختياراته، وقد عد منها الآمـدي:" الاختيـار القبـائلي الأكبر، الذي اختار فيه لكل قبيلة قصيدة – قال الآمدي وقد مـر علـى يدي هذا الاختيار-. والاختيارَ القبائلي الذي اختار فيه قطعا من محاسن أشعار القبائل، ولم يورد فيه كبير شئ للشعراء المشهورين. قلت: وحقه

---

[1] السابق :٢/١٥١.

[2] ديوان أبي تمام : ٤/٦٠٤.

أن يسمى الاختيار القبائلي الأصغر.والاختيارَ الذي تلقط فيه محاسن شعراء الجاهلية والإسلام، من كل قصيدة شيئا، وانتهى فيه عند ابن هرمة، ويعرف باختيار شعراء الفحول.واختياراً تلقط فيه أشياء من أشعار المقلين والمغمورين، وبوبه أبوابا، وهو أشهر اختياراته، وأكثرها دورانا في أيدي الناس، وهو المعروف بالحماسة .واختيارَ المقطعات، ذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم من القدماء والمتأخرين. والاختيارَ المجرد في أشعار المحدثين قال: وهو موجود في أيدي الناس. هذا كلام الآمدي بأكثر ألفاظه، وقد رتب عليه قوله في أبي تمام: "فهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر، وأنه اشتغل به، وجعله وكده، وغرضه، واقتصر من كل العلوم والآداب عليه، وإنه ما فاته كبير شيء من شعر جاهلي ، ولا إسلامي ، ولا محدث إلا قرأه وطالع فيه.."[1].

وأما علم أبي تمام بالشعر، فقد قال فيه الحسن بن رجاء "ما رأيت أحدا قط أعلم بجيد الشعر: قديمه وحديثه من أبي تمام" [2].وحسبك قول ابن الدقاق فيه: حضرنا مع أبي تمام وهو ينتخب أشعار المحدثين، فمر به شعر محمد بن أبي عيينة المطبوع....، فنظر فيه ورمى به، وقال: هذا كله مختار. وهذا أدل دليل على علم أبي تمام بالشعر؛ لأن ابن عيينة أبعد الناس شبها به، وذلك أنه يتكلم بطبعه، ولا يكد فكره ، ويخرج ألفاظه مخرج نفسه، وأبو تمام يتعب نفسه، ويكد طبعه، ويطيل

---

[1] الموازنة : ٥٨/١، ٥٩.

[2] أخبار أبي تمام : ١١٨.

فكره، ويعمل المعاني ويستنبطها. ولكنه قال هذا في ابن عيينة ، لعلمه بجيد الشعر ، أي نحو كان"[1].

وأبو تمام بعد هذا كله: فطن لقن، ألمعي حاضر الجواب، حتى ليقول في قصيدة عاتب فيها أبا سعيد يوسف بن محمدالثغري:

ليت شعري ماذا يريبك مني ولقد فقتُ فطنةَ الفيلسوف[2].

و حتى سماه الحسن بن رجاء: "أبا التمام" ؛ لتمام عقله ، وكمال أدبه . وقال: "ما رأيت أعلم بكل شيء منه ". وقال البحتري لعلي بن عيسى النوبختي: "لو رأيت أبا تمام الطائي لرأيت أكمل الناس عقلا وأدبا، وعلمت أن أقل شئ فيه شعره".[3] . فإذا اشتكى من هذا شأنُه – حين يحرم– من الدهر وفعله، والزمانِ وأهله ، فهو أهل لأن تسمع شكواه، وتقبل في الدهر دعواه ، ويعرف في ذلك عذره .

والذي يحير في أمر أبي تمام أنه كان يشكو الدهر،فيكثر الشكوى، ويذم الزمان ، فيطيل الذم، حتى ليخيل إليك أنه لم يأخذ على مدائحه شيئا، ولا نال من ممدوحيه قليلا ولا كثيرا!!. والأخبار متساندة على أنه ملأ يديه من أموال ممدوحيه، حتى قيل: إنه لما أصاب من الدنيا ما أصاب، لبس الناعم من الثياب، وأكل الناعم من الطعام، واتخذ العبدان،والمركب الفاره[4]. و نقل أحمد بن يزيد المهلبي عن أبيه عن

---

[1] أخبار أبي تمام :١١٨.
[2] ديوانه : ٤٧٨/٤.
[3] السابق ١٧١ . ١٧٢ .
[4] أبو تمام الطائي :٤٣.

جده قال: "ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما واحدا، في أيـــام أبي تمام، فلما مات أبو تمام اقتسم الشعراء ما كان يأخذه"[1]. وهذا القـــول محمول على المبالغة قطعا ؛ لأن الشعراء أخذوا في زمان أبـــي تمـــام كثيرا . وإنما أراد كثرة ما كان يأخذه أبو تمام من ممدوحيه، حين عـــلا قدره، واشتهرفي الآفاق ذكره.

ولما أنشد أبو تمام أبا دلف بائيته، التي مطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

قال أبو دلف: يا معشر ربيعة: "ما مُدحتم بمثل هذا الشعر قـــط!، فما عندكم لقائله؟"، فبادروا بمطارفهم وعمائمهم ، يرمون بها إلى أبـــي تمام!!!، ثم أعطاه أبو دلف بعد ما فرغ مـــن القصـــيدة خمســـين ألـــف درهم[2].وفي خبر عن أبي عيد الله الرقي: محمد بن سعيد كاتب الحســـن ابن رجاء قال: أخذ أبو تمام من الحسن ، في مقام شهرين عنده عشـــرة آلاف درهم، بيدي أبي عبد الله المذكور، وأخذ غير ذلك مما لم أعلم به، على بخل كان في الحسن بن رجاء!!"[3].

وفي خبرأن خالد بن يزيد بن مزيد أعطى أبا تمـــام علـــى مدحـــة عشرةَ آلاف درهم بيضـــا. قـــال راوي الخبـــر، وهـــو: أبـــو توبـــة الشيباني:ووالله ما كافأه!![4]. وكان خالد يومئذ على أرمينية أيـــام الواثـــق

---

[1] أخبار أبي تمام :١٠٥.

[2] أخبار أبي تمام : ١٢٤.

[3] السابق : ١٧٠.

[4] نفسه : ١٦٢.

سنة٢٣٠هـ.وفي خبر آخر أن خالدا استنشد أبا تمام لاميته ، التي مدح بها الأفشين، وأولها :

غدا الملك معمور الحَرا والمنازل   منورَ وَحْفِ الروض عذبَ المناهلِ

ثم قال له: "كم أخذت بهذه القصيدة"؟ قال:"ما لم يرو الغلة، ولم يسد الخلة" ، قال: "فإني أثيبك عنها" قال: ولم ذاك، وأنا أبلغ الأمل بمدحك؟ قال: "لأني آليت لا أسمع شعرا حسنا مدح به رجل ، فقصر عن الحق فيه إلا نبت عنه "[1].

وذكر المبرد في كتاب الفطن والمحن ، ونقله عنه الصولي: أن خالدا هذا كان بقية الشرف والكرم، وأوسع الناس صدرا في إعطاء الشعراء، دفع إلى عمارة بن عقيل بن جرير ألف دينار، لقوله فيه:

تأبى خلائق خالد وفعاله   إلا تجنُّب كل أمر عائبِ

وإذا حضرنا الباب عند غدائه   أذن العَشاء لنا برغم الحاجبِ

قال المبرد : وأخذ أبو تمام بمدحه له أضعاف هذا "[2].وقد مر بك أنه أخذ على أول قصيدة مدح بها عياش بن لهِيعة خمسة آلاف درهم، ولا ندري كم أعطاه على سواها من مدائحه فيه. وذكر البحتري أن أبا تمام أخذ من أبي سعيد الثغري، وهو طائي من أهل مَرو، من قواد حميد الطوسي – كثيرا ، قال: "وما أخذ أبو تمام من أحد ،كما أخذ منه، ليس أنه كان يُكثر له، ولكن كان يُدِيم ما يعطيه"[3].وفي خبر عن الحسين بن وَدَاع ،

---

[1] أخبار أبي تمام :١٦٤.
[2] أخبار أبي تمام : ١٦٣.
[3] أخبار أبي تمام :٢٢٧.

كاتب الحسن بن رجاء قال:"حضرت محمد بن الهيثم بالجبل، وأبو تمـــام ينشده:

جادت معاهدَهم عهادُ سحابة ما عهدها عند الديار ذميم

فلما فرغ منها، أمر له بألف دينار، وخلع عليه خلعة حسنة. ثم كتب لـــه أبو تمام أبياتا أولها:

قد كسانا من كسوة الصيف خِرْقٌ مكتسٍ من مكارم ومساع..

فلما بلغت محمد بن الهيثم قال : من لا يعطي على هذا ملكــه ؟! . والله لا يبقى في داري ثوب إلا دفعته إلى أبي تمام ، فأمر له بكل ثوب يملكه في ذلك الوقت !![1]. فما وجه الشكوى من أبـــي تمـــام بعـــد كـــل هـــذا العطاء؟!!!

وكان أبو تمام يرى أن المال الذي يطلبه من ممدوحيـــه ، هـــو حق الشعر الذي يحسنه، فإذا أعطيَ، فقد أعطِي الشعر، وإذا حـُـرِم فقـــد حرم الشعر، وإذا أكرم فقد أكرم الأدب، وإذا أهين فقد أهين الأدب: قال في إحدى قصائده ، التي عبر فيها عن حرمانه، وسوء صنيع الدهر به:

إلا إن نفس الشعر ماتت وإن يكن عداها حمام الموت فهي تنازع

سأبكي القوافـــي بالقوافي فـــإنها عليها-ولم تظلم بذاك- جوازع

أراعِي ضـــلالات المروءة مهملٌ وحـــافظُ أيـــام المكارم ضائعٌ؟![2].

---

[1] السابق :١٩٠.

[2] ديوانه : ٥٨٤/٤.

وأراد: بـ"راعي ضلالات المروءة"، و"حافظ أيام المكارم": الشعر.

وكان يزيد في شكوى أبي تمام أن يرى الجهالة وأهلها في إقبال، والعلم وأهله في إدبار، والضعفة من الرجال يقدمون، والكملة يؤخرون، وفي أزمنة السوء يكون مثل هذا. وهو يقول في هذا المعنى، يخاطب ابن الزيات، وكان نسيبه في الأدب، وأربى عليه بالوزارة:

أبا جعفر إن الجهالة أمها ولود وأم العلم جداءَ حائلُ
أرى الحشوَ والدهماءَ أضحوا كأنهم شعوبٌ تلاقت دوننا وقبائلُ
غدوا وكأن الجهل يجمعُهم به أبٌ وذوو الآداب فيهم نوافِلُ
فكن هضبة نأوي إليها وحَرة يعرّد عنها الأعوجي المناقل
فإن الفتى في كل ضرب مُنَاسِبٌ مناسِبَ روحانيةً من يشَاكِلُ[1]

ويقول في أخرى قالها لابن الزيات أيضا:

وَأصرِفُ وَجهي عَن بِلادٍ غَدا بِها لِسانِيَ مَشكولا وَقَلبِيَ مُقفَلا
وَجَدَّ بِها قَومٌ سِواي فَصادفوا بِها الصُنعَ أعشى وَالزَمانَ مُغَفَّلا
كِلابٌ أغارَت في فَريسَةِ ضَيغَمٍ طَروقاً وَهامٌ أطعِمَت صيدَ أجدَلا
وَإِنَّ صَريحَ الرَأيِ وَالحَزمِ لِامرِئٍ إِذا بَلَغَتهُ الشَمسُ أَن يَتَحَوَّلا[2]
وما أبرع هذا البيت الأخير على وضوح معناه .وكان أبو تمام ربما رأى نفسه في الحالة التي قال فيها ابن القارح عن نفسه: "ثم دفعتُ إلى أوقات ليس فيها من يرغب في علم ولا أدب، بل في فضة وذهب". وأبو تمام

---

[1] السابق :٣/١١٨،١١٧.والنافلة " شبه الزيادة يلحق بالصميم ولا يحتج إليه " وقال أبو العلاء : " الحرة توصف بأنها يعتصم بها ؛ لأن المشي فيها يصعب " الشرح .
[2] ديوانه :٣/١٠٦،١٠٥.

قد أعَدّ نفسه لزمان ، يقدم فيه العلم والأدب على الفضة والذهب، فلما لم يكن الأمر على ما قدر علا صوت شكواه ، وفاضت نفسه بما فيها.

وكان ربما رأى أنه يعطي ممدوحيه أكثر مما يأخذ منهم ، فهو مُعْطٍ مثلهم، أو هو المعطي قبلهم، وهذا المعنى كامن في قوله لأحمد بن أبي دؤاد:

فما بال وجه الشعر أغبر قاتما　　وأنف العلى من عطلة الشعر راغمُ

تدَارَكْهُ إن المكرمات أصابع　　وإن حُلَى الأشعار فيها خواتم

إذا أنت لم تحفظه لم يك بدعة　　ولا عجبا أن ضيعته الأعاجم

فقد هزّ عطفيه القريضُ توقعا　　لعدلك مذ صارت إليك المظالم

ولولا خلال سنها الشعر ما درى　　بغاة الندى من أين تؤتى المكارم[1]

ومما يعين على تفسير كثرة شكوى أبي تمام من الدهر على كثرة ما أخذ من مال ممدوحيه- أنه كان متلافا للمال إذا أخذه، في حق أو في باطل، فكان في هذا كالأرض التي لا تمسك ماءها. أما إنفاقه المال في حقه ، فإنه كان يواسي إخوانه بماله، ويجود لهم إذا أرملوا، فإذا لم يكن عنده احتال لهم. قال عون بن محمد: "قدم على أبي تمام رجل من إخوانه وكان قد بلغه أنه أفاد وأثرى- يستميحه ، فقال له أبوتمام: "لو جمعتُ ما آخذه، ما احتجتُ إلى أحد، ولكني آخذ وأنفق، ولكني سأحتال لك" ، ثم كتب إلى أبي سعيدالثغري بشعر يمدحه،

---

[1] ديوانه :٣/١٨٣،١٨٢.

ويستمنحه لصاحبه، فأرسل إليه ثلاثمائة دينار، وللزائر مـــائتي دينــار، فشاطره أبو تمام، فزاده خمسين[1].

وقال من قصيدة مدح بها سليمان بن وهــب، واســتعطاه فيهـــا لسليمانِ بن رزين، ابن أخي دعبل الخزاعي الشاعر:

ذو الود منيِ وذو القربى بمنزلة   وإخوتي أسوة عنـــدي وإخـــواني
لا تخلفن خُلُقِي فيهم وقد سطعت   ناريَ وجـــدد مـــن حالي الجديدان
في دهْرِيَ الأولِ المذمومِ أعرفهم   فالآنَ أنكرهم في دهرِيَ الثـــاني؟!
عصابة جاورت آدابـــهم أدبـــي   فهم وإن فرقوا في الأرض جيراني
أرواحنا في مكان واحـــد وغدت   أبداننـــا فـــي شـــأم أو خراســـان
ورب نائي المـــغاني روحـــه أبدا   لصيقُ روحي ودَانٍ ليس بالدانِي[2].

ومثل هذا كثير في أخباره، وأشعاره[3]وقوله : " لو جمعت ما آخذه مـــا احتجت إلى أحد ، ولكني آخذ وأنفق."فيه تفسير كثرة شكواه على كثـــرة ما أخذ . فاعرفه.

وأما إتلافه المال في حرام، فإن أبا تمام كان ابنَ لـــذة، وأخـــا متعة، يعجبه الغناء واللهو ، ويستخفه الشراب والطرب . ومن أخبـــاره في هذا أن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني،أعطاه على مدحة مرة عشرة آلاف درهم، ونفقةَ سفره، وأمره ألا يقيم إن كان عازماعلى الخـــروج .

---

[1] أخبار أبي تمام : ٢٢٨.

[2] ديوانه : ٣٣٤،٣٣٥/٣.

[3] وانظر ديوانه : ٣٣٦/٣.

ثم خرج خالد بعد أيام يتصيد ، فوجد أبا تمام تحت شجرة، وعنـــده زق خمرٍ، وغلام بيده طنبور ، فقال له: ما فعل المال؟ ، فقال أبو تمام:

علمـــني جودُك السمـــاحَ فما — أبقيتُ شيئا لدَيَّ من صلتك
ما مر شهر حتى سمحـــتُ به — كـــأن لـــي قـــدرة لمقدرتك
تنفقُ في اليوم بالهبات وفي السـ — ـــــاعة ما تجتبيه في سنتك
فلست أدري من أين تنفقُ لـــو — لا أن ربـــي يمـــد في هبتك.

فأمر له خالد بعشرة آلاف أخرى فأخذها[1]. ومن كان مذهبه فـــي إنفـــاق المال هذا المذهب، لم يكفه ما أخذ وإن كثر، وو جد مس الفقر فاشـــتكى، وهو خلاف مذهب أهل القناعة، وتثمير القليل؛ ليكثـــر، ويمثلـــه قـــول المتلمس:

وأَعْلَمُ علمَ حق غيرَ ظن — وتـــقوى الله من خير العتادِ
لحفظُ المال خير من بُغَاةٍ — وضربٌ في البلاد بغير زادِ
وإصلاحُ القليل يزيدُ فيه — ولا يـــبقى الكثيرُ على الفسادِ

وهذا من الشوارد في معناه ، فتأمله. .

وهناك معنيان لا يفتؤ أبو تمام يكررهما في شعره، ويضمنهما، أو يلحق بهما بثه وحزنه، وكأنما كان يدفع عن نفســـه عاديـــة الـــدهر بأولهما، ويعتذر لنفسه بثانيهما: الأول: أنه دائب السعي والســـفر، كثيـــر التطواف والترحل، مجهدٌ في طلب المال نفسه ودابته، والثاني: أنه جيد الشعر فائقُه ، يعطي في شعره ذات نفسه، ويذيب فيـــه عقلـــه وفكـــره،

---

[1] السابق :١٥٩.

وكأنه يقول: ما حق من كان كذلك أن يُحرم، وإنما يحرم بحق من قعـد به مسعاه عن الغنى، وتوسل إلى مطلبه بما لا يحسن :

أما الترحل فإن أبا تمام كان نضوَ ترحال، وحِلس أسفار، بـدأ الترحل والغربة في مصر، وهو بعد صبي كما عرفتَ، وإنه ليقول فـي بعض هجائه لعتبة بن عاصم ، شلعر حمص، يعنى نفسه:

أخا الفلوات قد أحيا وأردى   ركابا في صحاصحها وركبا
فكاد بأن يُرى للشرق شرقا   وكاد بأن يُرى للغرب غربا[1]

وهو من بواكير شعره ، وهو مع هذا يقول فيه عن ترحاله وأسفاره مـا يقول. وكان يرى أن طول مقام المرء بالحي مخلق لديباجتيه ، وأن مـن لزم البيوت ضاق عليه عيشه، يقول:

من أبَنَّ البيوتَ أصبح في ثو   ب من العيش ليس بالفضفاض
والفتى من تعرقتـه الليـالي   والفيافـي كالحـية النَّضْنَاض[2]

ويقول أيضا :

ما ابيض وجه المرء في طلب العلا   حتـى يسوِّد وجهَه في البيدِ
وصدقتَ إن الـرزق يطلب أهـله   لكـن بحيلة متعب مكدودِ [3]

---

[1] ديوانه :٣٠٣/٤.
[2] ديوانه :٣١٠/٢.
[3] السابق :٨٠٥/٤.

ويقول من قصيدة وصف فيها معركته مع الدهر ، فهو يطالب الدهر بحظه ، والدهر يطالبه بوتره عنده :

لكنه عجب وليس بمعجب   أن شام من حكم الزمان عجيبا
يوما بمنقطع الشروق مُقامه   ويقيم يوما بالغروب غريبا[1]

وكان اتخذ من الآمال له وطنا، فقال:

وضياء الآمال أفسح في الطر   ف وفي القلب من ضياء البلاد[2]

ولفظ الأمل هو ثالث ألفاظ ثلاثة يكثر ورودها في شعر أبي تمام ، والاثنان الباقيان هما : الدهر والهم .و قد بقي إلى آخر عمره، لا يهدأ له ظهر، ولا تطمئن به أرض. ومراد أبي تمام من وصف كثرة تطوافه وترحاله أن يقول: إنه ما قصر في الطلب، ولا قعد عن المسعى، ولكن الدهر عانده، والغنى ماطله، فقد أعذر إلى الأيام فلم تقبل عذره، وبهذا يمكن تفسير كثرة شكواه .

وكان طموح أبي تمام وطمعه يحمله أحيانا على ألا يتخير ممدوحيه، فقد مدح طبقات شتى من الناس: الخلفاء والوزراء والقواد والكتاب، ومن دونهم. وكان يُلام على هذا من بعض ممدوحيه، وربما زهدهم هذا في مدائحه فيهم، وممن لامه على ذلك محمد بن عبد الملك الزيات، قال له مرة ، لما أنشده قصيدته التي مطلعها:

لهان علينا أن نقول وتفعلا   ونذكر بعض الفضل منك وتفضلا

---

[1] ديوانه :٥٦٤/٤.

[2] السابق :٣٦٣/١.

= "والله ما أحب بمدحك مدح غيرك؛ لتجويدك وإبداعك، ولكنك تـنغص مدحك ببذله لغير مستحقه " . فقال له أبو تمام: "لسان العذر معقول، وإن كان فصيحا" ، ومر في قصيدته، فأمر له ابـن الزيـات بخمسـة آلاف درهم[1]. وعبر له ابن الزيات عن هذا المعنىشعراء، فقال :

رأيتك سمح البيع سهلا وإنـما يغالي إذا ما ضن بالشيء بائعُهْ

فأما الذي هانت بضائع بيعـه فيـوشك أن تبقى عليه بضائعه

هوالماء إن أجممته طاب ورده ويُفسـد مـنه أن تباح شرائعه [2]

ولما دخل أبو تمام على نصر بن منصور مادحا ، وبلغ فيه قوله :

أسائلَ نصر لا تسله فإنه أحن إلى الإرفاد منك إلى الرفد

قال له نصر : "أنا والله أغار على مدحك أن تضـعه فـي غيـر موضعه، ولإن بقيتُ لأحظرن ذلك إلا على أهله"، وأمر له بجائزة سنية، وكسوة، فمات نصر بعد ذلك ،في شوال سنة سبع وعشرين ومائتين[3].

ومع هذا فقد ذكر الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل: أن أبا تمـام كان أصدق الناس اختيارا لممدوحيه، وكان يضع المدح موضعه اللائـق به[4]. وهذا كما ترى خلاف ما قاله ابن الزيات، ونصر ابـن منصـور. وابن الزيات ونصر بن منصور لايقولان هذا عن أبي تمـام، إلا وقـد عُرِفَ عنه أنه في بعض مدائحه لا يتخير ممدوحيه، ولا يطلب لقصائده الأكفاء. قلت: ومنطق الممدوح خلاف منطق المادح، لأن الممدوح يحب

---

1 أخبار أبي تمام : ١٢٠.

2 ديوان أبي تمام :١٣٠/٣.

3 أخبار أبي تمام :٢٦٦.

4 عبقرية أبي تمام :٢١.

أن يفرَد بالمدح، ويسره أن لا يشرَك في الثناء، والشاعر المادح عينه على العطاء، لا يبالي من أي يد ناله، وبأي كف أخذه؟.

******

نفسية أبي تمام :

ولقد تأملت شعر أبي تمام تأملا نفسيا بعد كل ما سبق ، فوجدته رجلا يطوي جوانحه، ويطبق صدره على كثير من الحزن والأسى والأمل والألم، وهذا الحزن والأسى، والأمل والألم يتنفس في شعره كلما حزبه أمر ، أو كربه خطب ، فجعل هذا منه شخصا كثير الشكوى، ثائرَ النفس، سريعَ الغضب، قليلَ الصبر على ما ينوبه، وصار في مواقف أخرى من حياته رجلا عارما، لا يكاد يرعى قديمَ حرمة إذا ثار، ولا يذكر سالفَ يد إذا استثير، وصار له هذا طبعا أو كالطبع، وخلقا أو كالخلق، وهو يقول في أول هجائه لعياش:

إن كنتَ في المطل ذا صبر وذا جلد فلستُ في الذم ذا صبر وذا جلد[1]

ولهذا أقدم مع كمال عقله، ووفور أدبه =على ما لا يقدم عليه إلا اللئام ، فهجا رجالا كان مدحهم ، وأقبح منه أنه هجا الرجل بعد موته كما فعل مع عياش، فشفا نفسه منه حيا وميّتا، وأقبح من هذا كله أنه هجا زوج خصمه بعد ما ماتت، ورماها بالفاحشة وهي في قبرها، كما فعل مع مقران المباركي،، فقال في هجائه:

يازوجة المسكين مقران التي عظمَت على المتطرفين وفاتُهَا

---

[1] ديوانه : ٣٣٩/٤.

خلت القبور بظبية عهدي بــها   فيــما يقــال لذيــذة خــلواتُهَا
تركت على المسكين عدة صبية   مثلَ الفراخ تخرمَــتْ أُمَّــاتهاَ
لو كان أحصــن بابــه أو داره   قلّت بنــوها عنــده وبنــاتــها
إن البلاد إذ السـيول تعــاودت   ساحاتها غمر الفضاءَ نبــاتـُها[1]

وكأني بأبي تمام كان يداوي هموم نفسه تارة بهجــاء أعدائــه، ومُخلفي آماله في العطاء، والإفحاش في هجائهم أحيانا كما رأيت، وتارة أخرى يداوي هموم نفسه بانتزاع بر ممدوحيه، وتفيؤ ظلهم. ولهذا نراه يقول لأحمد بن المعتصم:

غلب السرور على همومي بالذي   أظهرتَ من بــري ومن إيناسي
أثرُ المطالب في الفــؤاد وإنمــا   أثرُ السنين ووسمُها في الــراسِ
فالآن حين غرستُ في كرم الثرى   تلك المنى وبنيتُ فــوق أســاسِ[2]

ويشير أبو تمام في البيت الثاني من الأبيات الثلاثة إلى معنــى لطيــف يفسِّر به كثرة ذكره للهموم الطارقات، وهو: أن الحرمان من المطالــب، واستعصاء الآمال يشيب الفؤاد، كما أن مر الدهور وفعلَ السنين يشــيب شعر الرأس. وشيب الفؤاد من تدقيقات أبي تمام البديعــة.وتــارة ثالثــة يداوي هموم نفسه، ويشفيها بالفخر، ويقول إنه بــذل الوســع، وأعمــل الحيلة، وأنضى القريض، وبذل المدح، وصان العرض، فلا حرج عليه إن عاندته الأيام، أوعاداه الدهر: يقول في بعض عتابــه لأبــي ســعيد يوسف بن محمد بن يوسف الثغري:

---

[1] السابق :٣٢٦،٣٢٧/٤. وانظره : ٣٨٠/٤.
[2] ديوانه : ٢٥١،٢٥٢.

فلئن شطت الديار وغال الـــــــد هــر فــي آلــف وفــي مــألــوفِ

وتبــدلتُ بالبــشــاشــة حزنــا بعد لهــوي فــي مــربع ومصيفِ

فعزائي بــأن عرضي مصــون سائــغُ الــورْدِ والسمــاحُ حــليفي

ثم علــمي علــى حداثة ســني بصـــروف الــدهــور والتصريفِ

راكب للأمور فــي حلبة الأيــا م للمــنجيــات أو لــلــحــتــوفِ

أنا ذو منطق شريــف لإعــطاء وذو منــطــق لمــنــع عــفــيفِ

ما أبــالي إذا عنــتك أمــوري كيف أنحت علي أيدي الصروفِ[1]

وهذه المعاني الواردة في هذه الأبيات ، من أعمدة الفخر عنــد أبي تمام . وكلها يدل عليه إلا قوله: "وذو منطق لمنع عفيــف " ، فإنــه كان بخلاف ذلك في أكثر أحواله، وإنما يفعله –أحيانا مع بعض أودائـــه، ومن يجمعه به نسب وسبب قوي، كما في قوله مثلا للحسن بن وهــب، وكان بينهما تشاكل وتشابه، جمع بينها الأدب، وقــرب بينهمــا الأصــل الجامع؛ لأنهما معا من اليمانية، فحين عُهد إلى الحسن بولايــة، وشــغله ذلك عن قديم مودة أبي تمام بعضَ شغل، قال له أبو تمام، فــي عتــاب ممزوج بهجاء، أو هجاء ملطف بعتاب:

كنا وكنتَ على عهد مــضى ســلفا وفــي عــواقب حال القاطع الندم

حتى إذا لم نخف نقــض الهوى وصفت لنــا المــودة حتــى ماؤها سجم

ونحن في كنفي حــال مســاعدة كل على صــبوة العــشاق معتزم

كوارد الخِمْس شهرَ القيظ جاد له حسْيٌ ومــد علــيه ظــله الســلم

ألهتك عن حاجة ضيعتَ حرمتها ولايــةٌ ودواعــي الــنفس تــتهم

أحين قمتَ من الأيام فــي كــبد كما أنــار بنــار المُوقِــد العلــم

[1] ديوانه : ٤/٤٧٨،٤٧٧.

انشبت نفسك في ظلماء مسـدفة   وافسـدتك عـلى إخوانك النعـم

دنـيا ولكـنها دنـيا ستنـصرم   وآخر الحيوان الـموت والهـرم[1]

فإن يكن شيء من معاتبات أبي تمام يصدق عليه قوله :" ومنطق لمنع عفيف " فهي هذه الأبيات وأشباهها ، وكان الرجل في غير ذلك من معاتباته ، وأهاجيه عارما ، لا يبقي ولايذر .

فإن لم يكن شيء من ذلك كله فشفاء هموم نفسه بكثرة الشكوى : شكوى الدهر وفعله . وذمه ولومه . وما أراد أبو تمام أن يقوله في أهل دهره حاكمين أو محكومين ، ثم أمسك عن قوله رغبا أو رهبا ، قاله في الدهر ، وألصقه به . وكأن الدهر صار "منديلا" يمسح به أبو تمام نقائصَ أهل زمانه ، ومعائبهم . وكان أبو تمام كما ذكرتُ قبلُ يرى أنه يعطي من نفسه ، وعقله بمقدار ما يأخذ من ممدوحيه وزيادة ، فهو الآخذ المعطي . يقول من مدحة في أبي سعيد الثغري :

ولكنني لم أحْـوِ وفْـرًا مـجمّعا   فـفـزتُ به إلا بشـمـل مبـدّدِ

ولم تعطـني الأيام نـوما مسكنا   ألَـذُّ بـه إلا بـنـوم مـشـردِ

وطول مقَام المرء في الحي مخلق   لديباجتـيهِ فاغتـرب تتجـدد

فإني رأيت الشمس زيدت محبة   إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد[2]

هذا. ومذهب أبي تمام في الحياة من أسباب شكواه، فقد دلت أشعاره وأخباره على أنه كان فتى أجاب داعي لذاته، وجد في إخلاق ثوب عمره، وإيلاء جدة شبابه، لا يردعه عن ذلك نصح ناصح، ولا لوم

---

[1] ديوانه : ٤٨٨، ٤٨٩.

[2] ديوانه : ٢/ ٢٣.

لائم، ولا عذل عاذل، وفي ديوانه قصيدة خاطب بها صالح بن عبد الله ابن صالح القرشي، يقول فيها:

وعاذل عذلته في عذله فظن أني جاهل من جهله
ما غبن المغبون مثلُ عقله من لك يوما بأخيك كله
لبستُ ريعاني فدعني أبله رأي ابنَ دهر غرقا في خبله
مفيد جزل المال معطي جزله يحويه من حرامه وحله[1]

وربما حمل نفسح حملا على القناعة والتصبر، كما في قوله من قصيدة يهجو فيها عتبة بن عاصم شاعر حمص، وهي من أوائل شعره، يخاطب أخاه سهما:

حكَمَتْ لأنفسها الليالي أنها أبداً تفرقنا ولا تتفرقُ
عمري لقد نصح الزمان وإنه لمن العجائب ناصح لا يشفقُ
إن تلغ موعظة الحوادث بعدما وضحت فكم من جوهر لا ينفَقُ
إن العزاء وأن فتى حرم الغنى رزقٌ جزيل لامرئ لا يرزقُ
همم الفتى في الأرض أغصانُ الفتى غرِسَت وليست كلَّ عام تورقُ[2].

فالأيام–ويريد بها الدهر– تفرق ولا تتفرق، وهي ناصح غير مشفق. وواعظ غير حانٍ. وكان أبو تمام يومئذ قريب عهد بإخفاقه في مصر، فوصف وطأة الزمان عليه في سياق لم تجر العادة بذكره فيه، وهو سياق الهجاء.

وكان أبو تمام يومئذ يرى المال ينفق ترفا، ويذهب سرفا، وهو عند نفسه أولى به من منفقيه سرفا، ومتلفيه ترفا، ويحاول أن يتعزى،

---

[1] ديوانه :٤/ ٥٣٠، ٥٣١.
[2] السابق: ٤/٣٩٥.

فيقول: إن الصبر رزق جزيل لمن حرم الرزق، وغنى لمن لم يوسع عليه. وهذا من تدقيقه في المعاني، ولكنه لم يكن ممن فطرت نفسه على التصبر ، و طبعت على الرضا بالقليل ، فكانت الشكوى هي الأغلب عليه.ولم يكن مثل أبي تمام في عقله وأدبه ،بالذي يخفى عليه سبيل راحة النفس واطمئنان القلب، وراحة النفس، واطمئنان القلب في القناعة، ولكن الطبع غالب، وهوى النفس حاكم، والمغبون من غبنه عقله – كما قال أبو تمام نفسه: "ما غبن المغبون مثل عقله"- لا من غبنه دهره. ولذا يقول أبو تمام في صدر مدحة في نوح بن عمرو السَّكسكي:

لا تأخذني بالزمان فليس لي   تبعا ولست على الزمان كفيلا
من زاحف الأيام ثم عبَا لها   غيرَ القناعة لم يزل مفلولا
من كان مرعى عزمه وهمومه   روض الأماني لم يزل مهزولا
لوجاز سلطان القنوع وحكمه   في الخلق ما كان القليل قليلا
الرزق لا تكمد عليه فإنه   يأتي ولم تبعث إليه رسولا[1].

ولكن هذا المعنى في شعر أبي تمام غريب غرابة الشعرة السوداء في الرأس الأشيب. وقوله: "لا تأخذني بالزمان إلخ" هو مسبوق إليه بقول النابغة:

تكلفني أن يفعل الدهر همها   وهل وجدت قبلي على الدهر قادرا؟

وقد تقدم ذكره .

---

[1] ديوانه :٣/٦٧، ٦٨.

الفصل الثالث

المعاني الدهـــــرية وسياقاتها

في شعر أبي تمام

المعاني الدهرية في شعر أبي تمام :

عرفتَ أن الشعراء الذين ذكروا الدهر قبل أبي تمام، قد ولـــدوا في حديثهم عن الدهر جملة من المعاني، ذكرتُ لك منها: شكواهم مـــن الدهر، وذمهم له، ووصفهم تلونـــه وتقلبـــه، وإقـــرارهم بـــالعجز عـــن مقارعته، ومحاولتهم -أحيانا- التقوي عليه ، ونداء الـــدهر ، والـــدعاء عليه، وقد مرت بك هذه المعاني، وأمثلتها من شعرهم [1].

وقد رأيتَ أبا تمام في أشعاره الدهريـــة يكـــرر هـــذه المعـــاني بأعيانها، ويزيد عليها، ويولد فيها ، ومنها، فهو لا يفتؤ يشـــكو الزمـــان، وفعله به، ويصف حالتي الدهر: رضاه وسخطه من مثل قوله :

كان لنفسي أمـــل فانقـــضَى   فأصبـــح اليـــأس لـــه معرِضَا
أسخطنِي دهري بعدَ الرضا   وارتجَعَ العرفَ الذي قد مضَى
لم يظـــلـــمِ الدهـــرُ ولكـــنه   أقرضَـــنِي الإحسانَ ثم اقتضى [2]

وهو هنا يقول: إن الدهر مسترد ما وهب، عائد فيمـــا أعطـــى، مسخط بعد الرضا، ويزعم: أن الدهر في هذا لم يظلمْ، ولكنه أقرضـــه

---

[1] انظر هذا البحث:٤٨ وما بعدها

[2] ديوانه : ٥١٧/٤.

واسترد قرضه، وأعطاه ثم عاد في عطيته . ولكن هذا ليس رأي أبي تمام المطّرد في الدهر، وإلا لما اشتكاه فأطال شكواه، وذمه فأسرف في ذمه، كما مر بك . وشكوى أبي تمام من الدهر، وفعله مقترنة عنده – كثيرا – بذم الدهر، ولومه، وسوء الثناء عليه، يقول في هجاء أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد:

فما أنتَ اللئيمُ إذن ولكن ... زمانٌ سدْتَ فيه هو اللئيمُ
أتطمع أن تكون كريمَ قوم ... وبابك لا يطيفُ به كريمُ[1]

ويقول أيضا :

أسيء على الدهر الثناءَ فقد قضى ... علي بجَوْرٍ صرفُه المتتابعُ
أيرضَخُنا رضخَ النوى[2] وهو مصمِتٌ ... ويأكلنا أكلَ الدبا وهو جائعُ
وإني إذا ألفَى بربعي رحلَه ... لأزعَرُه في سرْبه وهو راتعُ
أبو منزلِ الهم[3] الذي لو بغَى القِرى ... لدى حاتم لم يقْرِه وهو طائعُ
إذا شرَعتْ فيه الليالي بنكبة ... تمزّق عنه وهو في الشرع شارع
وإن أقدَمَت يوما عليه رزية ... تلقى شَبَاها وهو بالصبر دارع
له همم ما إن تزال سيوفُها ... قواطعَ لو كانت لهم مقاطع[4]

[1] نفسه :٤/٤٢٨.
[2] رضخ النوى : إذا دقه ليعلفه الإبل . من شرح التبريزي
[3] " يعني نفسه . يقول : أنا صاحب الهم الذي لو استقرى حاتما على جوده لما أجابه إلى ذلك " من شرح التبريزي
[4] السابق : ٤/٥٨٣.

وكان أبو تمام ربما حدثته نفسه أحيانا بمقارعة الأيام، ومنازلة الـدهر، والتقوي في مواجهة أحداث الزمان ونوبه ،-كما ترى في الأبيات العينية السابقة-، وكما في قوله من أبيات يهجو بها معدان المباركي:

ألا ترى كيـف يبلينا الجديـدان وكيف نلعب في سـر وإعلانِ

لا تركنَن إلى الدنيـا وزخرفِهـا فـإن أوطانَها ليست بأوطانِ

وامهد لنفسِكَ من قبلِ المماتِ ولا يغرُرْك كثرةُ أصحاب وإخوانِ[1]

-ولكنه يعود إلى نفسه سريعا ، ويفيء من وهمه من قريب ، فـيعلم أن الدهر خصم لا يقارع ،وأن الزمان خصم لا يغلب ، وأن الأيام شحيحة بخيلة ، لا تطيب بثمراتها نفسا، ولا تعطي عطاء سـمحا. يقـول فـي إحدى فخرياته ، بعد محنته في مصر :

ومن قامَرَ الأيامَ عن ثمراتِها فأحْجِ بها أن تنْجَلِي ولها القَمْر[2]

ومع علمه بهذا، فإنه بقي إلى آخر عمره يقامر الأيـام عـن ثمراتهـا، ويجهد نفسه في احتلاب درها، فإذا أبطأت عليه، أو أعطته دون ما تمنى جأر بالشكوى من الدهر، وغضب غضبته على الزمان .وربمـا قـرن شكواه من الدهر بالدعاء عليه،؟![3] كقوله في قصيدة له في هجاء عياش:

فقدتكَ من زمان كل فَقْـد وغالَتّ حادثاتك كلُ غوْلِ

---

[1] نفسه : ٤٣٢/٤.

[2] نفسه : ٥٧١/٤.

[3] نفسه :٤٢٨/٤.

محت نكباته سبل المعالي وأطفأ لينه سرج العقول

فما حيلُ الأديبِ بمدركاتٍ عجائبَــه ولا فكرِ الأصيلِ

فلو نشرَ الخليلُ لــه لعفَّت رزاياه على فطنِ الخليلِ![1].

فهو يدعو على الزمان بالفقد ، وكان الشعراء قبله يقولون : لحـــى الله دهرا" أو " لحى الله هذا الدهر " ونحوهما ، وكان العرب قديما يقولون : " يا خيبة الدهر " كما مر بك .وهذا الدعاء من أبي تمام علـــى الـــدهر، يدفع إليه الغيظ والحنق، ومرارة في النفس، وأبوتمام كان يومئذ قد ابتلي بما ابتلي به في مصر من خيبة الأمل، وإخلاف التوقع، وفلول الحيـــل، حتى سُدت أمامه طرق المعالي، وخبا سراج العقل. وهذا حال من أحس بالغبن، واستشعر الحرمان .

وما زال الأدباء يكررون هذا المعنى ويضربون في هذا الفج، يقول ابن القارح –مثلا –في رسالته إلى أبي العلاء :"إن شكوتُ العصر وأحكامه، وذممتُ صروفه وأيامه، شكوت من لايُشكي أبدا، وذممت من لا يرضى أحدا، شيمته اصطفاء اللئام، والتحامل على الكـــرام، وهمتـــه رفع الخامل الوضيع، ووضع الفاضل الرفيع، إذا سمع بالحبـــاء فأبشـــر بوشك الاقتضاء، وإذا أعار فأحسبه قد أغار..إلخ [2]" .والقليل القليل مـــن الناس من ستر عيب الدهر، واغتفر له زلته، ورضي منه بما طابت بـــه نفسه، ومنه ما أنشده أبو العباس ثعلب لبعض الأعراب:

---

[1] نفسه : ٤/٤١٥، ٤١٦.

[2] الغفران :٤٤.

وأسترُ ذنبَ الدهرِ حتى كأنه صديقٌ ولا أغتابُه عند زَلَّةِ [1].

وربما زعم أبو تمام في بعض ما قال: أن الشكوى ليست له عادة، ولكن قامت في نفسه أسباب الشكوى فاشتكى، وامتلأت نفسه بالهموم ففاضت بما فيها، كما قال من أبيات، يستبطئ فيها إسحاق بن إبراهيم:

شكوتُ وما الشكوى لنفسِيَ عادة ولكنْ تفيضُ النفسُ عند امتلائِها [2]

ولكن شعر أبي تمام دال على أن الشكوى من الدهر، كانت عادة من عادات نفسه في سائر أدوار حياته، وأطوار عيشه، وأغراض شعره، حتى باتت عنده كالطبع الملازم.ويضيق المقام عن استقصاء المعاني التي ولدها أبو تمام في حديثه عن الدهر، وإذا أنت تأملت ما أوردتُه من شعره سهل عليك تتبع هذه المعاني.

****

سياقات ذكر الدهر في شعر أبي تمام:

وقد عرفتَ أن الشعراء الذين ذكروا الدهر وفعله، قبل أبي تمام قد ذكروا ذلك أكثر ما ذكروه، في سياق حديثهم عن: الموت وصرعاه، من الإنسان والحيوان والطير، والجماد، وحديثِهم عن: القرون التي خلت، والعمرانِ الذي خرب، وحديثِهم عن الهَرَم وأوصابه، والشيبِ وأوجاعِه. وقد ذكرت هذا وأمثلته من شِعرَهم فيما تقدم [3]. وقلما ذكروا

[1] أمالي المرتضى: ٢/١٨٤.وانظره: ١/١٧٢.
[2] السابق: ٤/٤٤٢.
[3] انظر هذا البحث:٢٥ وما بعدها

الدهر وفعله خارج هذا السياق ، وفي غير هذا المقام. ولكني وجدت أبا تمام يتوسع في ذكر الدهر وفعله، فيذكره في سياق الموت، والهرم والشيب، كما ذكره الشعراء قبله وبعده، ويذكره أيضا في سياقات أخر لم تجرِ عادة الشعراء بذكره فيها، مثل:الغزل، والمدح، والعتاب، والفخر، والهجاء، والحكمة والزهد، وغير ذلك، فدل هذا على فرط إحساسه بوطأة الدهر عليه، وتولعه به.

فمن ذكره الدهر في سياق الموت قوله من مرثية في يحيى بن عمران القمي:

جرَعكَ الدهرُ كأسَ الصبرِ في لجَجٍ للموت يغرَقُ في آذِيِّها[1] الجَبَلُ
موتا وقتلا كأن الدهرَ يظمأ ما عاشوا وينقَعُ ما ماتوا وما قتلوا
يا شاغِلَ الدهر عنا ما لصولتِهِ مذ صالَ فيكَ الردَى إلا بِنَا شُغُلُ

ويقول قبل هذه الأبيات :

كانَ الذي يُتقى ريبُ الزمانِ به إذا الزمانُ بدَت أنيابُه العُصُلُ
أحَلَّنا الدهرُ في بطحَاءَ مسهِلَةٍ لما تقوضْتَ عنَّا أيها الجبَلُ

وقد قال هذه القصيدة وهو في مصر، لأنه قال لابن عمران فيها:

أيِ امرئ منك أثرَى بين أعظمِهِ ثرى المقطمِ أو ملحوذه الرمِلُ[2]

---

[1] الآذيّ : الموج . من شرح التبريزي .
[2] ديوانه :٤/ ١٢١– ١٢٨.

وهو يزعم أن الدهر كلف بآل يحيى المرثيّ، مضمر العداوة لهم، جاد في إفنائهم قتلا وموتا، وكأنه يظمأ ما عاشوا، ويروى ما ماتوا وما قتلوا. ويقول إن المرثي كان مجنا يتقى به من الدهر، وكهفا يلاذ به منه، فلما مات لم يبق ما يتقى به، أو يلاذ به.وهو لايفتأ يكرر هذين المعنيين في مراثيه ، يقول في رثاء عمير بن الوليد:

عثَرَ الزمانُ ونائباتُ صروفِهِ   بمـقيلنا عثـراتِ كل زمانِ
لم يتركِ الحدثانُ يومَ سَطَا بهِ   أحدا نصُونُ به علَى الحَدَثَانِ[1]

ويقول من مرثية في محمد بن الفضل الحميري ، وقيل في أبي العباس محمد بن عيسى الجرجاني :

ريبُ دهرٍ أصـمَّ دونَ العتـابِ   مرصِـدٌ بالأوجـالِ والأوصَابِ
جف در الدنيا فقد أصبحَتْ تكـ   ـتالُ أرواحَنَـا بغـيرِ حِسَـابِ
إن ريـبَ الزمـانِ يحسِـنُ أن   يُهْدي الرزايا إلى ذَوي الأحسَابِ
فلهـذا يجـفُ بعـدَ اخضـرارٍ   قبل روضِ الوهادِ رَوضُ الرَوابي[2]

ويقول من مرثية في القاسم بن طوق :

فلو شَاءَ هذا الدهرُ أقصرَ شره   كما قَصُرَت عنا لُهاه ونائلهْ
سنـشكوه إعـلانا وسـرا ونية   شكيةَ مَن لا يستطيعُ يقاتِلُه"[3] .

ويقول في رثاء عبد الله بن هاشم بن مالك الخزاعي :

---

[1] ديوانه : ١٤٤/٤
[2] السابق : ٤٣/٤.
[3] ديوانه :١٠٧/٤، ١٠٨.

لَنِمْنَا وصرفُ الدهرِ ليس بنائمِ   حَزمنا له قسْـرا بغـــيرِ خـزائمِ
ألستَ ترى ساعاته واقتسامَـــها   نـــفوسَ بــني الدنيا اقــتسامَ الغنائمِ
ليالٍ إذا أنحت عليك عــيونُـــها   أرتْــك اعــتبارا فــي عيونِ الأراقمِ
شرقنا بــذمِّ الدهر يا سلْمُ إنه   يسيءُ فمـــا يألـــو ولــيس بظـــالـمِ

والبيت الأخير يعلن عن مذهبه في ذم الدهر.ويقول فيها في المرثيّ:

رأى الدهرَ منه عثرةً ما أقالَها   وهل حازم يأوي لعثرة حَازِمِ ؟![1]

ويقول في مطلع رثاء حجوة بن محمد الأزدي :

يا دهرُ قدك وقلماً يغْني قَدِي   وأراكَ عِشْرَ[2] الظمأِ مُرَّ المَوْرِدِ
ولقد أحيطَ بنا ولم نكُ صورة   بــكَ واستُعِــــدَّ لنَا ولمّا نولدِ
يا دهــرُ أيـــة زهرة للمجدِ لم   تجففْ وأية أيكــــة لم تخضدِ
أترعْتَ للعــنقاءِ في أشْعَـافِها   كأسا تدفّقُ بالزعافِ الأســودِ[3]

وهو يقول: إن الدهر به ظمأ إلى حياة الأحيــاء، يــوردهم مُــرّ الموارد، ويزعم أن الدهر أحاط بالأحياء وهم بعد نطف في الأصــلاب لم تمْنَ، وصور في الأرحام لم تخلَّق، وأنه لم ير زهرة مجد إلا جففهــا، ولا أيكة عيش إلا صوّحَها، حتى إنه سقى العنقاء في شَــعْفها-أي فــي

---

[1] ديوانه :١٢٩/٤، ١٣١.

[2] قال الصولي: "العِشْر: أبعد الإظماء، ضربه مثلا لشدة الدهر" ٦٠/٤.

[3] ديوانه :٦٠/٤.

مكانها العالي- كأسَ الموت الزعاف. وفسرت[1] العنقاء هنا بأنها التي يقال لها: عنقاء مُغْرِب،- وهي من المستحيلات-، أو العقاب المعروفة، والمعنى الثاني أقرب؛ لقوله في شَعَفِهَا.

وأبو تمام لم يقل في هذا المقام مقامِ الرثاء إلا ما قاله الشعراء قبله وبعده، من: أن الموت نقَّاد نقّاب، وأنه كلِف بذوي النباهة وأولي الأحساب، وأنه يكتال الأرواح بغير حساب، ويقتسم الأعمار اقتسام الغنائم، وأنه يقود الأحياء بخزائمه ، كما تقاد الفحول الصُّعب، ويجرعهم كأس الموت صرفا، وأنه لا يستمع إلى عتب عاتب، ولا يرحم ضراعة مسترحم، وأن اللوم لا يزيده إلا غراما، والعتبَ لا يورثه إلا إقداما، وأنه يمنع خيره ولا يقصر شره، إلى آخر هذه المعاني التي ترجع إلى جذر واحد، هو: نفاذ الدهر -بزعمهم- في فعله، وطلاقته فيما أراده ، وهو إيقاع الضر بالأحياء.

والمعنى الذي يوشك أن يكون من خاص معاني أبي تمام في سياق الرثاء ، هو قوله : إنه كان يستظل بظل المرثي -وهو حي- من الدهر ، ويلوذ به منه ، فلما مات خلا به الدهر ، واحتشد لضره ، وهو يكرر هذا المعنى كثيرا في الرثاء والمدح أيضا كما سترى . وأبو تمام شاعر مادح متكسب ، يتجر بالشعر ، فهو لهذا لا يمدح إلا بعطاء ، ولا يرثي إلا من نالته نعمته ، وهو لايخفي هذا من نفسه ، يقول في التعريض بإسحاق بن إبراهيم المصعبي :

ومحجبٍ حاولته فوجدته   نجْمًا على الركبِ العفاةِ شَسُوعَا

---

[1] من شرح التبريزي للبيت.

وأبو تمام الذي اشتكى الدهر فأكثر، وتوجع فأطال التوجع، لموت من مات من ممدوحيه، الذين استظل بظلهم، وعاش من ثمرات أيديهم،= كان ربما أظهر الجلد والتماسك لموت من مات من أهله جملة، يقول في رثاء ابنه محمدا :

لا يشمتِ الأعداءُ بالموتِ إننا سنُخْلي لهم من عرْصَة الموتِ موردَا
ولا تحسبَنَّ الموتَ عارا فإننا رأينا المنايا قد أصبنَ محمدا
ولا يحسبِ الأعداءُ أن مصيبتي أكلَّتْ لهم مني لسانًا ولا يدا
تتابعَ في عام بَنِيَّ وإخوتي فأصبحتُ إن لم يخلفِ اللهُ واحدا[2]

فلا يظهر هنا من الجزع، ولوم الدهر مثل ما أظهر هناك، وقد يبدو هذا غريبا في الظاهر؛ لأن موجب الحزن والشكوى هنا أعظم من موجبه هناك، ولكنك إن تأملت وجدت أن أبا تمام قد أصاب حق المعنى في الموضعين؛ لأنه إن اشتكى في الأولى اشتكى ضيق عيشه، وهذا موضعه، وإن اشتكى في الثانية فكأنما اشتكى ربه، وأظهر الضعف من نفسه ، وهو مما لا يقدم عليه العاقل، والشعراء في هذا المقام، لا يكادون يخرجون عادة عن التفجع والتلدد، أو التماسك والتصبر ، ويظهرون الجلد . وموت بنيه وإخوته في عام واحد، وبقائه فردا، مع وجود الأعداء والشامتين، مما يوجب التجلد للأعداء والشامتين، كما فعل أبو ذؤيب الهذلي في عينيته الذائعة، لتشابه التجربتين، وتماثل المصابين، وما أرى أبا تمام في هذا إلا متأثرا بأبي ذؤيب.

---

[1] ديوانه :٤/٣٩١.

[2] ديوانه :٤/٦٤.

هذا .وموت بنيه وإخوته في عام واحد، لايكون إلا من وباء، أو سيل، أو زلزلة، أو حرب أو نحوها، وهو سبب يضاف إلى جملة الأسباب، التي دفعت أبا تمام إلى الشكوى، وقد تتبعناها في الفصل السابق.

وأبوتمام لا يفتأ يذكر الدهر وفعله في مدائحه، والمعنى الذي لا تكاد تخلو منه قصيدة من مدائحه، هو أن الممدوح يجير على الدهر، وأنه قريع الدهر إذا عتا، وراده إذا طغى، يلوي بأحداث الزمان انتقامه ، ويخيف فؤادَ الزمان بطشُه، وأن أبا تمام يصول به -أي بالممدوح- على الدهر، ويرامي به الزمان، قال من قصيدة في مدح أبي سعيد محمد ابن يوسف الثغري:

كثُرتْ خطايا الدهر فيَّ وقد يُرَى ... بنداكَ وهو إليَّ منها تائبُ
وتتابعَتْ أيامُه وشهورُه ... عُصَبا يُغِرن كأنهن مقانِبُ[1]

ويقول لأبي سعيد أيضا:

هذا محمدُ الذي لم أنتصِفْ ... إلا بهِ من نائباتِ زماني
لأودعنَّكَ ثم تدمعُ مقلتِي ... إن الدموعَ هي الوداعُ الثاني[2]

وقوله: "إن الدموع هي الوداع الثاني"،من بديعه الفائق. وكان أبو تمام قد أينعت أيامه عند أبي سعيد الثغري، وأزهرت أمانيه، وسالمه الدهر بعد

---

[1] ديوانه : ١/١٨٣..
[2] ديوانه : ٣/٣٤٠.

طول مدافعة؛ ولهذا لما خرج أبو سعيد من عمورية قاصدا مكة، قال أبو تمام:

سلني عن الدينِ والدنيا أجبكَ وعن أبي سعيد وفقديه فلا تسل
من كان حلْيَ الأماني قبل ظعنته فصرتُ مذ سار ذا أمنيَّة عُطُلِ[1]

وهو يكرر هذا المعنى، وإن اختلف اللفظ في قوله لمحمد بن عبد الملك الزيات:

بمحمد صار الزمان محمّدا عندي وأعتبَ بعدَ سوءِ فعَالِهِ[2]

وقال في مدح أبي نصر سليمان بن نصر :

أنا في ذمةِ الكريم سليما نَ السليم الهوَى الشريفِ الهمامِ
نطتُ همّي منه بهمةِ قرمٍ ثقُلتْ وطأتي علَى الأيامِ[3]

وقال في مدح حبيش بن المعافى قاضي نصيبين ورأس عين:

أبا الليثِ لولا أنتَ لانصرمَ الندَى وأدركتِ الأحداثُ ما قد تمنتِ
أخافَ فؤادَ الدهر بطشُكَ فانطوَت علَى رَغَبٍ أحشاؤه وأجَنَّتِ

ويقول له قبل هذين البيتين :

ويلوِي بأحداثِ الزمانِ انتقامُه إذا ما خطوبُ الدهر بالناسِ ألوتِ

---

[1] ديوانه : ٨٨/٣.
[2] السابق : ٣١/٣.
[3] ديوانه :٢١٠/٣.

ويقول له بعدهما :

وإن أزَمَاتُ الدهرِ حلّت بمعشرٍ   أرَقْتَ دماء المَحْلِ فيها فطُلَّتِ[1]

ويقول من مدحة في أبي العباس نصر بن منصور بن بسام:

رأيتُ الليالِي قد تغيرَ عهدُها   فلما تراءى لِي رجَعْنَ إلىَ العهدِ

وقبله:

ألا لا يمد الدهرُ كفا بسيِء   إلى مجتدِي نصرٍ فتقْطَع من الزنْدِ[2]

ويقول من مدحة في أبي الحسين بن شُبانة :

إن شئتَ أن يسود ظنّك كله   فاجعَلْه في هذَا السوادِ الأعظمِ
ولتعلمِ الأيـــام أنـــي فتّـــها   بـــأبِي الحسينِ محمدِ بنِ الهيثمِ[3]

وقال من مدحة في محمد بن حسان الضبي:

إساءةَ الحادثاتِ استبطني نـــفَقا   فقد أظلّكِ إحسانُ ابـــن حـــسانِ
أمسكتُ منه بود شد لي عـــقَدا   كأنما الدهرُ في كَفـــي بها عـــانِي
إذا نوَى الدهرُ أن يودِي بتـــالده   لـــم يستعِن غيرَ كفيـــه بأعـــوانِ
لو أن إجماعَنا في فضلِ سؤدده   في الدينِ لم يختلفْ في الأمةِ اثنانِ!؟[4]

---

[1] ديوانه : ١/٣٠٩- ٣١٢.
[2] ديوانه :٢/٦٤- ٦٦.
[3] ديوانه :٣/٢٥٠.
[4] السابق : ٣/٣١٠، ٣١١.

وقال من قصيدة في مدح اسحاق بن إبراهيم:

مشتِ الخطوبُ القهقَرى لما رأَت   خببي إليكَ مؤكَّداً برسيمِ
فزِعَت إلى التوديع غيرَ لوابثٍ   لما فزِعتُ إليكَ بالتسليمِ
والدهر ألأمُ من شرقتَ بلومِهِ   إلا إذا أشرقتَهُ بكريمِ
ولقد نكونُ ولا كريمَ ننالُه   حتى نخوضَ إليه ألفَ لئيمِ
فسننتَ بالمعروف من أثر الندى   سنناً شفَتْ من دهرِنا المذمومِ
لا يأمَلُ المالُ النجاةَ إذا عدا   صرفُ الزمانِ فجاءه بعديمِ
قل للخطوبِ إليكِ عني إنني   جارٌ لإسحاقَ بنِ إبراهيمِ.[1]

فانظر كم مرة ذكر الدهر في هذه الأبيات، وهي من قصيدة واحدة. وهو يقول لإسحاق هذا من قصيدة أخرى:

كفاني من حوادثِ كل دهرٍ   بإسحاقَ بن إبراهيم جارا
سيكفيني الحوادثَ مصعبيٌّ   كأنَّ جبينَه قمَرٌ أنارا[2]

وهذا المعنى كثير الورود في مدائحه جداً[3]، وفيما أوردته كفاية.

وأبو تمام قلَّ أن يصرح في شيء من شعره الذي مدح به ، بأنه سيرمي الزمان بنفسه، أو سيلقاه فردا ، والأكثر أن يقول: إنه يرمي الدهر بممدوحيه، ويستجير من جوره وحره بظلهم، ويلوذ بكنفهم. وكان ربما قال لبعض ممدوحيه: إنه ممتنع عن مدح غيرهم بعدهم، تارك قصد سواهم إذا رحل عنهم ، كما قال لأبي سعيد الثغري:

---

[1] نفسه: ٣/٢٦٧، ٢٦٨.

[2] ديوانه : ٢/ ٢١٩.

[3] انظر : ديوانه :٢/٧٣، ٧٥، ١٠٨.

وأصومُ بعدَك عن سواكَ وأغتَدي   متقلدا صومَين في رمضَانِ[1]

ولكنه لا يفعل هذا أبدا . بل هو أبدا قرينُ ممدوح واهب ، ولصيقُ مانح معْط ، فإذا قلى ممدوحا قصد غيره، وإذا استبطأ واهبا ا أمَّ سـواه. ولا تلتفت إلى قوله: " وأصوم بعدك عن سواك"؛ فإنه مـن كـلام الشـعر، وحديث المدح، لا من عقائد النفس.وكأني بتجربة أبي تمام في مصـر ، و ما لقيه فيها من إخفاق في صباه، = قد علمته أنه ليس بقـادر علـى ملاقاة الدهر وحده، ومنازلة الزمان بغير عون، وأنه لا غنى لـه عـن سيد ممدوح ، يستظل بظله، وكريم واهب يستجير به مـن الـدهر، ثـم استقر هذا المعنى في نفسه، ووقَر في قلبه، فصار من أصـول معـاني النفس، ثم ألح عليه في شعره، وكرره كثيرا؛ فصار من معاني الشـعر، بعد أن كان من معاني النفس .

وهكذا صارت شكوى الدهر من مداخل أبي تمام إلـى المـدح .على أنك إذا تأملتَ، علمتَ أن أبا تمـام كـان يرمـي الـدهر بنفسـه وبموهبته، حين يرميه بممدوحيه وبعطاياهم؛ لأنه يجود لهم من شـعره وعبقريته، بمثل الذي يجودون له به، من أموالهم وعطاياهم، أو أكثـر. وهو يدع الإفصاح عن هذا حين يمدحهم تقية، احتيالا منه لنيل عطاياهم ، واستخراج منحهم، وفض مغاليق أيديهم . فـإذا أبطـؤوا عليـه، أو ضنوا، فعاتبهم أو هجاهم أفصح عن هذا المعنى أشد إفصاح. يقول في بعض معاتباته لعياش :

عامٌ ولم ينتج نداك وإنما   تتوقعُ الحبلَى لتسعةِ أشهرِ

---

[1] لسابق : ٣/٣٤٠.

كم من كثيرِ البذلِ قد جازيتَه شكرا بأطيبَ من نداه وأكثرِ

شر الأوائلِ والأواخرِ ذمـــةً لم تصطَنَع وصنيعَة لم تشْكَرِ[1]

وهو يذكر الدهر وفعله في معاتبات ممدوحيه كما يذكره في مدائحه لهم، يقول في معاتبة محمد بن سعيد ، كاتب الحسن بن سهل:

إن الزمانَ انثنَى عنـــي بغُـــمَّته وصدرُ حسرتِه يغلي ويضطَرِمُ

مازال يخضَع إذ أورقتَ لي عِدَة فكيفَ يصنَع لو قد أثمرَت"نعم"

فأيقظ الفعلَ يقض القولُ نومتَـــه وقد حكَى سوءُ ظن أن ذا حُلم

ولا تقلْ قِدَم أزرَى بحاجــَـــــتِه ليس العُلا طللا يزري به القِدَمُ[2]

وقال في عتاب أبي سعيد يوسف بن محمد بن يوسف :

فلئن شطتِ الديارُ وغال الــــــد هـرُ فــي الـسفِ وفــي مــألــوفِ

وتبدلتَ بالبـشـــاشـــة حزنـــا بعد لهْـوي فــي مــربع ومصيفِ

فعزائي بــأن عرضِي مصـــون سائــغ الــوردِ والسمـــاحَ حــليفي

ثم علــمِي علـــى حداثةِ ســـني بصــــروفِ الــدهــورِ والتصريفِ

راكبٌ للأمورِ فــي حلبة الأيـــا م للمــنجيــاتِ أو لـلــحــتــوفِ

أنا ذو منطقٍ شريــفٍ لإعــطاءٍ وذو منــطــقٍ لمـــنــع عــفــيفِ

ما أبــالي إذا عنــــتْك أمـــورِي كيــفَ أنحَــتْ علـــَي أيــْـدي الصروفِ[3].

وهذا عتاب ممزوج بالفخر ، أو فخر في سياق عتاب .

---

[1] ديوانه :٤/٤٥٠.

[2] السابق :٤/٤٩١.

[3] ديوانه :٤/٤٧٧، ٤٧٨.

وذِكْر أبي تمام الدهر في سياق : المــدح، والعتــاب والهجــاء، والفخر، والرثاء يرجع إلى أصل واحد، وذلك أنه يجعل ذكــر الــدهر وفعلِه في المدائح من مداخله إلى المدح، ومن حيله في استخراج مـــال الممدوح كما عرفت، فإذا أستبطأ ممدوحه فعاتبه، أو حرمه ممدوحــه فهجاه أو فاته عطاؤه بموته فرثاه= اشتكى الدهرَ، فكانت شــكواه مــن جملة مادة عتابه، وهجائه، ورثائه، فكان ذمة الدهر حيئذ ذما لمن أبطــأ عليه من ممدوحيه، أو لمن حرمه العطاء منهم ، وأسى على ما فاته من العطاء بموت من مات من ممدوحيه. أما فخره فصولة منه على الدهر، ولكنها صولة المغضَب لا صولة الظفر .

وهو يذكر الدهر وفعله أيضا في سياق الغزل، يقول في مطلــع مدحة في محمد بن حسان لضبي:

ما اليومُ أول توديعِي ولا الثانِي   البينُ أكثرُ من شوقِي وأحزانِي
دعِ الفراقَ فإن الدهــرَ ساعَــده   فصَار أملكَ من روحِي بجثمَانِي[1]

ويذكر الدهر كثيرا في سياق ذكر المنازل والأطلال، من مثــل قوله في مقدمة قصيدة مدح بها مالك ابن طوق :

قسَمَ الزمانُ ربوعَها بين الصَّبا   وقبولِها ودبورِها أثلاثا[2]

---

[1] ديوانه :٣٠٨/٣.
[2] نفسه :٣٣/١.

أي أن الزمان –وهو الدهر– قد جعل ربوع الأطلال قسمة بين الصَّبا والقبول والدبور. وعيب عليه أن: الصَّبا هي القبول. وقال المحتج لـه: إن القبول ريح بين الصَّبا وبين الجنوب، وهو قول النضر بن شميل[1].

وقال في مقدمة مدحة في أبي سعيد الثغري :

يا منزلا أعطىِ الحوادثَ حكمها   لا مطل في عدة ولا تسويفا..
وهي الحوادث لم تزل نكباتها   يـألفـنَ ربعَ المنزلِ المألوفا
خلقت بعقوتِك السنونَ وربمـا   كانت بناتُ الدهر عنكَ خلوفا[2]

والحوادث هنا هي بنات الدهر ومصائبه، وقد صرح به في البيت الثالث.وقال في مطلع قصيدة ، يمدح فيها أبا المغيث الرافقي ، ويعتذر إليه :

شهدتُ لقد أقوت مغانيكم بعدي   ومحّت كما محّت وشائع من برد[3]
وكم أحرَزَت منكم على قبحِ قدِّها   صروفُ النوى من مرهفٍ حَسَن القدِّ

وفسر التبريزي صروف النوى هنا بأنها : صروف الدهر قال: "أي كم فرق بيني وبين حبائب لي صروف الدهر".ويقول في مطلع مدحة في إسحاق بن إبراهيم – وكان من قواد المعتصم، وهو الذي أوقع بالمحمّرة أصحاب بابك الخرمي– :

يا ربعُ لو ربَعوا على ابنِ همومِ   مستسلِمٍ لجَوَى الفراقِ سقيمِ

---

[1] من شرح التبريزي للبيت .

[2] السابق :٣٧٦/٢، ٣٧٨.

[3] محّت : أخلقت . والوشائع خيوط الثوب التي يلحم بها السُّدى . من شرح التبريزي للبيت .

أيــامَ للأيــامِ فــيــكَ غضَــارةٌ   والدهرُ فيَّ وفيكَ غيرُ مُليمِ[1]

فللدهر فعل في الربع ، كما له فعل في أبي تمام . ويقــول فــي مقدمــة هجائه الجَلودي حين هُزم :

دَار كأن يدَ الزمانِ بأنــــ   واع البِلَى نشَرَتْ بَها كُتُباَ
أينَ الألَى كانوا بعقْوتــِها   والدهرُ يسكبُ ماءَه سَكْباَ[2].

وقال في غلام له خان وصله:

تبدلتُ إلفا إذ تبدلتَ بي إلفا   وقد خانَني فيكَ الزمانُ وما أوْفَى[3]

فهو يقول في هذا الشعر وما أشبهه: إن الدهر عون للفراق على المحبين ، يُبدد ألفتهم، ويقطع موداتهم، وإنه يغير ديار الأحبة ، ويطمس معالمها، ويذهب بجدتها، وإنه يخون المحبين فيمن يحبون، إما بالهجر والصد، أو بالشيب والموت.

وكثيرا ما يجعل أبو تمام حديثه عن الــدهر مقدمــة لقصــيدته، فيضع المقدمة الدهرية في موضع المقدمة الغزلية كالأمثلــة الســابقة ، ومنه قوله في مطلع مدحة في أبي سعيد الثغري[4]:

ما لِي بعاديةِ الأيامِ مــن قِبَــلِ   لم يَثْنِ كيدَ النوَى كيدِي ولا حِيَلِي

---

[1] ديوانه :٣/٢٦١.
[2] ديوانه : ٤/٣٢٠.
[3] ديوانه :٤/٢٣٨.
[4] ديوانه : ٣/٨٨.

قد قلقلَ الدمعَ دهرٌ من خلائقهِ   طولُ الفراقِ ولا طولٌ من الأَجَلِ

ونقل التبريزي عن الصولي في معنى البيت الثاني : " يقول من خلائق الدهر الفراق، لا طول العمر "[1].ويقول في مطلع قصيدة في مدح مالك ابن طوق :

لو أن دهرا ردَّ رجعَ جوَابِ   أو كفَّ من شأويَهِ طولُ عتابِ
لعذلتُه في دمنتيَنِ بأمُـرَةٍ   مـمحَـوَتين لزيـنَب وربـابِ

قال التبريزي: "وجعل للدهر شأوين، كأنه يفعل الشيء وضده كالسرور والحزن، والغنى والفقر"[2]. وحق أبي تمام أن يُذكر إذا ذكرت المقدمة الدهرية ، كما يذكر أبو نواس إذا ذكرت المقدمة الخمرية.

وأبو تمام – مع هذا– مسبوق إلى هذه المعاني جميعا ببعض من تقدمه من الشعراء، وقد ذكرت في الفصل الأول أن الشعراء في الجاهلية وما بعدها قد قالوا: إن الدهر يخلي ديار الأحبة من ساكنيها، ويفرغها من قاطنيها،وأوردت أمثلة من شعر النابغة، وعبيد بن الأبرص[3]. وربما قال بعض الشعراء إن الرياح هي التي غيرت ديار الأحبة، لا الدهر، ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

---

[1] من شرح التبريزي في الموضع السابق .

[2] الشعر والشرح في ديوانه : ١/٨٠. وقال أبو العلاء : " بأمرة كأنه اسم وضع ، ويروى برامة ورامة أكثر ترددا في الشعر ، ومن روى : بأمره فله معنى صحيح وتكون الهاء عائدةعلى الدهر ، كأنه يجعل للدهر أمرا مقبولا وهو أحسن من الوجه الأول ، وهذا كله مستعار " ١/٨١..

[3] انظر هذا البحث :٣٤ وما بعدها

عشَيـتْ الديارَ بالبقيع فثهمدِ   دوارس قد أقوينَ من أم معبَدِ
أريَت بها الأرواحُ كلَ عشيةٍ   فلـم يبقَ إلا آل خيم منضد[1].

ولأبي تمام في زهدياته معان تخالف عمود مذهبه فيما سـواها من الشعر، حتى ليقوم في النفس أن قائل هذه الأشعار غير قائـل تلـك، فهو يذهب فيها مذهب القناعة والرضا باليسير، والتماسك أمام الـدهر، وترك الشكوى منه، ومن ذلك قوله:

أللعُمْر في الدنيـا تُـجِد وتتعـب   وأنت غدا فيها تموتُ وتقبرُ
تلقحُ آمـالا وتـرجُـو نـتاجَـها   وعمرُك مما قد ترجيهِ أقصرُ
وهذا صبـاحُ اليوم ينعاك ضـوؤه   وليلته تنعاك إن كـنتَ تشعُرُ
تحومُ على إدراكِ مـا قـد كفيتَه   وتقبـلُ بالآمـالِ فيـه وتدبرُ
ورزقك لا يعـدُوك إمـا معَجَّـلٌ   على حالةٍ يوما وإمـا مؤخَّـرُ
ولا حولَ مـحتالٍ ولا وجهُ مذهبٍ   ولا قـدرٌ يزجـيه إلا المقـدرُ
لقد قدر الأرزاقَ مـن ليس عادلا   عن العدلِ بين الناسِ فيما يقدرُ[2]

فهذا كلام لايشبه مذهبه فيما ذكرناه في أشعاره الدهريه، وهـو فيه أشبه بأبي العتاهية وغيره من شعراء الزهد .وتفسير هذا أن الزهـد عند أمثال أبي تمام حالة عارضة طارئة، لا حالة غالبة علـى الـنفس، متمكنة منها ، فإذا عرضت هذه الحالة من الزهـد للشـاعر لموجـب أوجبنه أعلنت عن نفسها في مواقف من حياته ، ومواضع من شـعره ، ثم يغلبه طمعه وطول أمله، فيعود إلى أصل مذهبه، وهذا ما وقع لأبـي تمام .

---

[1] ديوانه :٢١٩.

[2] ديوانه :٥٩٤/٤. وانظر قصيدة أخرى : ٦٠٠/٤.

فقد عرفت الآن أن أبا تمام توسع في ذكر الدهر ، وأورده في سياقات لم تجرِ عادة الشعراء قبله في أن يوردوه فيها ، ولذا قلت : إن شكوى الدهر لا تكاد تفارقه في سائر أغراضَ شعره.

*****

دهرية أبي تمام :

إذا أنت أعدت النظر في كثير مما قاله أبو تمام في الدهر ، وجدته مما يوهم ظاهره أن أبا تمام ممن يقول بالدهر الفاعل من الشعراء ، معتقدا لذلك ، لأنه نسب الفعل إلى الدهر كثيرا، وادعى أنه ظالم في فعله، جائر في قسمته، وقد مر بك مثلاً قوله:

فلو ذهبَتْ سناتُ الدهرِ عنهُ   وأَلْقَى عن مناكبهِ الدثَارُ
لعـدلَ قسمَـةِ الأرزاقِ فينَا   ولكـن دهرُنَا هذَا حِمَارُ

فهو يزعم هنا أن الدهر جائر في حكمه ، غافل عن الأخذ بالعدل، وأنه يقسم الأرزاق فيجور في قسمته. وتشبيهه الدهر بالحمار، أراه مأخوذا من قول الله تعالى في اليهود، الذين حُمّلوا التوراة حمل أسفار وأوراق ، ثم لم يحملوها حمل فهم وعمل: "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، كمثل الحمار يحمل أسفارا"[1]؛ لأن هذا هو المناسب لما وصَفَ به الدهر من الغفلة . وقول أبي تمام :إن الدهر يقسم الأرزاق فلا يعدل في القسمة، مما لا يقول به مسلم صحيح الإسلام. أفيصح من أجل هذا

[1] الجمعة : آية :٥.

وشبهه أن ينسب أبو تمام إلى دهرية الاعتقاد ، ويلحق بالشعراء الـذين وسموا بالإلحاد والزندقة ؟

ومعلوم أنه كان في العرب دهريتان[1] : دهرية في الجاهليـة، ودهرية في الإسلام : فقد كان في الجاهلية الأولى وفي ابتداء الإسـلام قوم كفار يقولون بالدهر، وينفون الصانع، وهو الله تعالى، فيعبدون غير خالقهم، ويطلبون الرزق من عند غير رازقهـم، و بعـض مـن دان لله منهم، و اعتقد أنه هو الرازق المُخلِف، زعم أن الدهر هـو المهلـك المتلف ، فنسب إلى الدهر فعلا هو لله أيضا قال أعرابي: "الله مخلف ما أتلف الناس، والدهر متلف ما جمعوا"[2].

وقد جاء الإسلام – كما علمت [3]– بالنهي عن سب الـدهر، و قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الدهر فإن الله هو الـدهر". و فسر ابن قتيبة – رحمه الله تعالى – هذا الحديث، فقال: "قالوا: رويـتم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر"، فوافقتم في هذه الرواية الدهرية.قال أبو محمد: ونحن نقول: إن العـرب في الجاهلية كانت تقول: "أصابني الدهر في مالي بكذا"، و"نالتني قوارع الدهر وبوائقه ومصائبه".ويقول الهَرِم: "حناني الـدهر"، فينسـبون كـل شيء، تجري به أقدار الله عز وجل عليهم، من موت، أو سقم، أو ثكـل، أو هرَم إلى الدهر.

---

[1] أمالي المرتضى ١/١٢٧، ١٢٨ وما بعدهما .

[2] العقد الفريد : ١/٥٢.

[3] انظر هذا البحث :٤١ وما بعدها

ويقولون : لعن الله هذا الدهر، ويسمونه المنون؛ لأنه جالب المنون عليهم عندهم ... ، وقد حكى الله عن أهل الجاهلية ما كانوا عليه من نسبة أقدار الله عز وجل، وأفعاله إلى الدهر، فقال : وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون "فقال رسول الله صلى اله عليه وسلم : لا تسبوا الدهر إذا أصابتكم المصائب ، ولا تنسبوها إليه ، فإن الله عز وجل هو الذي أصابكم بذلك ، لا الدهر ، فإذا سببتم الفاعل وقع السب بالله عز وجل ...

ألا ترى أن الرجل منهم إذا أصابته نائبة أو جائحة ، في مال أو ولد ، أو بدن ، فسب فاعل ذالك به،- وهو ينوي الدهر - أن المسبوب هو الله عز وجل .. وكذلك الدهر تكون فيه المصائب والنوازل ، وهي بأقدار الله عز وجل فيسب الناس الدهر ؛ لكون تلك المصائب والنوازل فيه، وليس له صنع ، فيقول قائل: "لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر"[1]. وقد نقل الشريف المرتضى هذا الرأي في أماليه، ولم ينسبه إلى ابن قتيبة [2] و كنت قد ابتدأت الحديث في هذه النقطة في موضع سبق، وهذا تمام الحديث فيها.

وقد نشأ في الإسلام بعذ أيضا دهريون، يقولون بمثل ما قال به الدهريون الأول ، أو قريبا مما قالوا، وقد أداهم إلى هذا طول الجدل المفضي إلى الزيغ في العقائد، و ما نقل من عقائد وثنية من تراث الفرس وغيرهم .وقد وصف الشريف المرتضى حال هؤلاء، في فصل

---

[1] تأويل مختلف الحديث :٢٠٧-٢٠٩.

[2] أمالي المرتضى : ٤٥/١.

جامع عقده عن الدهريين من الشعراء، فقال: إنهم تستروا بإظهار الإسلام، وأدخلوا أنفسهم في جملة أهله؛ ليحفظوا دماءهم وأموالهم، وإنما منعهم من إظهار ما يعتقدونه من الزندقة والإلحاد عز الإسلام وأهله، ومخافة حد السيف.وذكر من هؤلاء نفرا من الشعراء، منهم : عبد الكريم بن أبي العوجاء، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، والحمادون الثلاثة!!: حماد الراوية، وحماد بن الزبرقان، وحماد عجرد، وعبد الله ابن المقفع، وبشار بن برد، ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد الحارثي، وصالح بن عبد القدوس، وعلي بن خليل الشيباني، وغيرهم، ولم يذكر أبا تمام في جملتهم[1].

وفي أخبار أبي تمام وأشعاره أشياء، إن صحت روايتها، وحُملت على ظاهرها دلت على أنه لم يكن صحيح الدين ، ولا ثبت اليقين ، وربما سلكته في زمرة الدهريين من الشعراء .وبهذه الأشعار والأخبار نسبه قوم إلى الكفر !! في زمانه، وبعد زمانه : قال الصولي:" وقد ادعى قوم عليه الكفر، بل حققوه، وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره، وتقبيح حسنه، وما ظننت أن كفرا ينقص من شعر، ولا أن إيمانا يزيد فيه. وكيف يحقق هذا على مثله، من لم يشاهده، ولم يسمع منه، ولا سمع قول من يوثق به فيه؟. وفي بقية كلام الصولي، ما يدل على أن أبا تمام كان يلعن في المجالس!![2]"، وهذا يدلك على رأي بعض معاصريه فيه، وما كان يقال في معتقده .

---

[1] السابق والصفحة .

[2] أخبار أبي تمام :١٧٢، ١٧٣.

وأبو العلاء المعري على تبحره في الرواية، وتثبته من الأخبار = ممن يتشكك في دين أبي تمام: يقول: "وأما أبو تمام، فما أمسك من الدين بزمام ....، فإن قذف في النار حبيب، فما تغني المِدَح ولا التشبيب..، وإن كان حبيب ضيع صلواته، فإنه لضال بفلواته،لا يبلغ فيه كيدُ عداة ما بلغ إهمال غَدَاة.."[1].

فالقول بكفر أبي تمام كان كما ترى ادعاء من قوم، وتحقيقا من آخرين ، وقد رأيتَ أن الصول يشكك في تحقيق الكفر عليه، ولكنه لا ينفي أصل الدعوى، وأبو العلاء، في كلامه السابق لا يقطع بكفر أبي تمام ، بدليل قوله: "فإن قذف في النار حبيب إلخ"، فاستخدم "إن" وموضعها موضع الشك وقال بعدها: "وإني لأضَنُّ بتلك الأوصال – يعني أوصال أبي تمام– أن يظل جسدها، وهو بالمُوقدة صال؛ لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ متَّبعة، يستخرجها من غامض بحار، ويفض عنها المستغلق من المحار"[2]. وقوله: "ما أمسك من الدين بزمام"، أكثر ما يفهم منه، أنه يرى أن أبا تمام لم يكن راسخ الدين، ولا بريئا من الزيغ ..

والمسعودي يعده في الخلعاء المجناء ، ولا يعده ممن اعتقد الكفر، يقول : " وكان خليعا ماجنا في بعض أحواله ، وربما أداه ذلك إلى ترك بعض موجبات فرضه ، تماجنا لا اعتقادا "[3] وقد عول أبو العلاء وغيره ممن طعن على عقيدة أبي تمام،= على أشياء من أخباره

---

[1] رسالة لغفران :٤٨٣-٤٨٧.

[2] السابق : ٤٨٨.

[3] مروج الذهب : ٦٨/٤.

واشعاره منها: ما روي عن الحسن بن رجاء قال: "جاءني ابو تمام إلى خراسان، فبلغني أنه لا يصلي، فوكلت به من لازمه أياما ، فلم أره صلى يوما واحدا !! فعاتبته فقال: "يا مولاي قطعت إلى حضرتك من بغداد ، فاحتملت المشقة وبعد الشقة، ولم أره يثقل علي، فلو كنت أعلم أن الصلاة تنفعني ، وتركها يضرني ما تركتها- ورواية المسعودي: "لو كنت أعلم أن لمن صلاها ثوابا، أو على من تركها عقابا!!"- ، فأردت قتله فخشيت أن يُحمل على غير هذا[1]".

وإذا أنت تأملت هذه الرواية وجدت أثر الصنعة والكذب باديين عليها . فكيف عرف الحسن أن أبا تمام لا يصلي من أول ما جاءه؟، ولم وكّل به من ينظر إلى صلاته؟، وهل كان يوكل بكل من قصده من ينظر إلى صلاته؟، وهلا قدر ابن رجاء أن أبا تمام يصلي بحيث لا يراه من وكّل به؟. وكيف يخفي على من كان في فطنة أبي تمام أن ممدوحه ممن يعطي على إقامة الصلوات، لا على جودة المديح، وأن تركه الصلاة سيحرمه من عطاء ممدوحه؟، فلو لم يكن ممن يصلي لله طاعة، لكان الرأي أن يصلي رياء، وحيلة، وكان أبو تمام -كما علمت- واسع الحيلة في استخراج مال ممدوحيه.

والحسن بن رجاء لم ير قتل أبي تمام ،- وقد أقر بجحد الصلاة بزعمه-، حتى لا يحمل قتله على غير ترك الصلاة جحدا، فماذا بعد ترك الصلاة جحدا، مما يوجب القتل؟!. إن الزيف في الأخبار لايخفى على البصير.

---

[1] أخبار أبي تمام : ١٧٢، ورسالة ابن القارح : ٤١. ومروج الذهب : ٦٩/٤.

وقد كان أبو تمام ماجنا مجترئا بلا ريب، ومن مجونه و جرأته قوله لأحمد بن أبي طاهر – وقد دخل عليه وهو يعمل شعرا، وبين يديه شعر أبي نواس ومسلم بن الوليد، فسأله عنهما فقال –:= "اللات والعزى، وأنا أعبدهما من دون الله مذ ثلاثين سنة " !! قال الصولي :"وهو لفظ قبيح إن كان قاله، ولكنه كلام مشغوف بالشعر، وليس يوجب كفرا[1] ".وقول الصولي: إن كان قاله يدل على تشككه في الرواية، والصولي من المنتصرين لأبي تمام ، ومن الثقاة أيضا .

ومن مجونه وجرأته أنه كان ربما ضمن شعره الآية من القرآن، في موضع لا يحسن تضمينها فيه، ومنه قوله في التغزل بغلام:

مِلْءُ عيني ملاحَةً وجمَالاً وفُؤادِي مهابَةً وجلالاَ

فاعذِلوا فيه كيفَ شئتُم وقولوا قد كَفَى اللهُ المؤمنِينَ القتَالاَ[2].

فليس هذا موضع التضمين بهذه الآية. وقد فعل هذا مرة أخرىعند عبد الله بن طاهر فقال له: " لا تعاود مثل هذا فإن القرآن أجل من أن يستعار شيء من ألفاظه للشعر"، ووجد عليه[3]، وقد أصاب ابن طاهر.

ومن مجونه وجرأته في شعره قوله في غلام:

والله لولاَ اللهُ لا غيره وخوفيَ النارَ علَى نفسي

صليتُ خمسا لكَ من هيبة وزدْتُ ثنتيْنِ علَى الخَمْسِ[4] !

---

[1] أخبار أبي تمام : ١٧٣.

[2] ديوانه :٤/٢٥٥.

[3] أخبار أبي تمام : ٢١١

[4] ديوانه : ٤/٢١٧.

وليس يشفع له في جرأته قوله: "لولا الله لا غيره.. إلخ "، فإن من اتقى الله ، وخاف النار حقا لا يتلفظ بمثل هذا .ويقول في هذه القصيدة :

هَا أَنا بالذنـوبِ معتـرفٌ فهَبْ لذلي جَنَايتيَّ أمسِ
وجد لمستمطر الجفونِ دَمًا شغلتَه عن صلاتِه الخمْسِ[1]

ويقول أيضا في قصيدة أخرى، في نعت غلام:

ليَ في تركيبه بِدَعٌ شغلت قلبِي عنِ السنَنِ[2]

فيزعم أن ولعه بذلك الغلام شغله عن صلواته الخمس، وحسن هذا الغلام شغل قلبه عن السنن. ولعل هذا القول وشبهه، هو الذي جعل الواقعين فيه يقولون: إنه يضيع فروضه وصلواته، لأنه أقر بهذا بلسانه، وأعان على نفسه.ويقول لغلام:

لبّاكَ عبدُك مخلصًا وبكَى دما عددَ الحَصَى[3]

وليس هذا موضع التلبية. ومن عرف طريقة أبي تمام عرف أنه ذكر التلبية ، من أجل ذكره الحصى في آخر البيت، ولعله جاء بالحصى في آخر البيت من أجل ذكر التلبية في أوله. وقال في آخر قصيدة وصف فيها حال الخلاعة والقصف:

فقضَيْنا منسَكَ اللهـ ـو وإن لمْ ننْوِ حَجًّا

---

[1] السابق : ٤/ ٢١٨.
[2] ديوانه :٤/٢٧٧.
[3] نفسه :٤/٢٢٨.

فجعل للهو منسكا!!، وإنما جعل ذلك من أجل ذكره لفظ الحج، أو جاء باللفظة الأخيرة من أجل الأولى .والعجيب أنه بدأ هذه القصيدة بنبرة أسى وحزن فقال:

اصبِري أيتُهَا النفـــسُ فإن الصبرَ أحجَى
نهنِهِي الحزنَ فإن الـــحزنَ إن لم ينه لَجا
والبسِي اليأسَ من النـــاسِ فإن اليـأسَ مَلْجَا
ربما خـابَ رجـاء وأتَـى ما لـيَس يُرجَى[1]

وكأني بأبي تمام قد اتخذ من الخلاعة والمجون دواء لأحزان نفسه، وشفاء لأسقام فؤاده.ومثل هذه الجرأة التي وجدتها في بعض شعر أبي تمام وأخباره موجودة في شعر كثير من الشعراء، في عصره وقبل عصره، فمن علم مذاهب الشعراء في كلامهم احتمل لهم هذه الجرأة، وتأولها لهم، ما لم تُشفع بما يقطع بكفر، ومن أخذ في محاسبة الشعر والشعراء بالتشدد ، وحمل أقوالهم على ظاهرها، ولم يتأول لهم وجد في هذه الجرأة ما يقدح في عقائدهم.

ومن أكبر ما جرّ قالة السوء على أبي تمام في معتقده،-غير ما قيل من أنه كان يضيع فروضه و صلواته= ولعُه بالغلمان، وله فيهم أخبار وأشعار، ربما ذكر فيها الفعل القبيح[2]. وكان الغلمان المرد، من الروم والخزر وغيرهم= من الفتن الكبرى، في دولة الإسلام، في زمان أبي تمام وقبله وبعده: فتنةِ قول، أو فتنةِ فعل، أو فتنةِ قول وفعل معا، ومما ينسب لأبي تمام – وليست في ديوانه-:

---

[1] ديوانه :٤/٥٠٤- ٥٠٦.

[2] أخبار أبي تمام : ١٩٤، ١٩٦، ١٩٨،١٩٩.

كمْ في بَنِي الرومِ من اعجوبةٍ عظمَـتْ وفي بنِي العرَبِ من ذي نجـدةٍ بطَـنِ
إنــا بأســيافِنا نعلــوا أكــابرَهم كسْــرا ويقتلنــا الولــدانُ بالمقَــلِ
إذا انصــرفنا بفَتــلٍ مــن ســرَاتهمَ نالوا التِّرَاتِ بلحـظِ الأعـينِ النجُـلِ[1]

وأبو تمام كان يزعم أن هذا وشبهه، إنما هو مـن رياضـة اللسان، والتعرض للشعر، والتماس دواعي القول، ومن طرف المجالس، وملح الأحاديث بين الإخوان، وليست من الفعل في شيء، تدل على هذا أخبار له مع الحسن بن وهب، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وغيرهما[2]، وهذا من خبيء الصدر الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فندع الخوض فيه.

وقد روي عن صالح غلام أبي تمام الذي كان ينشد شـعره :- أن أبا تمام دخل يوما على الحسن بن وهب، ومعه صالح هذا،-وكـان جميل الوجه-، وعند الحسن جارية ظريفة، فأغراها بأبي تمام، فقالت :

يا ابنَ أوسٍ أشبهتَ في الفسقِ أوسَا واتخذتَ الغلامَ إلْفاً وعِرْسَا

فأجابها أبو تمام بقوله :

أبرقْتِ لي إذ ليسَ لي بـرقُ فتزحزَحِي ما عندَنا عشـقُ
ما كنتُ أفسقُ والشبابُ أخي أفحينَ شبتُ يجوزُ لي الفسقُ
ليَ همةٌ عن ذاكَ تردعـُـنِي ومــركَبٌ مــا خانَــه عِرْقُ[3]

---

[1] الاستدراك : ١٠٢.
[2] أخبار أبي تمام : ١٩٤، ١٩٨، ١٩٩.
[3] السابق : ٢١٠.

وهو يحيل في تعففه هنا على الهمة العالية ، والاصل ، لا عنى الدين والخوف من الله . والدين كان الأولى أن يذكر هنا .وقول الجارية لأبي تمام:.. واتخذت الغلام إلفا وعرسا"، فيه الدليل على أن هذا مما كان يرميه به به الناس في زمانه، إن حقا وإن كذبا. وفي الخبر نفسه ما يدل على أن أمثال هذه الأخبار والأشعار كانت من ملح المجالس ، وأبو تمام يدفع عن نفسه التهمة هنا ويقول: إنه لم يفسق و عليه من الشباب ثوب قشيب، فهل يفسق بعدما لبس من المشيب ثوبا خلقا.

وأبو تمام–مع هذا– لم يدفع عن نفسه في بعض شعره أنه ابن خطايا، ومقترف ذنوب، ففي القصيدة التي وصف فيها حجته التي حجها، رأيتُه أطال في وصف ناقته، وفي وصف محمد الذي كان معه، –وأحسبه ابنه–، ثم قال:

طواهَا طيُّها المومَاةَ وخَدًا إلى أجبالِ مكةَ والحطيمِ
رمتْ خطواتُها ببَنِي خطايَا مواشِكَةً إلى رب كريمِ

ولعله قال: ببني خطايا، ولم يقل بأخي خطايا، أو بابن خطايا؛ لأنه كان في الركب معه من يشبه حاله حاله. وهو يقول في هذه القصية :

ولولاَ اللهُ يومَ منًى لأبدَت هواهَا كلُّ ذاتِ حَشًى هضيمِ
رمينْ أخَا اغترابٍ واكتئابٍ بعَينَيْ جُؤذَرٍ وبجيدِ ريمِ[1]

= فلا يدع الغزل وحديث النساء وهو في مقام الحج، وهو مسبوق في هذا بعمر بن أبي ربيعة وجرير والفرزدق وغيرهم، فليس أول من قاله.

---

[1] ديوانه : ٤/٤٣٤، ٤٣٥.

والذي تطمئن إليه النفس بعد كل ما تقدم: أن أبا تمام كان يـأتي في حياته وفي شعره، بما يدل ظاهره –إن حُمِل على الظاهر– على رقة الدين، وفساد الاعتقاد، وأنه كان يفعل ذلك تماجنا لا اعتقادا، كما قـال المسـعودي، و أن دهريتـه فـي شـعره دهريـةُ لسـان، لا دهريـة اعتقاد.وأبوتمام هو القائل: "إن داء المجون داء عياء "[1]. وأنه جرى فـي نسبة الفعل إلى الدهر ، فيما الله تعالى هو الفاعل فيه،= علـى مـذاهب الشعراء قبله.

الشعراء والدهر بعد مجيء الإسلام

هذا. والقول في دهرية أبي تمام ومعتقده يقتضي قولا موجزا في دهرية الشعراء في الإسلام ، ليعرف موضعه بينهم ، وشـبهه بهـم أو اختلافه عنهم . والقليل جدا ممن آمن من الشعراء و،عقل عن الله ، وأيقن بأنه المحيي والمميت ، =خالف ما كان عليه أهل الجاهلية من نسبة فعل الموت إلى الدهر ، ونسبوه إلى الله عز وجل ، فقـالوا : إن الموت قدر من قدر الله لا يرد ،من مثل قول السفاح بن بكيـر اليربوعي، في رثاء يحيى بن شداد ، –وأبو عبيدة ينسبها إلى رجل من بني قريع ،يرثي يحيى بن ميسرة ، صاحب مصعب بن الزبير– رضي الله عنه– ، الذي وفَى له حتى قتل معه: -

..قومٌ قضَى الله لهم أن دُعُوا   وردُّ أمرِ الله لا يُستَطَاعُ

وأول الأبيات:

---

[1] من قصيدة يهجو بها عبد الله الكاتب ويعرض بعبدون المباركي، وتمام البيت :

قل لعبدون أين ذاك الحياء . إن داء المجون داء عياء .

ديوانه : ٣٠١/٤.

صلَّى علَى يحْيَى وأشياعِه   رب كريمٌ وشفيعٌ مطَاع[1]

وهذا قليل فيما وجدتُ من الشعر بعد الإسلام. والأكثر أن يجعلوا للدهر فعلا ،على ما جرت به عادة من كان قبلهم من الشعراء في القول ، وعلى ما درجت عليه ألسنتهم منه ، وإن كانوا لا يقولون : إن الدهر يميتهم على الحقيقة ،كما قال الجاهليون ، فدهريتهم إذن دهرية شكوى ، لا دهرية إلحاد ، وإنكار معاد.

وقد كنت جمعتُ في أوراقي قدرا كبيرا من الأشعار والأقوال لشعراء،أو بلغاء في الإسلام لم يتَّهموا في عقائدهم ، ولم ينسبوا إلى زندقة أو زيغ ، وهم مع ذلك جَرَوا على ما كان عليه العرب قبل الإسلام من نسبة الموت إلى الدهر ، والقول إنه فاعله ، وكنت على أن أثبت ذلك كله في هذا الموضع ،ثم رأيت البحث يطول به ، ورأيت الإكتفاء ببعضه يقوم في الدلالة مقام إثبات جميعه.

فقد نسب الإمام الماوردي - رحمه الله - لابن دريد ، وقال أنشدته له :

النـاسُ مثلُ زمانِهم   قدَّ الحـذاءِ على مثَالِهْ

ورجالُ دهرِك مثلُ دهـرِك   في تقلبه وحَالِهْ

وكذا إذا فسَدَ الزما   نُ جرَى الفسادُ علَى مثالِه[2]

وقال الشاعر، ونسب لسابق البربري ، وهو شاعر صوفي:

وللنفوسِ وإن كانت علَى وجَل   من المنيةِ آمالٌ تقـوِّيهَا

فالصبرَ يبسطُها والدهرُ يقبضُها   والنفسُ تنشرُها والموتُ يطـويهَا[3]

---

[1] انظر القصيدة في شرح المفضليات للتبريزي:٣/١١٢٣- ١١٢٧.

[2] أدب الدنيا والدين : ١١٩.

[3] السابق: ١٣١.

ونسب لبعض أهل العلم:

قد عرفتك الحادثاتُ ببؤسـِـَـها وقد أدبتْ إن كانَ ينفعكَ الأدبُ

ولو طلبَ الإنسانُ من صرفِ دهرِه دوامَ الذي يخشى لأعياه ما طَلَبْ[1]

وفي نهج البلاغة المنسوب إلى أبي الحسن علي بـن أبـي طالب رضي الله عنه - وهو من هو دينا وتقى وعلما وفقها - أقوالٌ في ذم الدهر ، ونسبة الفعل إليه . من ذلك قوله في مفتتح خطبة " : أيها الناس إنا قد أصبحنا في دهر عنود ، وزمن كنـود "..وفسر العنود بالجائر ، والكنود بالكفور. وقوله في مفتتح خطبة أخرى بعد التحكيم " : الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل ."..وقال من وصية له للحسن رضي الله عنه " : من الوالد الفان ، المقرّ للزمان . ".. أي المعترف له . - وفيها أيضا " : أما بعد فإني فيما تبينت من إدبار الدنيا عني ، وجموح الدهر علي .. ".. ونقل عنه أيضا قوله " :ما قال الناس لشيء :طوبى له ، إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء.[2]

فإن كانت هذه الأقوال وما أشبهها لعلي رضي الله عنه حقا ، فهي كما ترى مجازات أقوال، جعلت للدهر حكما ، ونسبت إليه فعلا . نعم ليس هذا من وادي قولهم " : وما يهلكنا إلا الدهر " بحال، ولكنها جعلت الدهر فاعلا ، وصورته في صورة من يجور في حكمه ، ويلقى الإحسان بالإساءة ، وجعلت له خطبا يفدح ، ومصائب تفجع ، وجعلت له حكما وسلطانا، تخضع له الرقاب ،

---

[1] أدب الدنيا والدين :٢٧١.

[2] نهج البلاغة : ٧٧/١ وهامشها ، ٨٤/١، ٣٧/٣، ٣٨، ٢٠٥.

ويعنو له الحي. ونسبت إليه جمحات لا تدفع ، وخبينا من الشر لا يعلم.

وقد أورد القالي في أماليه محاورة جرت بين معاوية بن أبي سفيان ، والخيار بن أوفى النهدي حين دخل عليه : قال معاوية :يا خيار كيف تجدك ؟ وما صنع بك الدهر؟ فقال الخيار : يا أمير المؤمنين صدع الدهر قناتي ، وأثكلني لِداتي ، ، وأوهى عمادي ، وشيب سوادي ، وأسرع في تلادي ، ولقد عشت زمانا أصبي الكعاب ، وأسر الأصحاب ، وأجيد الضراب، فبان ذلك عني ، ودنا الموت مني.. وللخبر بقية .[1]" .ومعاوية قطعا لا يقول بالدهر الفاعل معتقدا له ، وإنما لفظ بذلك على ما جرت به العادة.

ومن المعمرين فضالة بن زيد العدواني ، وقد وفد على معاوية أيضا ، فقال له : كيف أنت والنساء يا فضالة ، فقال شعرا منه:

وفيمَ تصابِي الشيخِ والدهرُ دائبٌ بمبرَاته يلحو عروقا وأعظُمَا
رمتني صروفُ الدهرِ حتى تركنَنِي أجَبَّ السنامِ بعد ما كنتُ أيهمَا
فخلتُ سهولَ الأرض وَعْثا ووعثَها سهولا وقد أجْزَرْتُ أن أتكلما[2]

ومنهم خنَّابة بن كعب العبشمي ووفد على معاوية أيضا ، فسأله : كيف نفسُك اليوم ؟فقال شعرا منه:

عليَّ لسانٌ صارم إن هززتُه وركني ضعيفٌ والفؤادُ موقرُ
كبرتُ وأفنى الدهرُ حوْلِي وقوتي فلم يبقَ إلا منطق ليسَ يهذِرُ[3].

---

[1] أمالي القالي : عن المعمرين : هامش :٨٤.

[2] المعمرون :١٠٣، ١٠٤.

[3] السابق:١٠٦.

فهؤلاء وإن كانوا في الإسلام، قد جروا على ما كانوا درجوا عليه قبل من نسبة الفعل إلى الدهر .وهؤلاء المعمرون قد أمضوا أكثر أعمارهم في الجاهلية فطبعتهم بطوابعا . وكان معاوية رحمه الله مولعا باستنطاق الأشياخ الذاهبين في القدم ، من فرط حبه للمعرفة،وولعه بالأخبار الذاهبة .

وممن ذكر الدهر وفعله من شعراء الإسلام جروة بن يزيد الطائي ، وكان في حروب الإسلام بخراسان أيام عبد الله بن عامر،وهو ابن قريب من مائة!! ،وضربت يده يوم زحف الترك إلى الأحنف بن قيس فشلت ؛ فأعطاه الأحنف ديتها ، وأمر عبد الله بن عامر، فأعطاه ديتها مرة أخرى ، وزاده ، كما قال أبو حاتم . قال جروة:

سأغزُوا أو أموتُ كذَا خفَاتا ولا آتي بداهيةٍ وذَامِ
فإن الدهرَ يلْــــــعِبُ أبرَدَيْه بكل مذممٍ جلدِ العَظامِ.

وقال أيضا:

سأغزَو التركَ في نفَر كرامٍ سرَاع حينَ نُدعَى للضَرَابِ
يرونَ الموتَ أفضلَ من حياةٍ تصيرُها الدهورُ إلى تَبابِ

وقال:

لعمرِي وقد جاوزْتُ تسعينَ حِجة وتسعينَ أرجو أن أعمرها غَداً
فما زادني صبرِي على ما ينوُبني من الدهرِ ضعفا لا ولا كد لي زَندا[1]

فأبو تمام ما قال إلا ما قاله هؤلاء وأشباههم في الإسلام .وكثير مما ذكره أبو تمام في ذم الدهر، مما يمكن تأويله على أنه أراد به أهل الدهر، من ملوك الزمان، وأشباه الملوك من ذوي الغنى، الذين قصدهم،

---

[1] المعمرون :٦٧-٧٠.

وأفنى في قصدهم شبيبته ، ورواحله ، وأشعاره، ثم بخلوا عليه، أو حرموه، ولم يعرفوا له قدره، ولم يقدروا عبقريته حق قدرها. ومن الصريح في هذا قوله في مدح محمد بن الهيثم بن شُبانة :

فلو ذهبتْ سنَاتُ الدهرِ عنهُ وأُلقيَ عن مناكبِه الدثارُ
لعدلَ قسمةَ الأرزاقِ فينَا ولكن دهرُنا هذا حمَارُ

فإن قبل البيتين :

مضَى الأملاكُ فانقرضُوا وأمسَتْ سرَاةُ ملوكِنَا وهُمْ تجَارُ
وقوفٌ في ظلالِ الذم تحمَى دراهمُها ولا يحْمَى الذمَارُ[1]

فلو أخذت البيتين الأولين وحدهما ، لقلت كلام دهري متزندق ، كافر بالقدر ، طاعن في عدل الله . ولكنك إن نظرت إليهما في سياقهما ، وقستهما بما قبلهما وما بعدهما ، علمت أن الرجل يذم أهل زمانه؛ لأنهم وقفوا في ظلال الذم كما قال ، يحمون أموالهم ويبذلون أعراضهم .ومنه قوله في التعريض ببعض بني حميد الطوسي ، وقد اسمعه هذا الحميدي ما يكره، بعد ما قتلَ ممدوحه محمد بن حميد :

لقد جربتُ هذَا الدهْرَ حتى أفادتْني التجاربُ والعنَاءُ
إذا مَا رأسُ أهلِ البيتِ ولّى بدا لهُم من الناسِ الجَفَاءُ

وبعدهما أبيات حسان جدا [2]. فارجع إليها إن كانت لك بها حاجة.

وكأن أبا تمام قد اتخذ من الدهر، في هذه الأشعار، "رَمْزا"، أو"قنَاعًا"، أو "سِتَارًا"، فحيث لا يمكنه أن يذمّ أهلَ دهره، وملوك زمانه

---

[1] ديوانه : ٢/١٥٤.
[2] ديوانه :٤/٢٩٦، ٢٩٧.

صراحة ، ويصب عليهم جام غضبه، وعتبه، = يذم الدهر، ويصب عليه لعناته، وسوط عتابه، والمقصود هم لا الدهر[1].

وقد يصرح في بعض شعره بشكواه من أهل الزمـان، لا مـن الزمان نفسه، كقوله من قصيدة يشكو فيه تغير إخوانه:

غـابَ والله أحمـد فأصابتـ ـني له قطعةٌ منَ الأحزانِ
وتخلفتُ بعـدَه فـي أنـاسٍ ألبسُوني صبرًا على الحدَثانِ
ما لنَوْرِ الربيعِ في غيرِ حسن مالـهم من تغيـرِ الألـوانِ
أنكرتهم نفسِي ومـا ذلك الـ ـإنكارُ إلا من شِـدَّة العِرْفانِ
وإساءاتُ ذِي الإساءةِ يذكـر نك يوما إحسـانَ ذِي الإحسانِ
كثرةُ الصفرِ يُمنـة وشِمَـالا أضعَـفَت في نفَاسَـة العِقْيانِ[2]

وكأني به يريد: أحمد بن أبي دؤاد، أحد كبار ممدوحيه، وقد حزن كثيرا لفقده ؛ لأنه كان له في حياته كهفا وملاذا[3].

وكان للأخوة والمودة بين الإخوان مكان، وموضع في قلب أبي تمام،كان يأنس ويسر بقرب من يناسبه مـن الإخـوان فتقـل شـكواه، ويجزع ويحزن لفقدهم فتكثر شكواه، ولهذاتراه يقول في مدحة لسـليمان ابن وهب ،- يستعطيه فيها لسليمان بـن رزيـن ابـن أخـي دعبـل الخزاعي- :

---

[1] انظر في نسبة الفعل إلى الدهر والمراد أهل الدهر : أمالي المرتضـى : ١/ ٤٩. وما بعدها .

[2] ديوانه :٤/٤٣٥.

[3] انظـر : ديوانـه : ١/٧، ١٨، ٢١٨، ٣٥٨، ٣٦٥، ٣٧٢، ٣٧٨، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٦، ٤٠٥.و٢/ ٢٠٠، ٢١٧، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٨,٣/٤٩، ٥٣، ١٧٦، ٣١٥، ٤/٤٦٠، ٤٨٧.

ذو الودِ مني وذو القربى بمنزلةٍ وإخوتي أسوةٌ عندي وإخواني
لا تخلفنّ خلقي فيهم وقد سطعت ناري وجدّد من حالي الجديدانِ
في دهريَ الأولِ المذمومِ أعرفُهم فالآن أنكرُهم في دهريَ الثاني
عصابةٌ جاورت آدابُهم أدبي فهم وإن فرقوا في الأرضِ جيراني
أرواحُنا في مكانٍ واحدٍ وغدت أبدانُنا في شآمٍ أو خراسانِ
وربّ نائي المَغْنى روحُه أبدا لصيقُ روحي ودانٍ ليسَ بالداني[1]

ونأيُ أبي تمام عن الخلصاء الأوفياء من أخوانه، وتغير بعضهم عليه، من جملة أسباب شكواه من الزمان، كما ترى، فضمه إلى الأسباب التي ذكرناها من قبل .ولعل هذا الإكثار من ذكر الدهر و نسبة الفعل إليه، فيما الله هو الفاعل فيه، في شعر أبي تمام،= من جملة ما استند إليه القائلون بفساد معتقد أبي تمام، فحكموا عليه بظاهر مقالة لسانه، ولم يلتمسوا له العذر، فيما له فيه عذر، ولا تأولوا له فيما فيه له متسع لمتأوّل.وقد ذكر الشريف المرتضى: أن سبب خروج البحتري من بغداد، في آخر أيامه ، أنه لما قال:

أرَى الدهرَ غولا للنفوسِ وإنمَا يقي اللهُ في بعضِ المواطنِ مَنْ يَقي
ولم أرَ كالدنيَا حليلةَ صاحِب محبٍ متى تحسُن بعينيهِ تطلُق؟
ترَاها عيَانا وهي صنعةُ واحِدٍ فتحسبُها صُنْعَي لطيفٍ وأخرقِ[2].

---

[1] السابق : ٣/٣٣٤، ٣٣٥.

[2] من قصيدة يرثي بها أبا عيسى العلاء بن صاعد : ديوانه : ٣/١٥٥٣. والرواية فيه:'حليلة وامق" بدل 'حليلة صاحب ' . وبين البيت الأول والثاني بيت هو:

فلا تتبع الماضي سؤالك لم مضى؟ وعرج على الباقي فسائله لمْ بقِي؟

= شُنع عليه بأنه ثنوي ملحد؛ لقوله :" فتحسبها صنعي لطيف وأخـــرق".
قال المرتضى:"وكانت العامة يومئذ غالبة على البلد ، فخاف على نفسه،
وقال لابنه أبي يالغوث:"قم يا بنى، حتى نطفئ عنا هذه الثائرة بخرجـــة،
نلِم فيها ببلدنا، فخرج ولم يعد"[1]. وهذا الخبر يـــدلك علـــى أن العـــوام،
وأشباه العوام كانوا وراء كثير، مما رمي به بعض الشعراء في عقائدهم
وأخلاقهم ، ولعل أبا تمام أحد هؤلاء، وكم لقي الشعراء وغير الشعراء،
من العوام وأشباه العوام في كل عصر.

---

[1] أمالي المرتضى :٢/٢٢٩.

الفصل الرابع

تصوير الدهر في شعر أبي تمام

وبعد هذه الرحلة التي طالت نقف وقفة ليست بالطويلة مع تصوير الدهر في شعر أبي تمام وماله فيه من إحسان نوما عليه فيه من مأخذ ؛ لنكون قد ألممنا بالقضية من وجوهها.

ألفاظه المستعملة في الدلالة على الدهر : استعمل أبو تمام في الدلالة على الدهر الألفاظَ التي استخدمها الشعراء قبله[١] وبعده ، فهو يعبر عن الدهر بلفظ الدهر، من مثل قوله في هجاء عياش:

يا خلقَةً قد أمالَ الدهرُ أشطرَها   لم يكفِهَا من عقَابِ اللهِ تغْيِيرُ[٢]

وهذا هو اللفظ الأكثر ورودا، في شعره الذي ذكر فيه الدهر[٣]، ويعبر عن الدهر بما هو في معناه، كالزمان في قوله من قصيدة، مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات:

فلأعرِضَن عن الخُطُوبِ وجوْرِها   ولأصفَحَن عن الزمَانِ المذنبِ[٤].

ولفظ الزمان أيضا كثير الورود في شعره الذي ذكر فيه الدهر وفعله[٥]. ولفظة الخطوب في البيت أراد بها خطوب الدهر، فهي من

---

[1] انظر هذا البحث :١٧ وما بعدها

[2] ديوانه : ٤/ ٣٧٢.

[3] انظر ديوانه : ١/٣٧٢،. ٢/٣٤١، ، ٢/ ٣٤٨. ، ٤/ ٨٦. ٤/٩١.

[4] ديوانه : ١/٢٦٦.

[5] ديوانه : ١/٢٧٠. ٤/٢,٤٧١/٤,٣٩٧/٥٢٦، ٣/١١٩، ٣/١٥١، ٣/٢١٤، ٢١٥،

جملة الألفاظ المستخدمة في الدلالة على الدهر وفعله. ويستخدم الأيام كما في قوله من قصيدة، في هجاء أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي:

وذَمَلْتُ في الأيامِ حتى أسخَنَت شطَّي سنَامِي وانتحَت في غَارِبِي[1]

أو يعبر عن الدهر بمضافات إلى الدهر، أو الزمان، أو الأيام، مثل:صروف الدهر، كقوله من مدحة في أبي سعيد الثغري:

لئن بقيَتْ لي فيكَ آثارُ منطِقٍ لقد بقيَتْ آثارُ كفيكَ في دهْرِي
لقيتَ صروفَ الدهر دوني تابعًا لأمرِ العُلا فاخترتَ شكرِي على عُذْرِي[2]

وربما جمع الدهر فقال: دهور، وأضاف إليها الصروف، أو ذكر الصروف غير مضافة، وهو يريد صروف الدهر، كقوله في عتاب أبي سعيد الثغري:

فعزَائي بأن عِرْضِي مصُون سائغَ الوِرْد والسَمَاحُ حليفِي
ثم علْمِي علىَ حداثَة سني بصروفِ الدهورِ والتصريفِ..
ما أبالي إذا عنَتْك أموُرِي كيف أنحَتْ علي أيدِي الصرُوفِ[3]

وربما أفرد الصروف، فقال: صرف الدهر، كقوله في رثاء محمد بن حميد الطائي:

---

[1] ديوانه :٣١٧/٤.
[2] ديوانه : ١٦٤/٢.
[3] ديوانه : ٤٧٧/٤.

ثوَى في الثرَى من كان يحيَى به الثرَى ويغمُرُ صرفَ الدهرِ نائلُه الغمرُ [1]

وقد يذكر صروف النوى، بمعنى: صروف الدهر، كقوله في مدحة واعتذار، لأبي المغيث الرافقي:

وكم أحرزَتْ منكم علَى قبحِ قدِّها صروفُ النوَى من مرهَف حسَن القدِّ [2]

قال التبريزي: صروف النوى هنا، أراد بها: صروف الدهر أي: كم فرقت صروف الدهر، بيني وبين حبائب لي [2]. ويمكن أن يكون النوى هنا الفراق لا غير.

ومن معاني الصَّرْف: التقلب والحيلة [3]. فصروف الدهر على هذا تقلباته بأهله، وحيله في إيقاع الضر بهم.ويستخدم ريبَ الدهر كقوله في رثاء محمد بن حميد :

إن كانَ ريبُ الدهرِ أثكلنِيهِمْ فالدهرُ أيضا ميّتٌ مثكولُ [4].

وحدثان الدهر كقوله في رثاء بني حميد:

بني حُمَيد لو أن الدهرَ منتَزِعٌ لصَدّ من ذكرِكم عن جَانِب خشِنِ
إن يَنتحِل حدثَان الدهرِ أنفسَكم ويسلمْ الناسُ بين الحوضِ والعَطَنِ
فالماءُ ليس عجِيبا أن أعذَبه يفنَى ويمتد عمرُ الآجنِ الأسِنِ [5]

---

[1] ديوانه : ٨٤/٤.

[2] ديوانه :١١٠/٢.

[3] اللسان : صرف .

[4] ديوانه :١٠٥/٤. وانظر : ٤٢/٤.

[5] ديوانه : ١٣٩/٣.

و حدثان الدهر: حوادثه. وربما ذكر الحوادث غير مضافة إلى الـدهر، وهو يريد حوادث الدهر، كقوله في مطلع مدحة في أبي سعيد الثغري:

يا منْزِلاً أعطىَ الحوادثَ حكمَها   لا مُطْلَ في عِدَة ولا تسوِيفَا

وبعده:

وهي الحوادثُ لم تزَل نكباتُها   يألفـْـنَ ربعَ المـنزلِ المألوفَا
خلفتَ بعقوتِك السنوُن وطالَما   كانت بناتُ الدهرِ عنكَ خلوُفَا[1].

فقوله آخرا: "وطالما كانت بنات الدهر عنك خلوفا"، يدل على أنـه أراد بالحوادث أولا: حوادث الدهر. وربما استعمل مساوئ الدهر كقوله :

لقد أنْستْ مساوئَ كل دهر   محاسنَ أحمدِ بن أبِي دؤادِ [2].

أو بنات الدهر كقوله من مدحة في عمـر بـن عبـد العزيـز الطـائي الحمصي:

مجردُ سيفَ رأيٍ من عَزِيمتِه   للدهرِ صيقلُه الإطراقُ والفِكَرُ
عَضْبا إذا سَله في وجهِ نائبةٍ   جاءَت إليه بناتُ الدهرِ تعتذرُ[3].

وفيهما أيضا لفظ :النائبة مفرد النوائب وهي حوادث الدهر .أو استعمل نائبات الدهر كقوله في رثاء إدريس الشامي القرشي وهو شيعي :

---

[1] ديوانه :٢/٣٧٦– ٣٧٨.
[2] ديوانه : ٣٧٢/١.
[3] ديوانه :١٨٨/٢. وانظر : ٣٧٨/٢.

ولما نضَا ثوبَ الحياة وأوقعَت   به نائباتُ الدهرِ ما يُتَوَقعُ.[١]

أو نوائب الدهر كقوله من مدحة في مالك بن طوق :

قلْ لابن طوقٍ رحَى سعْدٍ إذا خبَطت   نوائبُ الدهرِ أعلاَها وأسفَلَهَا[٢].

و يستخدم ريب الزمانِ كقوله من مدحة في أبي الحسين محمد ابن الهيثم بن شبانة :

بدَت للنوَى أشياءُ قد خِلتُ أنها   سيبدُونَي ريبُ الزمانِ إذا تَبْدُوَ[٣]

وصرف الزمانِ كقوله من مدحة في محمد بن المستهل:

إني اعتصمتُ بطولِ طودكَ إنه   طودٌ يقومُ مقامَ طودٍ حديدِ
لا يهتدي صرفُ الزمان إلى امرئٍ   متصرفٍ بفنَائك المعهودِ[٤]

وقد ذكرت في الفصل الأول من هذا البحث: أن الشعراء قبل أبي تمام ، استخدموا هذه الألفاظ بأعيانها للدلالة على معنى الدهر، فعبر هو عنه بما عبروا هم به عنه من الألفاظ ، والألفاظ المفردة قسمة بين الأدباء ، وغيرهم من أهل البيان وليست مما يقع فيه كبير تفاضل ، وإنما يقع التفاضل في الصيغ والصور.

---

[1] ديوانه : ٩٤/٤.
[2] ديوانه :٤٧/٣.
[3] ديوانه : ٨٠/٢.
[4] ديوانه ١٤٧/٢.

وربما أغرب أبو تمام في تعبيره عن معنى الدهر جريـا علـى طريقته في الإغراب ، في المعاني والألفاظ والصور، ومن ذلك قوله من مدحة في أبي الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانة :

وحقدٍ من الأيامِ وهْيَ قـديرَة   وشـر السجايا قدرَةٌ جارُهَا حقْدُ
إساءةُ دهر أذكرَت حسنَ فعله   إليَّ ولولا الشرْيُ لم يُعرفِ الشهدُ
أما وأبيَ أحـداثِه إن حـادثا   حَدا بي عنكَ العيسَ للحادثُ الوغدُ[1]

قال التبريزي: "..ويجوز أن يَعْني بأبي أحداثه: الدهر، والشعراء مولعـة بذمه..[2]". وأبو تمام لما رآهم يقولون: بنَاتِ الدهر ، وهم يعنون أحداثـه، قال هو: " أما وأبي أحداثه..؛ لأن الأحداث إذا كانت بنات للـدهر فهـو أبوها!!،فانظر إلى تعمق هذا الشاعر. ومما يقوي أنـه أراد بـــ"أبـي أحداثه": الدهر ، أنه ذكر الدهر والأيام قبل البيت الأخيـر ، والأبيـات الثلاثة في معنى واحد متضام الأجزاء .

****

صيغ التعبير عن فعل الدهر في شعر أبي تمام :

ولما كان أبو تمام قد جعل للدهر فعلا يفعله بالأحياء، لم يجد بدا من تشخيصه وتجسيمه في أكثر أشعاره التي ذَكَر فيها الدهر، فاشتق لـه من صفات الشخوص والأجسام، وأفعالها. وإنما قلت: في أكثر أشـعاره، التي ذكر فيها الدهر، لأنه ذكر الدهر في بعض شعره، وهو يريـد بـه الزمن، من غير أن ينسب إليه فعلا يفعله، كمثل قوله لأبي سعيد الثغري يستأذنه:

---

[1] ديوانه :٢/٨٤.

[2] السابق والصفحة .

فمَنْ بالإذنِ علىَ نازِح عن أهلِه ساعتَه دهرُ[1]

وقوله له أيضا:

وأخرسُ الجودِ تلقَى الدهرَ سائلَه كأنه واقفٌ منْه علَى طللِ[2]

فالدهر في هذا وشبهه يُراد به الزمن، طال أو قصر، وليس مما نحن فيه؛ لأنه ليس من تجسيم الدهر وتشخيصه في شيء.

وقد ذكرت من قبلُ الألفاظَ التي استعملها أبو تمام في الدلالة على معنى الدهر، وسأذكر الآن الصيغ الدالة على مذهبه في تجسيم الدهر وتشخيصه، ثم أعرض لما صاغه، في أثناء ذلك من صور للدهر :ما أبدعه منها، وما اتكأ فيها على غيره من الشعراء، ثم أذكر ما عيب عليه في تصور الدهر، وما اعتذر له به المعتذر.ولما كان أبو تما م قد ذم الدهر كثيرا، ومدحه قليلا، فإنه ألصق به من أوصاف الذم أكثر مما ألصق به من أوصاف المدح ، وتجلى مدحه للدهر وذمه له، من خلال صيغ وصور أشهرها ما يلي:

١-الدهر مغَفلً: قال:

وجَدَّ بها قومٌ سوايَ فصادَفوا بها الصنعَ أعشَى والزمانَ مغَفلاَ[3]

---

[1] ديوانه : ١٨٣/٢.
[2] ديوانه :٩٠/٣.
[3] ديوانه : ١٠٥/٣.

وأراد بغفلة الزمان: أنه غبي لا يعرف أقدار الناس، فأعطى هؤلاء الذين ذكرهم ، وهم غير مستحقين، وحرم أبا تمام وهو للعطاء والإكرام أهل. وهذا البيت في مدح ابن الزيات وعتابه، وقبله:

فلَم أجِدِ الأخلاقَ إلا تَخَلقا ولم أجِدِ الإفضَالَ إلا تفضلاَ

وأصرِفُ وجهِي عن لسانٍ غدا بها لسَانِيَ مشكُولا وقلبِيَ مقفَلاَ.

٢-الدهر حمَار : قال:

فلو ذهبَت سناتُ الدهرِ عنه وأُلقِي عن مناكبه الدثارُ

لعدل قسمةَ الأرزاقِ فينَا ولكن دهرُنا هذا حمَارُ

وهذا لفظ آخر في التعبير عن غفلة الدهر، وقد ذكرت أن هذا المعنى ناظر إلى قول الله تعالى في اليهود الذين حملوا التوراة حمل أوراق وأسفار ، ثم لم يحملوها حمل عمل واعتبار، غفلة عما فيها: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا). وهذا المعنى والذي قبله في: ذم الدهر والشكوى منه .

٣-منكَب الدهر : قال:

تركتُ حطَامَا منكَبَ الدهرِ إذا نوَى زحَامِي لما أن جعلتكَ منكَبي[1]

وقد جعل للدهر منكبا، لما ذكر أنه جعل الممدوح له منكبا ، أو ذكر منكبه لما جعل للدهر منكبا. وكثير من الصيغ التي يؤثرها أبو تمام

[1] ديوانه : ١٦١/١.

على ما عداها في باب الدهر أو في غيره ، مرجعها إلى مذهبه في الشعر، وطريقته في البديع ، فتنبه .وهذا البيت في أول قصيدة قالها لعياش في مصر وهي من بواكير شعر، فتجسيمه الدهر، وجعله للدهر منكبا وهو مما عيب عليه، قديم قدم أوائل شعره ، كما ترى.

٤-أخدَع الدهر، قال من قصيدة في مدح الحسن بن وهب:

سأشكرُ فَرْجَةَ اللببَ الرخي ولينَ أخَادِعِ الدهرِ الأبي

قال التبريزي في شرح البيت : "ويقال: فلان رخي اللبب: إذا كان في سعة من أمره، ووصف الدهر بلين الأخادع لأن الرجل إذا وصف بالإباء قيل هو شديد الأخدع، وإنما فعلوا ذلك لأن الأخدع عرق عظيم، فكنوا به عن الذل والعز[1]".

وقال: من مدحة في أبي الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة:

كَانَتْ صروفُ الدهرِ من فرَقِك واكتَن أهلُ الإعدامِ في ورَقِكْ
يا دهرَ قوّم من أخدَعَيك فقد أضججتَ هذا الأنامَ من خرقِكْ
سائل لياليكَ فهيَ عالمة أيّ كريمٍ أرسَفْنَ في حلَقِكْ
اقبِض يدا عن أبِي الحسَين تجد جديدَه عائدا علَى خلَقِكْ[2].

فهو إذا رضي عن الدهر -كما ترى- قال: لأن أخدعه، وإذا سخط قال: اشتد أخدعه ، فجعل لين الأخدع وشدته ، صورة ليسر الدهر وعسره.وله في التعبير عن الدهر في هذه الأبيات صيغ: منها: أنه جعل

---

[1] ديوانه : ٣/ ٣٥٤.
[2] ديوانه :٢/٤٠٥.

للدهر أخدعا وهو يكثر من هذا – وقد عيب عليه– وسأعود إلى هــذه الصورة بمزيد إيضاح، ومنها: أنه زعم أن صروف الدهر تفْــرَق مــن الممدوح، فتتخذ لنفسها كِنًّا أي سترا، في قوله: " كانت صروف الــدهر" –من الكِنّ–، ويجوز أن تكون كان ناســخة، و أن يكــون المعنــى: أن صروف الدهر أعانت على فَرَق أعداء الممدوح منه ، وخــوفهم منــه، فكأن الدهر صار من جنده، وذلك على المبالغة. وإنما جاء أبو تمام بــــ "كَانت.." في أول البيت من أجل "واكتن.." في وسطه ، أو جاء بالثانية من أجل الأولى، فتلك طريقته، وهذا مذهبه في البديع الشعري.

ومنها أنه جعل للدهر خُرقا: أي حمقا، وجعل لــه حَلَقــا– أي: قيــدا– يجعله في رقاب الكرام وأيديهم، وجعل له يدا تقبض وتبسط، وبســطُها: قدرة الدهرعلى إيقاع الضر بمن شاء، وقبضُها: امتناعه عن إيقاعــه،أو عجزه . ومنها: أنه جعل للدهر خلقًا أي : قديما باليا، وإذا كــان للــدهر خَلَق فله جديد، وجديده إقباله وخيره، وخلقه إدباره وشره.كل هــذا فــي أربعة أبيات متتالية كما ترى، فدل هذا على أن أبا تمام يلح على تجسيم الدهر وتشخيصه في شعره إلحاحا واضحا، وعلــىأن هــذه الظــاهرة ليست من الظواهر العرضية في شعره. وسأعود إلى مناقشة مــا عيــب عليه في جعله للدهر أخدعا،وما احتج له به فيه.

٥– كَلْكَل الدهر : قال عن نفسه :

إذا أنَاخَ عليَّ الدهرُ كلكَلَه   قَرَاهُ صبْرا وعَزْما منيَ الكرَمُ[1]

---

[1] ديوانه : ٥٩٢/٤.

فجعل للدهر كلكلا ينيخه عليه، كما جعل امرؤ القيس لليل كلكلا، في قوله:

..فقلتُ له لما تَمطى بصلبه   وأردفَ أعجَازا ونَاء بكلَكلِ

قال ابن منظور: "والكلكل من الفرس: ما بين مَحزِمه إلى ما مس الأرض منه إذا ربَض، وقد يستعار الكلكل لما ليس بجسم، كقول امرئ القيس في صفة ليل:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

وقالت أعرابية ترثي ابنها:

ألقىَ عليه الدهرُ كلكَله من ذَا يقومُ بكلكَلِ الدهرِ ؟"[1]

فعبارة كلكل الدهر ، واستخدام الكلكل في المعنويات أقدم من أبي تمام كما ترى. وما أراه في هذا التعبير إلا متكأ على هذه الأعرابية أو علىغيرها، أو ناظرا إلى قول امرئ القيس السابق . فالليل زمن، والدهر زمن، وهذا وجه الأخذ و الاحتذاء.

٦- جِرّان الدهر، وجعل للدهر جِرَانا كما جعل له كلكلا، في قوله يمدح الحسن وسليمان ابني وهب:

رأيتكمَا من ريبِ دهري هضبَة   وما زلتمَا لا زلتمَا من رعَانهِ
فأصبَح لي تحتَ الجِرَانَ فريَسة   ولولاكُما أصبَحتُ تحت جِرَانهِ[2]

---

[1] لسان العرب " كلل" .

[2] ديوانه :٢٩٥/٣.والرعان : جمع رعْن وهو أنف الجبل . من تفسير الصولي .

والجِرَان: مقدم عنق البعير، من مذبحه إلى منخره، وإذا بـرك البعيـر، ومد عنقه إلى الأرض، قيل : قد ألقى جرانه[1]...وهـذا مـن اسـتخدام الجران في غير المحسوس أيضا.

٧– نَاب الدهر، قال من مدحة في أبي سعيد الثغري:

ولئن أطلـتُ مدَائِحي فبِـنَائل لك ليس مجدُودا ولا موصُوفَا
خفضّت عني ا لدهرَ بعد ملمة تركَـتْ لنَـابيْه علىّ صَرِيفَا

قال التبريزي في شرح البيت : "استعار للدهر نابين، ويقال: صرف البعير بنابه إذا حكه في الآخر، فسمعت له صوتا. وقـال أبـو العـلاء: "وكل صوت دقيق يقال له صريف"[2]. فهو يشتق للـدهر مـن صـفات الفرس أوالبعير كما ترى. وما قلته في الأولى من اتكائه علـى امـرئ القيس أوغيره يقال في الثانية أيضا.

٨–اسوِداد الزمان وابيِضَاضُه: قال في بني عبد الكريم الحمصيين:

قَوم إذا اسوَدَّ الزمانُ توضَّحْوا فيه ِفغُودرَ وهْو منهم أبلَقُ[3]

واسوداد الزمان ابيضاضه تعبيربالمحسوس عن حالي شـدته ورخائـه، وعسره ويسره، فإذا رضي أبو تمام عن الزمان قال: هو أبلق أو أبيض أو نحوهما، وإذا سخط قال: هو أسود، على ما جرت بـه العـادة فـي الإحساس بالألوان ، وموقعها من النفس.

---

[1] لسان العرب : جرن .

[2] البيت وشرحه في : ديوانه : ٢/٣٨٦.

[3] السابق : ٤/٣٩٧.

٩- حَرُّ الزمان وبَرْدُه: قال يعاتب أبا سعيد الثغري ويستبطئه:

إذا حَرَّ الزمان جَرَتْ أيادي   نداه فَغَشَّت الدنيا ظِلالا[1]

وحر الزمان وبرده هنا، كاسوداده وابيضاضه فيما تقدم. وربما عبر عن حالتي الزمان بمثل قوله:

الدهرُ يومٌ ويومٌ   والعيشُ عذرٌ ولومٌ[2].

أي : يوم شدة ويوم رخاء، ويوم بؤس ويوم سرور. أو بمثل قوله في غلام:

بدلَ الدهرُ ثوبَ حسنِك حتى   غالَه بعد جِدَّةٍ إخْلاقُ[3].

قال الصولي في تفسيره: "تبدلتَ حتى صار لقائي لك يؤلمني، كما كان فراقك يحزنني". وأبو تمام يجعل الدهر هو المبدل لحسن ذلك الغلام، حين نقله من الصبا إلى الشباب، ومن الجدّةإلى الإخلاق ، ومن الحسن إلى ضده.

١٠- أهوالُ الزمان ورغائبه ، قال يخاطب عاذلة له :

ذَرِيني وأهوالَ الزَمان أفَانِهاَ   فأهوالُه العظمَى تَلِيهَا رغِائبه[4].

---

[1] السابق :٤/٤٨٢.
[2] ديوانه : ٤/ ٣٦٢
[3] ديوانه : ٤/٤٠٥.
[4] السابق :١/٢٢٦.

وأهوال الزمان : شدائده وكربُه.

١١- شرَقُ الدهر وسَوْغُه، قال من مدحة في أبي دلف : القاسم بن عيسى:

قد شرَّدَ الصبحَ هذا الليل عن أفقِه   وسوغ الدهرُ ما قد كانَ من شرَقِهْ
سيقَت إلى الخلقِ في النيروزِ عافيةٌ   بها شفاهم جديدُ الدهرِ من خَلَقِه
لم يبق ذو كرَم إلا وجامِعَة   ثقيلة قد جنَاها الدهرُ في عنقِهْ[1].

فجعل للدهر سوغا وشرقا وهما من صفات الماء ، وجعل له جديدا وخلقا ، وقيدا يوضع في الأعناق .وكرر هذا اللفظ : شرق الدهر، وزاد فيه، في مدحة قالها في أحمد بن المعتصم، في حال مرضه:

من الأُلَى يستَجَابُ[2] من شَرَقِ الـ   ـدهرِ بهم إن ألَمَّ أو جَرَضِهْ[3]

وقد فُسِّر الجرض: بأنه من الريق، كالشرق من الماء، فجعل للدهر شرقا، ثم زاد فجعل له جرضا[4].

١٢- قَدَامَةَ الزمان وظَرْفُه: قال من مدحة في أبي سعيد الثغري :

لكَ هضْبة الحلمِ التي لو وازَنَت   أجَأً إذن ثقُلت وكَانَ ضعِيفَا
وحلاوةُ الشيمِ التي لو مازَجَت   خُلُقَ الزمانِ القَدْمِ عادَ ظَرِيفَا[5]

---

[1] ديوانه : ٤٠٣/٢.

[2] في رواية : يستجن ، وفي أخرى نستجير . الحاشية .

[3] ديوانه :٣١٧/٢.

[4] من شرح التبريزي للبيت .

[5] ديوانه : ٣٨٧/٢.

والقَدْم من الناس: العيي عن الكلام، وإظهار الحجة[1]، ومن لوازم الظَّرف اللباقة وحسن الحديث.

١٣- ابتسام الزمان وعبوسه: قال من مدحة في أبي المغيث موسى بن إبراهيم :

إيها دمشْقُ فقد حَوَيتِ مكارِمًا بأبي المغيثِ وسؤددا قُدْمُوسَا
وأرَى الزمانَ غدا عليكِ بوجهِهِ جذلانَ بسَّاما وكانَ عَبُوسَا[2]

وقال من مدحة في أبي سعيد الثغري:

وما ذكَر الدهرُ العبوسُ بأنه له ابن كيومِ السبتِ إلا تَبَسَّمَا[3].

وإنما خَصَّ السبتَ هنا ؛ لأن الممدوح انتصر في يوم السبت، ولذا قال قبل هذا البيت:

به سُبِتوا في السبتِ بالبيضِ والقنا سُبَاتا ثووا منهُ إلى الحَشْرِ نومَا
فلو لم يقَصِّر بالعَرُوبةِ لم يزَل لنا عُمُرَ الأيامِ عيدا وموسِمَا

والضمير في قوله: "سُبِتُوا.." عائد على الأعداء،قال التبريزي في شرح البيت : "يقول كانت هذه الواقعة في يوم السبت، فلولا أنا مسلمون نعظم الجمعة، ونجعلها كالعيد، لاتخذنا السبت موسما وعيداء إلى الحشر، ولكنا خشينا أن يقصر السبت بالجمعة"[4]. وهذا من تعمق أبي تمام وإغرابه، وتكلفه فوق الطاقة ، وما كل إغراب بمستحسن .

---

[1] لسان العرب : قدم .
[2] ديوانه :٣٦٥/٢.
[3] ديوانه :٢٤٣/٣.
[4] ديوانه :٢٤٢/٣.

فأهوال الزمان ورغائبه، وشرقه وسوغه، وقدامتــه وظَرفــه،وحره وبرده، واسوداده وابيضاضه، وعسره ويسره، كلها متقابلات أراد بهاأبو تمام الإشارة إلى تقلب الدهر بأهله، وتبدل أحواله من يسر إلى عســر، ومن لين إلى شدة، ومن غنى إلى فقر، ومن إقبال إلى إدبــار، وهكــذا .وتقلب الدهر معنى قديم لاكه الأدباء في الشعر والنثر، وعبــروا عنـــه بصيغ شتى، وحُلى مختلفة، وأصل المعنى واحد. وقد قال الحارث بـــن عمرو بن كعب المَذْحَجِي في وصية لـــه، – وهــو مــن المعمـــرين– :"والدهر صرفان : صرف رخاء ، وصرف بلاء، واليوم يومان: فيـــوم خبرة، ويوم عبرة .."[1]، وأبو تمام كما ترى يكسو هذا المعنى كُسى عدة، ويعبر عنه بصيغ شتى.

١٤– الدهر محبوب ومبغَض : قال في رثاء محمد بن حميد الطائي:

لئن أُبغِض الدهرُ الخئونُ لفقدهِ   لعهدِي بهِ ممنْ يُحَبّ لهُ الدهرُ[2]

فوصف الدهر بأنه يُحَب أو يبغض ، ووصفه بالخيانة .

١٥– شباب الدهر وهرَمه: قال:

ولقد أراكَ فهلْ أراكَ بغبطَةٍ   والدهرُ غضٌّ والزمَانُ غلاَمُ .

وعده الآمدي[3] مأخوذا من قول الأخطل:

---

[1] أمالي المرتضى : ٢٦٢/١.
[2] ديوانه : ٤/ ٨٤.
[3] الموازنة : ١١٩/١.

سعيتَ شبابِ الدهرِ لم تستَطِعْهم   أفالآن لما أصبَحَ الدهرُ فَانِياَ .

وبين غضاضة الدهر وغلامية الزمان عند أبي تمام ، وبين قول الأخطل: "شباب الدهر" شبه يعرفه حذاق النقاد كالآمدي، الذين يعرفون الأخذ وإن خفي وجهه. وأبو تمام يقول في موضع آخر إن الدهر ميت مثكول ، كما قال في رثاء محمد بن حميد[1]:

إن كانَ ريبُ الدهرِ أثكلنِيهمَ   فالدهرُ أيضًا ميتٌ مثكُولُ.

وما أراه أراد بموت الدهر هنا، إلا انتهاء الحياة الدنيا، وقوله: والدهر أيضا ميت مثكول من تدقيقه وإغرابه أيضا..وقال من مدحة في مالك بن طوق التغلبي:

لتغلبَ سؤدد طَابت منَابتُه   في مُنتهَى قُلل منهَا وفي قِمَمِ
مجْدٌ رعَى تلعاتِ الدهرِ وهْو فتىً   حتى غدَا الدهرُ يمشِي مِشْية الهَرِمِ[2]

فوصف الدهر فيما تقدم : بأنه خئون، وجعله محبوبا إذا جاءه بما يحب، وبغيضا مذموما، إذا جاءه بما يكرهه، واستعار له من صفات الإنسان الخيانة، والغلامية، والفتوة، والهرم، وكل ذلك على المجاز. وهذا البيت الأخير أشبه ببيت الأخطل السابق، من البيت الذي ذكره الآمدي.

١٦—سقَم الدهر وصحته: قال من مدحة في المعتصم :

لِيسَقَمِ الدهرُ أو تصْحِحْ مودتَه   فاليومَ أولُ يومٍ صَح لِي أمَلُ

ويقول فيها:

---

[1] ديوانه : ١٠٥/٤.

[2] ديوانه : ١٨٧/٣. وانظر : الموازنة : ٣٢٨/١.

رواحِلنا قد بزّنَا الدهرُ أمرَها   إلى أن حسِبْنا أنهن رَوَاحِلُه.[1]

وسأعود إلى الصورة في هذا البيت الأخير مرة أخرى.

١٧- سكون الدهر وشمُوسه: قال من مدحة في أبي المغيث موسى بن إبراهيم:

سارَ ابن إبراهيمَ موسَى سيرةً   سكنَ الزمانُ لها وكَان شَمُوسَا[2]

فاستعار للدهر الصحة والسقم ، والسكون والشمُوس.

١٨- الدهر عرس ، قال من مدحة في الحسن بن وهب :

رَدْيِ لطرفِي عن وجهِهِ زمَن   وساعَتِي من فراقِهِ حَرَسُ[3]

أيــامنا فِــي ظِـلاله أبــدا   فصلُ ربيعٍ ودهرُنا عرَسُ[4].

وربما عبر عن هذا المعنى بقوله إن الدهر يضحك، وضحك الدهر رضاه ومسالمته، قال من مرثية، في بني حميد بن قحطبة:

عهدِي بهم تستنِيرُ الأرضَ إنْ نَزَلوا   فيها وتجتمِعُ الدنيا إذا اجتَمَعُوا

ويضحَك الدهرُ منهُم عن غَطارِفة   كـأن أيــامهم من أنسِها جُمَعُ[5]

وإذا كان للدهر ضحك على هذا الوجه ، فله بكاء على الوجه الذي يقابله، وإن لم يذكر أبو تمام البكاء هنا.وكرر هذا المعنى في قصيدة مدح به أحمد بن المعتصم، وعنى فيها نفسه بقوله:

---

[1] ديوانه : ١٨/٣، ٢٥. وفي رواية بزنا الهم بدل الدهر .

[2] ديوانه : ٢٦٧/٢.

[3] الحرَس : الدهر وجمعه : أحرس وحروس وحِراس . من شرح التبريزي .

[4] ديوانه : ٢/ ٢٣٢.

[5] ديوانه : ٩٠/٤، ٩١.

آنستَه بالدهرِ حتى إنه   ليظنه عُرسًا من الأعرَاسِ [1].

١٩-احتلاب الدهر، قال من مدحة في أبي سعيد الثغري، مستمنحا الممدوح لصاحب له:

لِيَ صَاحبٌ قد كانَ لي مُؤْنِسًا   ومألفاً في الزمَنِ الغابِرِ
يحتَلِبُ الدهرَ أفاويقَه   ويخلِطُ الحلوَ مع الحَاذِرِ [2]

قال التبريزي، في معنى : "يحتلب الدهر أفاويقه" : "أي ما يحصِّل من خيراته، إلا قليلا قليلا، ويمزج خير العيش بشره". فجعل للدهر درا يحتلب قل الدر كما هنا، أو كثر.فهو في حال رضاه عن الدهر يصفه بما فيه مدح، فيجعله غلاما، وعرسا، ويجعل له ضرعا ودرا، قل الدر أو كثر، وإذا سخط نعته بما فيه ذم، فقال: دهر مغفل، ودهر حمار، ودهر أخرق، إلى آخر ما وصف به الدهر من قبيح النعوت ، وردئ الصفات .

٢٠-عِدات الدهر: قال في مدح المعتصم، وذكر فتح الخرمية:

أُبْنَا بكلِ خريدة قد أُنجِزَت   فيهَا عِدَاتُ الدهرِ بعدَ مَطَالِ [3]

فجعل للدهر وعيدا يتحقق، وإنْ بعد مطل.

---

[1] السابق :٢/٢٥١.

[2] ديوانه :٢/١٦٢. والأفاويق جمع أفوقة ، فهو جمع الجمع . والحاذر من اللبن الحامض الذي اشتد حمضه . من شرح التبريزي للبيت .

[3] ديوانه : ٣/١٤٢.

٢١- رَمْيُ الدهر : قال من مدحة في محمد بن حسان الضبي:

تواتَرَت نكباتُ الدهرِ ترشُقُني   من كل صَائبةٍ عن قوْسِ غضبانِ
لما تواترَتِ الأيامُ تعـَبثُ بي   وأسقطَت ريحُها أوراقَ أغـصَانِي[1]

فالدهر يرشقه بنباله، ويرميه عن قوس غضبان، والأيام تعبث به عبث الريح بالأوراق: أوراق الشجر، في يوم ريح عاصف.وقال في مطلع مرثية لغالب بن السعدي :

هو الدهرُ لا يشوِي وهُن المصائِبُ   وأكثرُ آمالِ الرجالِ كواذِبُ[2]

فجعل الدهر يرمي الأحياء، فلا يخطئ في رميه. قال التبريزي: "أصل الإشواء: أن يرمي الرجل فيصيب الشوى، وهي القوائم، وذلك خطأ للغرض، إذ المراد: هو القتل، ثم كثر ذلك حتى قيل: أشوى في معنى أخطأ" . فأبو تمام يقول: إن الدهر رام حاذق، إذا رمى أصاب المقاتل، لا يخيب له رمي، ولا يطيش له سهم ، ولا ينجو منه خصم .وربما عبر عن هذا المعنى بمثل قوله :

قُل لابنِ طوقٍ رحَى سعدٍ إذا خَبَطَت   نوائبُ الدهرِ أعلاَهَا وأسَفَلَهَا[3]

فجعل الدهر يخبط، خبط الراعي أوراقَ الشجر؛ لتأكلها دوابه. هذا إذا عددت الخَبط من جملة الرمي، وإلا كان صورة قائمة بنفسها، وصيغة مستقلة بذاتها.

---

[1] ديوانه : ٣/٣١٢.
[2] ديوانه :٤/٤٠.
[3] ديوانه : ٣/ ٤٧.

٢٢- سطو الدهر : قال من مدحة في أبي الحسين علي بن مر :

ما يحسِنُ الدهرُ أن يسطُو علىَ رَجُلٍ إذا تَعلقَ حَبْلاً من أبِي حَسَنِ[١]

والسطو هنا: القهر بالبطش[٢]، فالسطو من الدهر: رمي الباطش القاهر.

٢٣-الدهر يأكل الأحياء ، قال يعزي نوح بن عمرو بن نوح بابنه:

سيأكلنا الدهرُ الذي غالَ من نَرَى ولا تنقضِي الأشياءُ أو يؤكَلَ الدهرُ[٣]

وقوله: يؤكل الدهر هنا ، كقوله فيما تقدم : الدهر ميت متكـــول ، وهـــو أيضا من تدقيقه وإغرابه، وتعمقه.

٢٤- يد الدهر وفمه. وجعل للدهر يدا وفما، فأكثر من ذلك.ولما كان قد جعل الدهر راميا وآكلا، ومختبطا، وباطشا، وما أشبه ذلـــك، ســـاغ أن يجعل له يدا وفما، وما به يكون الرمي ، والأكل، والبطش، ونحوهـــا.
يقول في رثاء بعض بني حميد :

لو يعلمُ الناسُ علمِي بالزمانِ وَما عاثَتْ يدَاه لما رَبُّوا ولَا وَلَدُوا[٤].

ويقول في مدحة في أبي سعيد الثغري، في وصف المهزوم :

أنهبَت أرواحَه[١]الأرماحَ إذ شُرَعت فما تُرد لريبِ الدهرِ عنهُ يَدٌ[٢]

---

[1] ديوانه : ٣/ ٣٣٩.
[2] اللسان : "سطا"
[3] ديوانه : ٨٦/٤.
[4] ديوانه :٧٧/٤.

وقال من مدحة في أبي العباس نصر بن منصور بن بسام:

ألا لا يمدّ الدهرَ كفا بسيءٍ   إلى مجتدي نصرٍ فتُقطع من الزندِ[3]

وقال في رثاء محمد بن حميد:

تنبهتْ لبَني نبهانَ يوم ثوى   يدُ الزمانِ فعاثَتْ فيهمُ وفَمُهُ[4]

وقال في مقدمة هجائه الجُلودي، حين انهزم من النويري:

دار كأن يدَ الزمانِ بأ   نواع البِلَى نشَرَتْ بهَا كُتُباَ
أينَ الألىَ كانوُا بعقْوتِها   والدهرُ يسكبُ ماءَه سكَبَا[5]

وقال في وصف برد خراسان:

يمنىَ الزمانِ طوَت معروفَها وغدَت   يسرَاهُ وهْيَ لنا من بعدِهَا بَدَلُ[6]

فانظر إلى تصرفه في المعنى الواحد ، وما يستجدّه له من الكُسى.

٢٥- خطة الدهر: قال يصف نفسه:

---

[1] قال التبريزي : " الهاء في أرواحه راجعة إلى المنهزم ، كأنه أراد أرواح أصحابه فلذلك حسن الجمع " وراجع بقية كلامه ففيه مزيد تفصيل.

[2] ديوانه :١٧/٢.

[3] ديوانه :٦٤/٢.

[4] ديوانه :١٣٧/٤.

[5] ديوانه :٣٢٠/٤.

[6] ديوانه :٥٢٦/٤ ..

خطَبت[1] خطوبُ الدهرِ منه خطة   نتجَت عليه تجاربًا ونُكُوبًا[2].

وأراد بخُطبة الدهر هنا أن الدهر رماه بخطب ،عجل ظهور الشيب في رأسه. وأبو تمام يكرر كثيرا في شعره، معنى :ظهور الشيب في رأسه مبكرا. وكأني به لما رآهم يقولون: صاح الشيب في رأسه، قال هو: خَطَب الدهر في راسه.ومما فسرت به الخُطة أنها:الحال، أو الأمر، أو الخَطب. والخُطة-بضم الخاء-: الطريقة، ومثلها الخَط. والخِطة -بكسر الخاء-: الأرض تُنزل لأول مرة[3]. ومن عرف طريقة أبي تمام، رجح أن يكون قال: خِطة بكسر الخاء، فكأن الشيب اختط لنفسه في رأسه خِطة كما يختط المختَط من الناس ، وارتاد له فيها موضعا كما يرتاد من أراد المرعى .

٢٦- حقد الدهر، وحسْنُ صنيعِه : قال من مدحة في أبي الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة:

وحقْدٍ من الأيامِ وهْيَ قديرَة   وشَرِّ السجَايا قُدْرَة جارُهَا حقدُ
إساءةِ دهرٍ أذكرَتْ حسنَ فعلِه   إليَّ ولولا الشَّرْيُ لم يعرَفِ الشهدُ[4]

٢٧- خرس الدهر، قال من قصيدة يفخر فيها بقومه ، عند انصرافه من مصر:

---

[1] كذا هي في الديوان . ويقوم في نفسي أنه قال: خطت خطوب الدهر منه خطة ، أو خطبت خطوب الدهر من خطبة. وانظر الحاشية.
[2] ديوانه :٥٦٣/٤.
[3] لسان العرب : (خطط) .
[4] ديوانه :٨٤/٢.

بخَيلٍ لزيدِ الخيلِ فيه فوارسٌ إذا نطَقُوا في مشهدٍ خرِسَ الدهرُ[1]

وإذا كان للدهر خَرَس فله نطق بدلالة التقابل. ونطق الدهر قدرته على إيقاع العداوة، وخرسه عجزه عن إيقاعها .

وهذا البيت وما أشبهه، مما يمكن تأويله على معنى: نطْق أهل الدهر وخرسهم. وقد قال المرزوقي في قول أبي صخر الهذلي:

عجبتُ لسعيِ الدهرِ بينِي وبينَها فلما انقضَى ما بينَنا سكَنَ الدهرُ

= "ويجوز أن يريد بسعي الدهر: سعاية أهل الدهر..وكما أراد بسعي الدهر: سعي أهل الدهر، كذلك أراد بسكون الدهر: سكون أهل الدهر"[2]. هذا. وبين قول أبي صخر: سعي الدهر...، وسكن الدهر، وقول أبي تمام:"خرس الدهر" نسب وسبب، فتأمله.و قال أبو تمام في مدح المعتصم:

سكنَ الزمانُ فلا يد مذمُومة للحادثاتِ ولا سَوَام يُزعَرُ[3]

وسكون الزمان هنا، ناظر أيضا إلى قول أبي صخر، وعالة عليه. وسكون الدهر يمكن أن يفسر على أنه سكون أهل الدهر، كما فُسر نطق الدهر وخرسه ، بأنه نطق أهل الدهر وخرسهم ، ولسنا نقول بوجوب هذا التأويل ؛ لأنه ينزل بالصورة كثيرا، وهذا من باب : واسأل القرية.

---

[1] ديوانه : ٥٧٦/٤.
[2] شرح الحماسة : ١٢٣٢/٣.
[3] ديوانه : ١٧٢/٢.

٢٨- معائب الدهر، قال في مدح أبي العباس عبد الله بن طاهر:

فواللهِ لوْ لم يُلبِسِ الدهرَ فعلَهُ لافسدتِ الماَء القراحَ معايبُهْ[1]

٢٩- ذنْب الدهر : وقال من مدحة في محمد بن عبدالملك الزيات :

فلأعرضَن عن الخطوبِ وجورِهَا ولأصفَحَن عن الزمانِ المذنبِ[2]

٣٠- عار الدهر: قال في مدحة لأبي سعيد الثغري:

إذاْ للبستُم عارَ دهر كأنما لياليه من بينِ اللّيَالي عَوارِكُ

والخطاب في البيت لبعض التغلبيين، الذين ناصبوا الممدوح العداء، فظفر بهم، ثم صفح عنهم ، ورفع عنهم يدا. قال أبو العلاء: "وإذا وُصف الرجل، بأنه قد دخل في غدر، ومأثم، قيل: كأن عليه ثياب الحائض. قال جرير:

وقد لبِسَت بعدَ الزبيرِ مجاشِع ثيابَ التي حاضَت ولم تغسِل الدمَا"[3]

فجعل للدهر معائب، وجعل له ذنبا، وجعل له عارا..وأحر بالعار هنا أن يكون وصفا للدهر ، لا فعلا له، ولو قلت: إن هذه الأوصاف أوصاف لأهل الدهر لا له كان وجها، وهذا ظاهر في البيت الذي ذكر فيه عار الدهر، فتأمله.

---

[1] ديوانه : ١/٢٦١.
[2] ديوانه :١/ ٢٦٦.
[3] ديوانه : ٢/ ٤٦٤.

٣١- قُفْل الدهر!!: وجعل للدهر قفلا، في قوله من مدحة في داود بن محمد:

فافتحْ بجودِكَ قفلَ دهرِي إنه قفـلٌ وجودُ يديكَ لِي إقليدُ[1].

٣٢- جَرَب الدهر! وقال من مدحة، في محمد بن عبد الله بن صالح الهاشمي:

أيٌ مُداوٍ للمحلِ نائلُه وهانِئ للزمانِ مِن جَرَبِه[2]

وقفل الدهر، وجرب الدهر من تدقيقات أبي تمام ، وإغرابه، الذي يقـل أن تجده في شعر غيره.

٣٣-صَرْفُ الدهر ولَزْبُه :قال في مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني:

من المطربينِ الألَى ليسَ ينْجَلِي بغيرِهِمُ للدهرِ صرْفٌ ولَا لَزْبُ[3]

والصرف: رد الشيء عن وجهه، واللزب: الضيق[4]. وأراد بهما: جـور الدهر في حكمه، وما فيه من ضيق العيش، وتكديره، وتنكيده .

٣٤- عداوة الدهر، قال من قصيدة خاطب بها علي بن مر:

وأيامُنَا خُزْرُ العيونِ عوابِسٌ إذا لم يخُضْهَا الحازِمُ المتَلَبِّبُ

---

[1] ديوانه : ١٥٠/٢.

[2] ديوانه :٢٧٠/١.

[3] السابق :٢٠٠/١.

[4] لسان العرب : ' صرف ' و ' لزب ' .

قال أبو العلاء: "استعار خزر العيون للأيام، لأنه من صفات الأعداء"[1].

وقال في عتاب عياش:

نظَرُ الزمانِ إليه قطَّع دونَه   نظرَ الشقيقِ تحسرًا وتَلَهفَا[2].

قال التبريزي في تفسيره:"العامة يقولون:نظر إليهم الزمان، إذا فعل بهم فعلا قبيحا، وقد استعملوا ذلك في العصر القديم، حتى قال الحكمي:

نفسي ترَى دهْرِي وليسَ يرَانِي

وإنما هو اصطلاح من العامة؛ لأن النظر إلى الإنسان، ممن هو فوقه جائز أن يجلب إليه خيرا أو شرا. والمعنى: أن الزمان لما نظر إليه، قطع دونه نظر الشقيق"[3]، وسأعود إلى هذه الصورة بمزيد إيضاح.

٣٥- وِثَاق الدهر، قال من مدحة في محمد بن عبد الملك الزيات :

ليالِيَ نحنُ في وسَنَاتِ عَيْش   كَأن الدهرَ منهَا في وِثَاقِ
وأيامـا لنـا ولَـه لـدَانـا   عرَيْنَا من حواشِيها الرقَاقِ[4].

وقد بنى الكلام هنا على التشبيه، فقال: كأن الدهر في وثاق. ووثاقه عجزه عن إيقاع الضر، ويقابله إطلاقه، وهو: طلاقته في فعل ما يريد فعله.

---

[1] البيت والتفسير في : ديوانه : ٢٨٣/١.
[2] ديوانه : ٤٧١/٤.
[3] السابق: ٤٧١/٤.
[4] ديوانه : ٤٢٦/٢.

٣٦- تصرُّح الدهر: قال في عمورية التي فتحها المسلمون زمن المعتصم:

تصرَّح الدهرُ تصريحَ الغمَامِ لها عن يومِ هيجاء منها طاهرٍ جنبِ

قال التبريزي، في معنى تصرّح الدهر: "أي تكشف الدهر، كما يتكشف الغمام عن السماء"[1]. وقوله في البيت : طاهر جنب، مما اختلف في تفسيره: قال أبو العلاء: إن ما فعله المسلمون في هذا اليوم، كان غزوا حلالا، فاليوم طاهر من هذا الوجه، وجنب؛ لأن المسلمين أخذوا السبي، فوطئوه، فاحتاجوا إلى الغسل". وقال المرزوقي: تكشف الدهر عن يوم، طاهر على المسلمين الظافرين، جنب على المظفور بهم. وهو معنى قول أبي العلاء وإن اختلف اللفظ.. ونقل ابن المستوفي: أن الطهارة وصف لليوم نفسه، والجنابة وصف للناس في هذا اليوم[2].

٣٧- صَوَلان الدهر ونابه ومخلبه، قال من مدحة في عمر بن طوق بن مالك بن طوق التغلبي:

قد قلتُ للزباءِ لما أصبَحت في حد نابٍ للزَمانِ ومخلَبِ
لمدينةٍ عجماءَ قد أمسى البِلىَ فيها خطيبًا باللسانِ المعرِبِ
فكأنما سكَنَ الفناءُ عِراصَها أو صالَ فيها الدهر صَوْلة مغضَبِ[3]

وقال في رثاء خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني :

لقد نهَسَ الدهرُ القبائلَ بعدَه بنابٍ حديدٍ يقطر السمَّ عاندِ[1]

---

[1] ديوانه :١/ ٦٠.

[2] ديوانه :١/٦٠ وهامش (١) و(٣) منها .

[3] ديوانه :١/ ١٠٣.

فاشتق للدهر كما ترى من : صفات الحيوان المفترس، وجوارح الطير، فجعل له نابا ومخلبا، ومن صفات الفحل الهائج، أو الملك الباطش، فجعل له صولة مغضب، ويلحق الشعر الأول بما للدهر من فعل في خراب العمران؛ لأنه أراد بالزباء هنا المدينة بدليل قوله: لمدينة عجماء إلخ..

٣٨- كبد الدهر: قال من مدحة في أبي سعيد الثغري:

إن فاضَ ماء المزنِ فضتَ وإن قسَت   كبدُ الزمانِ علي كنتَ رؤوفا[2].

٣٩- ظمأ الدهر: قال في مطلع مرثية في حَجْوة بن محمد الأزدي، وأخا له يقال له قَرْم:

يا دهرُ قدْكَ وقلمَا يغني قَدِي   وأراكَ عِشْرَ الظمءِ مُر الموردِ
ولقد أحيطَ بنا ولم نكُ نطفةً   بكَ واستُعِد لنا ولمّا نولدِ[3]

والعِشْرُ كما قال التبريزي: أبعد الظماء، أي : أن يطول ظمأ الإبل ، قبل أن تورد، ضربه مثلا لشدة الدهر[4]. فهو يزعم أن الدهر فيما يفعله بالأحياء كالظمآن الذي طال ظمؤه، فإذا ورد، ورد موردا مرا، فلم ينفعه ورود الماء فبقيت له شدة ظمئه. ويزعم أن الدهر أحاط بالناس وهم نطف في الأرحام لما تولد.

٤٠- سؤر الدهر: قال في مقدمة مدحة نوح بن عمرو، واستعطافه:

---

[1] ديوانه : ٦٨/٤. وفي رواية نهش .
[2] ديوانه :٣٨٣/٢.
[3] ديوانه : ٦٠/٤.
[4] من شرحه للبيت في الموضع السابق .

هَا إِن ذَا موقِفُ الجَازِع　　أَقْـوَى وسؤرُ الزمنِ الفَاجِع
دار سَقَاها بعدَ سكانِها　　صرفُ النوَى من سُمهِ الناقِعِ.

قال التبريزي: "يريد أن هذا الربع سؤر الزمن، أي قد أهلك معظمه وبقست منه بقية"[1]. هذه -ولم استقص- أشهرُ الصيغ التي استعملها أبو تمام في شعره لتشخيص الدهر وتجسيمه ، أما ما تدل عليه هذه الصيغ ، وما توحي به تلك الصور فهذا ما سأحدثك عنه الآن.

******

صورة الدهر في شعر أبي تمام:

إذا أنت تأملت الأشعار السابقة وأشباهها، في ديوان أبي تمام بدا لك جليا، أن الرجل أكثر من تجسيم الدهر، وتشخيصه إكثارا ظاهرا، فصاغ له صورا شتى مشتقة من الأجسام والأشخاص، مستعارة من الأحياء ، أو المحسوسات. ومما يلاحظ، على تلك الصور:

١-التفنن والتصرف:

فقد استعار للدهر صورا إنسانية مرة، وحيوانية مرة، ونباتية مرة، وجمادية مرة، فلم يكد يترك شيئا مما يمكن أن يُستعار منه للدهر بوجه قريب أو بعيد إلا واستعار له منه: فاستعار له كثيرا من أعضاء الإنسان، وأخلاقه، وحالاته، فجعل له: منكبا، وأخدعا، ويدا، وقدما ، كما

[1] ديوانه :٢/٣٥١.

للإنسان منكب، وأخدع ويد، وقدم، وجعله شابا أو هرما، و صـــحيحا أو سقيما، وحيا أو فانيا، وكل هذا منتزع من حالات الإنسان.

ونسب إلى الدهر: الغفلة، والخرق، والخيانة، والحقد، والنطــق أو الخرس، والفدامة أو الظرف، والابتسام أو العبوس، والضحك أوالبكــاء، وجعل له ذنبا يذنبه، وأشياء أخرى مرت بك ، أو هي في ديوانه تركتها فرارا من الإطالة ، وكل هذا مما يوصف به الإنسان.

واشتق له من صفات الحيوان الأعجم ، كما اشتق له مـــن صـــفات الإنسان ، فجعل له كلكلا، وجرانا، ونابا، وبطنا وظهرا[1]، كمـــا للبعيـــر كلكل، وجران، وناب وبطن، وظهر. وجعل له سكونا وشموســا، كمـــا للدواب سكون وشموس، وجعله يجرب كما تجرب الإبل!! ويحتلب كمـــا تحتلب الدواب، بل وجعله حمارا!! ، كما رأيت.

وجعل للدهر أيضا: عارا يلحقه، ومعائـــب تلصـــق بـــه، و قفـــلا يستعصي على الفتح ، وركنا ينهدم[2]، وحَطَبا تضرم فيه النار[3]، وحواشي كحواشي الثوب[4]، وعودًا نُضارا[5]. وجعل له حـــرا وبـــردا، واســـودادا وابيضاضا. والدهر زمن فلا يوصف بشيء من ذلك على الحقيقة، ولكن أبا تمام لما جعل له فعلا يفعله ، وبث فيه من الحياة ما بث، وصفه بمـــا وصفه به على المجاز .

---

[1] ديوانه :٢/٨٧.
[2] ديوانه : ٣/١٧٠.
[3] ديوانه :٢/٢٨١.
[4] ديوانه : ٢/١٩١.
[5] ديوانه :٢/١٦٧.

والمعنى الذي بنيت عليه هذه الصور جميعا هو: مدح الدهر وذمه،وهو معنى قديم مستهلك ، ولكن أبا تمام تفنن في التعبير عن هذا المعنى تفننا حسنا، وتصرف فيه تصرفا كثيرا، يكشف عن غنى عقله، وعمق خياله، وقوة شاعريته، وعن النزعة التصويرية المتأصلة في شاعريته.

ولما كان أبو تمام ممن يرضى عن الدهر قليلا، وهو عليه جدُّ ساخط، وله جِدُّ ذام في أكثر أحواله؛ فإنه صوره قليلا في صور ممتدحة مستحسنة كما رأيت ، فجعله غلاما، وعرسا، ونسب إليه الابتسام، والظرف، والضحك. وصوره كثيرا في صور مذمومة بغيضة، فجعله : مغفلا، وأخرق، وفدما، وعبوسا، وحاقدا، وخائنا، وجعل له معائب لا تمحى، وذنوبا لا تغتفر. والدهر هو الدهر، لا يتغير ولا يتبدل، ولكن الذي يتغير ويتبدل هو إحساس أبي تمام به، وحالته النفسية، فإذا رضي تراءى له الدهر على أحسن ما يكون ، وإذا سخط لم ير فيه شيئا يسره .وكثيرا ما يقابل أبو تمام بين صفات المدح للدهر، والذم له في الموضع الواحد ، تعبيرا عن المعنى الذي كرره كثيرا في شعره ، وهو تقلب الدهر وتبدله وتلونه ، وهو المعنى الذي ألح عليه كل من اشتكى الدهر من الشعراء قديما وحديثا .

٢- تكشف بعض صورأبي تمام في وصف الدهر عن تعمقه وإغرابه وهما أصلٌ في مذهبه الشعري : يقول في هجاء عياش، وهو من قديم شعره:

يَا خِلقَة قد أمَالَ الدهرَ أشطرَها لم يكْفِهَا من عقَابِ اللهِ تغييرُ

لم يخْطِئِ الرأيَ غيلانٌ وشيعتَه إن لم تكُنْ أخطأَتْ فيكَ المقاديرُ [١]

قال التبريزي في شرح البيتين: "يريد أن غيلان أول من تكلم في القدر؛ لأن الكلام في ذلك لم يكن في صدر الإسلام، وتفرع من الكلام فيه القدرية، فكأن الطائي ينسب غيلان في هذا البيت، إلى أن يقول: إن الذي يخلق خلقة قبيحة، أو يكون له خلق مذموم ، غيرُ منسوب إلى أن المقادير فعلته"[٢].فأبو تمام يزعم أن الله عاقب عياشا فغير خلقته، ثم عاقبه الدهر مرة ثانية فأمال هذه الخلقة ، فاجتمعت عليه عقوبتان!!، ويزعم أن ما أصابه لم يكن عن قدر!!، إلا أن تكون المقادير أخطأت فيه!! وقوله:" إن لم تكن أخطأت فيك المقادير"، من جرأته التي وجدت عنده أمثالها[٣]. وهذان البيتان من قديم شعره، فهما يعبران عن ثقافته الكلامية المبكرة، وعن قلقه النفسي في وقت قولهما.

ومن تعمقه الدال على ثقافته، ومعارفه التاريخية قوله، في مدح مالك بن طوق التغلبي:

كانَ الزمانُ بكم كَلِبًا فغادركُم بالسيفِ والدهرُ فيكم أشهرُ حُرُمُ.

وهو لم يرد الكلبَ: الحيوان المعروف، على الأرجح، وإن زعم الصولي أنه أراده ، وأن المعنى أنكم تعدون على كل أحد كالكلب. وهذا عندي تأول بعيد، بدلالة آخر البيت. وإنما أراد أبو تمام – كما قال التبريزي وغيره– قبيلةَ: كلب، وكانت كلب، ووبرة، وقبائل من العرب لا تحرم

---

[1] ديوانه :٣٧٢/٤.
[2] السابق : ٣٧٣/٤.
[3] انظر هذا البحث : ١٤٦

الأشهر الحرم في الجاهلية، وكان معظم العرب يحرمونها، ولـــذا قـــال: كان الزمان بكم كلبا"، والخطاب لبني مالك، الذين أنْزَل بهـــم الممـــدوح عقابه، وردهم إلى جادة الطاعة". أي كنتم تستحلون من دماء غيركم ما استحلته كلب قديما، من إحلالها الأشهر الحرم، فغادركم الممدوح، وقـــد رد عن الناس أذاكم، وكسر شوكتكم، فصار الدهر كأنه أشهر حـــرم، لا قتل فيه، ولا إيذاء[1].

ومن تعمقه في بناء الصورة تشبيهه الزمان بالجمل الأجـــرب، فـــي قوله من مدحة في محمد بن عبد الله بن صالح الهاشمي:

أيُّ مداوٍ للمحلِ نائلهُ وهانئٍ للزمانِ مِن جَرَبِهْ[2].

فعطاء الممدوح يداوي من المحل، ويهنأ الزمان من جربـــه. وقـــولهم :هنأ من الجرب، من مألوف التصوير، ومـــن مبتذلـــه أيضـــا، ولكـــن الإغراب في نقل هذه الصورة إلى الزمان، وجعله يجْرَب كمـــا تجـــرب الإبل، ويطلى بالقار كما تطلى بالقار.

ومن تعمقه في الصورة قوله:في عزاء نوح بن عمرو بن نوح بـــن حَوِيّ بابنه:

سيأكلُنا الدهرُ الذي غالَ من ترَى ولا تنقضِي الأيامُ أو يؤكَلَ الدهرُ[3].

---

[1] من شرح التبريزي للبيت .

[2] ديوانه : ٢٧٠/١.

[3] ديوانه :٨٦/٤.

فأكل الدهر الأحياءَ: يعني به إفناءهم وإماتتهم ، ولكنه نزع إلى طرافة التصوير، فجعل الدهر آكلا، وجعل الناس مأكولين، وهو أشد إغرابا وتعمقا في قوله: أو يؤكل الدهر، أي: تنتهي الحياة، فعبر عن انتهاء الدنيا بأن الدهر يؤكل. وقد عبر عنه في مواضع أخرى بقوله: يفنى الدهر أو يموت الدهر، والمعنى واحد . ومن ذلك أيضا قوله في رثاء محمد بن حميد:

إن كانَ ريبُ الدهرِ أثكلنيهِمَ فالدهرُ أيضًا ميتٌ متكولُ[1].

ومن إغرابه وتعمقه في الصورة قوله من مدحة في المعتصم:

رواحِلنا قد بزهَا الدهرُ[2] أمرَها إلى أن حسِبنَا أنهُن رَوَاحِلُهْ[3]

فهو إنما أراد التعبير عن هزال هذه الرواحل، وذهاب لحمها وشحمها، والأكثر أن يقول الشعراء في هذا المقام: أهزلها السرى والأسفار، أو أنضتها الرحلة والبيد، ونحو ذلك. ولكن أبا تمام ينسب ذلك للدهر، ويجعله هو الذي يبتزها لحمها وشحمها وعافيتها، فنقد نزلت هذه الإبل إذن على حكم الدهر، الذي أراد إنضاءها وإهزالها، لا على حكم أصحابها ، الذين أرادوا بقاء عافيتها، ولذا قال:. إلى أن حسبنا أنهن رواحله"، أي: كأن هذه الإبل رواحل الدهر، لا رواحلنا، ولذا نزلت على حكمه ، لا على حكمنا.وأبو تمام هو القائل في بعير أهزلته الأسفار، وأكلت لحمه وشحمه البيداء :

---

[1] ديوانه :٤/١٠٥.

[2] هذه رواية والرواية الأخرى : بزها الهم .

[3] ديوانه : ٣/٢٥.

رَعَتْه الفَيَافِي بعدَ ما كَانَ حِقْبَةً   رعَاهَا وماءُ الروضِ يَنْهلُ سَاكِبُهْ

فجعل الصحراء ترعى هذا الجمل، بعد ما كان هو رعاها حقبة من الزمن. وهذا من بديع التصوير وشارده . فهو يتحامى مألوف الصور والمعاني كما ترى ما أمكنه ، ويكدح في طلب فرائدها ولطائفها.ومن تدقيقاته العجيبة الغريبة جعله الدهر فاعلا في نفسه، وكأنما لم يكفه أنه جعله فاعلا في الأحياء ، قال في إحدى مدائحه في المعتصم:

وفِي سَنَةٍ قد أنفَذَ الدهرُ عُظْمَهَا   فلم يُرجَ منها مَفْرَجٌ دونَ قَابِلِ[1].

يقول: إن هذا الفتح ، الذي وصفه وقع في سنة قد تصرم أكثر شهورها[2]. ولكنه جعل الدهر وهو زمن، هو الذي أنفد أكثر عمر هذه السنة، وهي أيضا زمن، فجعل الزمن فاعلا في الزمن، أي فاعلا في نفسه!!.وقال أبو العلاء في شرح البيت: "هذا كلام محمول على الاستعارة، وقد وقع فيه اختلاف، فالذي ينشد: عَظمها –بفتح العين–، قد لزم مذهب الطائي في العارية؛ لأنه جعل للسنة عَظما. وقد يمكن أن يكون العُظم هاهنا، عُظم من تشمله السنة، وهذا لا استعارة فيه. ومن روى: "مفْرَخٌ " فهو يحتمل أن يكون من فرخ الطائر؛ لأن الطير لا تفرخ حتى تشبع، والكسر –أي مفرِخ بكسر الراء– يراد به الطائر الذي يفرخ. والفتح – أي فتح الراء– يعني به الولد. ولو رويت مفرج من فرجت الأمر، أو مفرج من الفرج لجاز"[3].

---

[1] ديوانه :٣/٨٤.

[2] من شرح التبريزي للبيت .

[3] ديوانه : ٣/٨٤، ٨٥.

وعلى رواية عَظمها -بفتح العين- تكون الصورة أكثر تركيبا، وعمقا، وتدقيقا، لأنه يجعل السنة جسما، ويجعل لها عظما، ثم يجعل الدهر فاعلا فيها.

ومن تلطفه وتعمقه في بناء الصورة قوله في وصف برد خراسان:

يُمْنَى الزمانِ طوَتْ معروفَها وغَدَتْ   يسراهُ وهْي لنَا من بعْدِهَا بَدَلُ[1]

فإنه جعل الربيع بمثابة يمنى الزمان، والشتاء وبرده بمثابة يسراه، على ما جرت به العادة من امتداح اليمين ، وذم اليسار. وليس للزمان يمين ولا يسار على الحقيقة.، وإنما هو مجاز وتصوير.

ومن تعمقه الشديد أن يجعل الدهر الذي حمل الخلقَ أثقاله = يحمل هو الأثقال والأعباء، ويفكر فيما يحمله من أثقال وأعباء، بل ويجعل للدهر دهرا!!. يقول في مدح أبي المستهل محمد بن شقيق الطائي:

تَحَملتُ ما لو حُملَ الدهرُ شطْرَهَ   لفَكَّرَ دهْرا أيّ عِبْأَيْهِ أثقَلُ[2]

قال التبريزي في تفسير البيت : "أي أن الدهر الذي تحمل أثقال الخلق، لا يقدر على النهوض بشطر ما حملتُ ، فلو جمع ما استقللت به من الأثقال ، ثم جعل نصفين فقيل للدهر: احتمل أيهما شئت لبقي الدهر متفكرا أيَّ النصفين أثقل، فيتركه ويعمد إلى الأخف"[2]، وهذا من تدقيقه المفرط، الذي عيب عليه، وسنعود إليه..

---

[1] ديوانه :٥٢٦/٤.

[2] ديوانه :٧٤/٣.

وكثيرا ما يجعل أبو تمام الدهر مقهورا مغلوبا، يقهره ممدوحه، ويغلبه، ويستنقذ المحروبين ، المحروبين ، أمثال أبي تمام منه، وهذا كثير جدا في شعره الذي مَدَح به ، يَرِدُ على صور شتى، منها قوله لأحمد بن أبي دؤاد:

مَا أُبالي بَعدَ انبساطِكَ بالمعرو ... فِ مَن كانَ منهُم ذَا انقِبَاضِ
أنتَ لِي معقلٌ من الدهرِ وإن را ... بَ بريبٍ أو حادثٍ مَضَّاضِ[1]

وقوله في أبي سعيد الثغري:

إن فاضَ ماءُ المزنِ فضتَ وإن قسَت ... كبدُ الزمانِ عليَّ كنتَ رؤوفَا[2]

فجعل الممدوح معقلا يلاذ به من الدهر، وجعل للدهر كبدا تقسو كما للإنسان كبد تقسو. ومن أطرف هذه الصور، وأبدعها قوله في عبد العزيز بن عمر الطائي الحمصي:

مجردُ سيفَ رأيٍ من عزيمَتِه ... للدهرِ صيقلُه الإطراقُ والفكَرُ
عَضْبا إذا سَله في وجْهِ نائبةٍ ... جاءت إليهِ بناتُ الدهرِ تعتذرُ[3]

فهذه حرب من حروب الخيال بين ممدوحه والدهر، الممدوح فيها هو الظافر الغالب، وأسلحته فيها : العقل والتفكر، والدهر فيها هو المغلوب، المقهور على الاعتذار!!.

[1] ديوانه : ٢/٣١٥.
[2] ديوانه :٢/٣٨٣.
[3] ديوانه :٢/١٨٨.

وكان قد وقر في نفس أبي تمام، من تجاربه الكثيرة في ملاقاة الدهر في مصر وبعد مصر = أنه عاجز عن مقارعة الدهر وحده، أو مغالبته بنفسه، فكان مما يسره أن يرى ممدوحيه يقارعون الدهر، فيقرعونه، ويغالبونه فيغلبونه، ولا مقارعة للدهر ولا مغالبة على الحقيقة، ولكن كل من أعطته الدنيا، وطاوعته فيما أراد = غالبٌ للدهر في رأي أبي تمام، وكل من حرمته الدنيا، وحالت بينه وبين ما أراد – ومنهم أبو تمام عند نفسه – مغلوبٌ من الدهر، مقهور له. فهذا معنى من معاني نفس أبي تمام، وإن شئت جعلته من معاني المدح، ومن جملة حيل أبي تمام في استخراجِ مال ممدوحيه ، وإنه لكذلك .

٣- وقد يبني أبو تمام الصورة الدهرية من التشبيه ، أو الاستعارة ،أو منهما معا، وهذا كثير جدا في شعره. ومنه قوله في وصف خلعة أهداها إليه محمد بن الهيثم بن شبانة:

..قَصَبِيا تسترجِفُ الريحُ متنيـ ـه بأمرٍ من الهبوب مطَاعِ
رجَفَانا كأنه الدهرُ منه كبدُ الصب أو حشَا المرتاعِ[1]

فهو يصف قلق هذا الثوب واضطرابه، إذا حركت منه الريح ، وشبهه بالدهر في قلقه واضطرابه ، وبكبد العاشق الصب ، وبحشا المرتاع الخائف . والدهر في هذه الصورة مشبه به ، فكأنه صار أصلا في معنى القلق والاضطراب . وقال في حلة أهداها إليه الحسن بن وهب :

تركتْنِي سَامِي الجفونِ علىَ أزلَم دهرٍ بحسنِهَا جَذعِهْ
معاودَ الكبرِ والسموِ علىَ أعيادِه باذخًا علىَ جُمَعِهْ[1]

---

[1] ديوانه : ٣٤١/٢.

قال التبريزي: "الأزلم الجَذَع من أسماء الدهر، ..ويقال للدهر: جذع؛ لأنه جديد أبدا، مبيد كل شيء"[2]. فأبو تمام يزهو بهذه الحلة على الدهر، ويتكبر بحسنها على أعياده، ويبذخ على جمعه!، فجعل الدهر خصما يتكبر عليه. وكان الدهر أبعد شيء عن أن يشبه به في ذلك الموضع، لولا إلحاح الدهر على عقل أبي تمام وخياله.

ويقول في مطلع مرثية لغالب بن السعدي:

هوَ الدهرُ لا يشوِي وهن المصائِبُ   وأكثرُ آمالِ الرجالِ كواذبُ

قال التبريزي: "أصل الإشواء أن يرمي الرجل فيصيب الشوى، وهي القوائم، وذلك حطأ للغرض، إذ المراد هو القتل ثم كثر ذلك حتى قيل أشوى في معنى أخطأ "[3]. فبنى الصورة على الاستعارة كما ترى، واستعار للدهر من صفات الرامي بسهمه أو بنبله، ولم يكفه أن جعله راميا حتى جعله راميا يرمي فلا يخطئ.

وقد يبني الصورة على الاستعارة والتشبيه معا فيأتي بالصورة مركبة، كقوله من مدحة في مالك بن طوق التغلبي:

مجدٌ رعَى تلعَاتِ الدهرِ وهْو فتىً   حتى غَدا الدهرُ يمشِي مِشْيَةَ الهَرِمِ[4]

---

[1] ديوانه : ٣٤٨/٢.

[2] السابق والصفحة .

[3] ديوانه :٤٠/٤.

[4] ديوانه:١٨٧/٣. وانظر صورة أخرى لنفس المعنى في ديوانه : ٣٦٣/٢.

فالتلاع: جمع تلعة وهي: أرض مرتفعة غليظة ، يتردد فيها السيل، ثـم ينتدفع منها إلى تلعة أسفل منها، وهي مَكْرَمَـة مـن المنابـت. أو هـي :مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض . فـأبو تمـام جعـل للدهر تلعات، ثم عاد فوصفه بالفتوة حينا، وبالهَرَم حينـا آخـر، فنسـج الصورة من خيوط الاستعارة والتشبيه معـا. وإنمـا أراد أن يقـول: إن تغلب، التي منها الممدوح عزت وغلبت في أول الدهر وفي آخره، وفي قديمه وحديثه . . وقد قيل في المثل "فـلان لا يمنـع ذَنَـب التلعـة"، و يضرب هذا المثل للذليل من الرجال[1].

وقد واطأه البحتري على هذا المعنى فقال:

صحِبُوا الزمانَ الفرطَ إلا أنه هرِمَ الزمانُ وعزهم لم يهْرَمِ[2]

ومن طرافة الصورة الشعرية قوله من مدحة في محمد بن عبد الملك الزيات، يصف السفينة التي حملته إليه :

صارَت إليَّ بجؤجؤٍ ذي ميعة قـدم تدفُّ به وعجْزٍ مصْرَف
تَنْسَل في لجَجٍ حكت أغمارُهاَ فعلَ المحمدِ في الزمانِ المجحفِ[3]

فهذه السفينة تنسل به في أغمار الماء ولُجَجِه، المشـبهة فـي تلاطمهـا الزمانَ المجحف. فاللجج في هذه الصورة العجيبة كالزمـان أو الـدهر، والممدوح كالسفية، والسفينة تقهر لجج الماء، وتـرد عـواتي أمواجـه، والممدوح يقهر الدهر ، ويرد بعطائه عاتيَ أحداثه ونوبه.

---

[1] اللسان: (تلع)
[2] انظر الموازنة :١/٣٢٨.
[3] ديوانه : ٢/٣٩٧.

وقد جعل هذه السفينة في هذه القصيدة بُضْعَة شجرة، وبنتَ حديقــة، فقال:

حمَلَت رجَايَ إليك بنتُ حديقةٍ   غلباءُ لم تلقَح لفحلٍ مقرِفِ

وما أراه في هذا إلا وقد وقع على قصيدة الشماخ في القــوس، أو مــا يشبهها، ثم أخفى الصنعة، بنقلها من القوس إلى الســفينة. وقولــه فــي السفينة إنها "بنت حديقة " ، كقوله في الناقة: إنها "بنت الفضاء" في قوله:

بنت الفَضَاءِ متى تَخُد بِكَ لا تدَع   في الصدرِ فيكَ على الفلَاةِ غَليلاَ[1].

قال أبو العلاء: جعل الناقة بنت فضاء؛ لأنها معاودة للسير في الفضــاء، وهذا على مذهب قولهم: ابن قفر، وابن ليل، وهو في كلامهم كثير[2].

وفيما سبق دليل على تأصل النزعة التصويرية في شعر أبي تمــام فــي موضوع وصف الدهر، وفي غيره مــن الموضــوعات ، وهــذا أمــر كالمُجمَع عليه بين دارسيه قديما وحديثا..

٤- وقد يبعِد في الصورة ويُغرِب ، ويأتي فيها بما لم يأت به غيره من الشعراء، تعمقا منه وإلطافا للصنعة الشعرية . ومن ذلك قوله في مطلــع مدحة في أبي المستَهِل محمد بن شقيق الطائي:

تحملَ عنه الصبرُ يومَ تحـــمّلــوا   وعادَت صَبَاه في الصِّبَا وهْي شمألُ
بيومٍ كطولِ الدهرِ في عرضِ مثلِه   ووجْــدِيَ مــن هَذا وهذَاكَ أطْوَلُ[1]

---

[1] ديوانه :٦٨/٣.

[2] من شرح أبي العلاء للبيت في الموضع السابق .

قال أبو العلاء : "لما جعل للدهر طولا، وصله بالعرض على معنى الاستعارة، ولا حقيقة في أن يوصف الدهر بذلك، وإنما هو طويل لا غير. فأما العرض فإنما هو على الأماكن ، وما جرى مجراها. فأما الدهر فطويل، ما عُلم أن أحدا قبل الطائي وصفه بالعرض، ولكنه لما تقدم ذكر الطول استجاز أن يجيء بضده"[2].

وأبو تمام لا يغرب هنا فقط، بجعله للدهر عرضا، بعد أن جعل له طولا، ولكنه يغرب أيضا في تشبيه يوم الفراق، وهو زمن، بالدهر الطويل العريض، والدهر أيضا زمن. وكأنه لما رآهم يقولون في الدلالة على طول اليوم: يومه دهر ، أو ساعته دهر ، ونحو، قال كما قالوا، وجاء بذكر الطول والعرض، وهذه الصورة تكشف عن ثقافة أبي تمام، فقد أخذ – فيما يبدو – من مقالات أهل الهندسة والأشكال. ثم بالغ ما شاءت له المبالغة حين جعل وجده أطول من ذلك اليوم وهذا الدهر، ولنا عوْد إلى هذه الصورة .

٥- وربما بنى أبو تمام صورته الشعرية مما تتداوله العامة في كلامها، من ذلك قوله في عتاب عياش بن لهيعة، يعني نفسه:

نظرُ الزمانِ إليهِ قطَّع دونَه نظرَ الشفيقِ تحسُّراً وتلهفَا [3].

---

[1] ديوانه :٢/٧٢.

[2] السابق والصفحة .

[3] ديوانه :٤/٤٧١.

قال التبريزي: "العامة يقولون: نظر إليهم الزمان، إذا فعل بهم فعلا قبيحا، وقد استعملوا ذلك في العصر القديم، حتى قال الحكمي -يعني أبا نواس-:

نفسِي ترَى دهْرِي وليسَ يَرَانِي

وإنما هو اصطلاح من العامة؛ لأن النظر إلى الإنسان، ممن هو فوقه جائز أن يجلب إليه خيرا، أو شرا، والمعنى: أن الزمان لما نظر إليه، قطع دونه نظر الشفيق"[1].كذا قال التبريزي، وهو وجه سائغ في معنى البيت. ولا يبعد أن يكون هذا التعبير في أصله من اصطلاح الخاصة، ثم شاركتهم فيه العامة، فغلبت عليه، وابتذلته، و مثل هذا كثير في الكلام والشعر. وإذا كان النظر من غير الدهر، جائز أن يجلب خيرا أو شرا، فإن الدهر قد خُص عندهم بالشر أو كاد، فهو إما غافل عن الأحياء فهم منه في عافية وأمن، وإما ناظر إليهم، متنبه لهم، ولا يكون نظره وتنبهه إلا شرا.

وقد عبر أبو تمام عن هذا المعنى بصور أخرى منها: قوله من مدحة في ابن الزيات:

وإنك إن صد الزمان بوجهه لطلق ومن دون الخليفة باسل[2].

و قوله من قصيدة خاطب بها علي بن مر:

وأيامنا خزر العيون عوابس إذا لم يخضها الحازم المتلبب[1].

---

[1] من شرح التبريزي للبيت .

[2] ديوانه :٣/١١٩. وروي الخلافة مكان الخليفة .

فجاء في البيت الأول بمقابل قوله المتقدّم : "نظر الزمان إليــه إلــخ"، و أراد نفس المعنى. فنظر الزمان هناك دل على إيقاعه الضــر بالنــاس، والكيد لهم، وصرف الزمان وجهه هنا دل على إشاحته بوجهــه عــنهم، وتأخيرهم عما هو مستَحق لهم، وهذا من إيقاع الضر أيضا. وفي البيت الأخير استعار خزر العيون؛ لأنه من صفات العداوة كمـا قـال أبـو العلاء[٢]، وهذا تعبير ثان عن معنى نظر الزمان، فانظر كيــف تصــرف في المعنى الواحد، وجاء بهعلى صور متعددة..

***

مما أخذ على أبي تمام في تصويره الدهر:

وتعمق أبي تمام، وإغرابه في تصوير الدهر أوقعه أحيانا في ما عيب عليه، وفي التعمق الزلل كما قيل. وقد عقد الآمدي فصلا ذكر فيه ما في شعر أبي تمام من قبيح الاستعارات، عد فيــه اثنــين وعشــرين مثالا، خُص وصفُ الدهر منها، بعشرة أمثلة، ثم قال في آخرها: "وأشباه هذا، مما إذا تتبعته وجدته في شعره كثيرا . فجعل كما ترى سمع غثاثة هذه الألفاظ– للدهر أخدعا، ويدا تقطع من الزند، وكأنه يصرع، وجعلــه يشرق بالكرام، ويفكر، ويبتسم، وأن الأيام بنون لــه، والزمــان أبلــق، وجعل للمدح يدا، ولقصائده مزامير ، إلا أنها لا تنفخ ولا تزمر، وجعــل المعروف مسلما تارة، ومرتدا أخرى والحادث[٣] وغــدا، "وجــذب نــدى الممدوح بزعمه جذبة، حتى خر صريعا بين أيدي قصائده، وجعل المجد

---

[1] ديوانه ك١/٢٨٣.

[2] من تفسيره للبيت : السابق والصفحة .

[3] في الأصل : الحاث ، وهو تصحيف وانظر :١/٢٦٢.

مما[1] يجوز عليه الخَرَف، وأن له جسدا وكبدا، وجعل لصروف النـــوى قدا، وللأمن فُرُشا، وظن أن الغيث كان دهرا حائكا، وجعل للأيام ظهرا يركب، والليالي كأنها عوارك، والزمان كأنه صُب عليه ماء، والفـــرس كأنه ابن للصباح الأبلق. وهذه استعارات في غاية القباحـــة، والهجانـــة، والغثاثة والبعد عن الصواب"[2].

وقد حشَد الآمدي هنا أمثلة في وصف الدهر وفي غيره، وجمـــع بين المعيب الظاهر العيب من استعارات أبي تمام ، وبين ما يمكـــن أن يُدفع عنه فيه العيب ، بوجه من النظـــر أو التـــأول. وسأقتصـــر علـــى الأمثلة التي ذُكر فيها الدهر، وأنزلها في مواضعها من الحـــديث. وقـــد عاب هذه الأمثلة ، وغيرَها نقاد آخرون غير الآمدي، وانتصر له فيهـــا نقاد غيرهم .

فقد عاب ابن المعتز عليه قوله:

أَلا لا يمُد الدهرُ كفا بسيئٍ   إلَى مجتَدِي نصرٍ فتقطَع مِنَ الزنْدِ

وقال: "فتجاوز حد المدح، ولم يجئ بشئ في ذكر زند يد الدهر"[3]. وعـــد الآمدي أيضا هذا البيت من قبيح استعارات أبي تمام[4]. وزند يد الـــدهر، استعارة ، ليست حسنة الموقع من النفس عند سماعها، ولا لها في القلب حلاوة ولا عليها طلاوة ، والذي أغراه بأن يجعل للدهر يدا تقطـــع مـــن

---

[1] في الأصل : ما يجوز.. وأراه تصحيفا .
[2] الموازنة : ١/٢٦١-٢٦٥.
[3] الموشح : ٤٧٧.
[4] الموازنة :١/٢٦١.

الزند، فيما أرى هو قوله: "مجتدي نصر". فالمجتدي يمد للعطاء يدا. فجعل للدهر يدا، ولليد زندا. وتلك طريقته، ولو اقتصر أبو تمام على: أن جعل للدهر يدا، ما كان لأحد عليه متعلق. والشعراء يجعلون للدهر يدا ، فلا يعاب هذا عليهم، من أجل أنهم يجعلونه راميا و ينسبون إليه فعلا يفعله، ولكنه تعمّق، فجعل ليد الدهر زندا، وجعل هذه اليد تقطع من الزند ،أو للزند[1]، فوقع فيما عيب عليه.

ومن أشد ماعيب عليه جعله للدهر أخدعا في قوله:

يا دهرُ قوِّم من أخْدَعَيكَ فقَد أضجَجْتَ هذا الأنَامَ مِنْ خُرْقِك

وقوله من مدحة في الحسن بن وهب:

سأشكرُ فرجَةَ اللبَبِ الرخيِّ ولينَ أخادعِ الدهرِ الأبيِّ[2]

قال الآمدي: "وأما قول أبي تمام: ولين أخادع الدهر الأبي"، فأي حاجة دعته إلى الأخادع، حتى يستعيرها للدهر؟. وقد كان يمكنه أن يقول: ولين معاطف الدهر الأبي، أو لين جوانب الدهر، أو خلائق الدهر. كما تقول: فلان سهل الخلائق، وليّن الجانب، وموطأ الأكناف. ولأن الدهر قد يكون سهلا وحزنا، ولينا، وخشنا، على قدر تصرف الأحوال فيه، فإن هذه الألفاظ كانت أولى بالاستعمال، في هذا الموضع، وكانت تنوب له عن المعنى الذي قصده، ويتخلص من قبح الأخادع، فإن في الكلام متسعا.

---

[1] رواية الصناعتين : ٣٠٤: فتقطع للزند .

[2] ديوانه : ٣/ ٣٥٤.

ألا ترى إلى قوله –ما أحسنه وأصحه–:

ليالي نحن في وسنات عيش كأن الدهر عنا في وثاق
وأيــاما لنــا ولــه لــدانا غنينا في حواشيها الرقاق

فاستعار للأيام رقة الحواشي، وقوله:

أيامنا مصقولة أطرافها بك والليالي كلها أسحار

وأبلغ من هذا، وأبعد من التكلف، وأشبه بكلام الأوائل قوله:

سكن الزمان فلا يد مذمومة للحادثات ولا سوامٌ تُذعر

فقد رأيت كيف يخلط الحسن بالقبيح ، والجيد بالردئ، وإنما قبح الأخدع لما جاء به مستعارا للدهر، ولو جاء في غير هذا الموضع، أو أتــى بــه حقيقة ، ووضعه في موضعه لما قبح.."[1].

وقال: "ومن القبيح في هذا قوله:

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خُرقِكْ

فأي ضرورة دعته إلى الأخدعين؟، وقد كان يمكنه أن يقول: قــوم مــن اعوجاجك أو: قوم معوج صنعك أو: يا دهر أحسن بنــا الصــنيع؛ لأن الأخرق هو الذي لا يحسن العمل، وضده الصَّنَعُ"[2].

---

[1] الموازنة : ١/٢٦٩–٢٧٠.
[2] السابق : ١/٢٧١.

وعد أبو هلال قول أبي تمام: يا دهر قوم من أخدعيك ... البيت . من بغيض الكلام، وقال بعقبه: "ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهرا، والألفاظ إذا اجترت قسرا، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه، ولا في غرابة المعنى ، إلا إذا شرف لفظه، مع وضوح المغزى، وظهور المقصد.."[1].

والقاضي الجرجاني يميل إلى التماس العذر لأبي تمام، وغيره من الشعراء المحدثين، في أمثال هذه الاستعارات، إذا كان لذلك وجه يقربها من الإصابة، ويقيم لهم بعض العذر فيها ، ويرى أن مثل قول أبي تمام: يا دهر قوم من أخدعيك.. البيت"، إنما يريد به: اعدل ولا تجر، وأنصف ولا تَحِف، لكن لما رآهم، استجازوا أن ينسبوا إليه الجور والميل، وأن يقذفوه بالعسف والظلم، والخرق والعنف، وقالوا: قد أعرض عنا، وأقبل على فلان، وقد جفانا وواصل غيرنا، وكان الميل والانحراف إنما وقع بانحراف الأخدع، وازورار المنكب= استحسن أن يجعل له أخدعا، وأن يأمر بتقويمه.."[2] .وقد رد ابن سنان على القاضي رأيه هذا، وقال: إن المحدثين والقدماء في الأمر سواء ، والمحدثين أحق باللوم [3]. وقال عبد القاهر الجرجاني: إن لفظة الأخدع في بيت أبي تمام لها من الثقل على النفس ، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما لهذه اللفظة من الروح، والخفة ، والايناس ،والبهجة في قول البحتري:

---

[1] الصناعتين : ٦٠. وانظر : ٣٠٣.

[2] الوساطة:٣١٩. وانظر الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام:١٥٠، ١٥١.

[3] انظر : سر الفصاحة : ١١٦- ١٢٤.

وإنِّيْ وإنْ بلغتني شرفَ الغنَى   وأعتقتَ من ذل المطَامِعِ أَخْدَعِي"[1]

وقال ابن المستوفى في بيت أبي تمام قريبا من هذا [2].

فأكثر النقاد الذين ذكرتُهم -كما ترى- على عيب هذه الاستعارة، وانفرد القاضي الجرجاني من بينهم، بالتماس المخرج لأبي تمام فيها. والأخدعان -كما قال التبريزي-: "عرقان في العنق، ويقال للرجل إذا كان أبيا صعبا: إنه لشديد الأخدع، وقد استقام أخدعه"[3]. فاشتداد الأخدع كناية عن الصعوبة والإباء، ولين الأخدع كناية عن اليسر والانقياد.

ولم يخفَ على هؤلاء النقاد هذا المعنى، ولا ما قاله القاضي: من أن أبا تمام قصد أن يقول للدهر: اعدل ولا تجر، وأنه جعل له أخدعا؛ لأنه رآهم يقولون: قد أعرض عنا الدهر وأقبل على فلان..إلى آخر ما قال القاضي ، ولكن لأن ذِكْرَ الأخدع، واستعارته في هذا الموضع بعينه -وإن كان أبو تمام أراد به ما قاله القاضي= بغيضٌ إلى النفس، ثقيل على الذوق، كما قالوا. وقد تحسن استعارة اللفظ في موضع وتملح، وتقبح استعارته هو بعينه ، وتسمج في موضع آخر، وهذا بابٌ المعيارُ فيه الذوقُ السليم، والطبعُ المستقيم[4].

---

[1] دلائل الإعجاز : ٢٨١.
[2] النظام : ١٦٥.
[3] ديوانه :١/١٧٤.
[4] وانظر آراء أخرى في المسألة في : الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام : ١٥٦-١٥٩.

وكان ابن المعتز قد لاحظ قديما، أن أبا تمام يكثر مـــن ذكــر الأخدع، مع الدهر وغيره[1]. وقد قال أبو تمام :

فضَربتَ الشتاءَ في أخدعَيْهِ   ضَرْبَةً غادرتْه عَوْدا رَكُوبَا[2]

فجعل للشتاء أخدعا ، يضرب كما يضرب أخدع البعير ليلين ويذِل، وهو كسابقه في القبح، وقد عيب عليه أيضا.

ومما عيب عليه قوله من مدحة في محمد بن الهيثم بن شبانة:

فلو ذهبَتْ سناتُ الدهرِ عنه   وألقِيَ عن منا كبهِ الدثارُ
لعدل قسمةَ الأرزاقِ فيناَ   ولكن دهرَنا هَذا حمَارُ [3].

فقد عاب عليه الآمدي قوله: وألقى عن مناكبه الدثار"، وقال: إن عجز هذا البيت لا يليق بصدره، قال: وكان حقه أن يقول: فلــو ذهبــت سنات الدهر عنه، واستيقظ من رقدته، أو انتبه من نومتــه، أو نحوهمــا ليستقيم له معناه، لأن من كان ذا سنة أو نوم، أو مغطى على عينيـــه، أو وجهه لايبصر الرشد. فأما دثار المناكب، فليس من هذا الباب في شـــئ؛ لأن الإنسان قد يبصررشده، ويهتدي للصواب وعلـــى مناكبـــه الـــدثار، وعلى ظهره حمل أيضا.والتغطية تكون للفهـــم وإدراك الصـــواب، ولا يمنع الدثار على المناكب والظهر من إدراك الصـــواب، ولفـــظ الـــدثار يستعمل لمنع الهواء والبرد، لا لمنع الفهم والرشد".

---

[1] الموشح : ٤٨٠.
[2] ديوانه :١٧٤/١.
[3] ديوانه :١٥٤/٢.

وانتصر ابن المستوفى لأبي تمام في هذا الموضع ، وقـال: إن الآمدي عاب عليه هنا غير معيب، وأنكر غير منكر، لأن أبا تمـام أراد بالسنات حقيقة النوم، والنائم غالبا ما يتدثر بالـدثار ،واحـتج بقـول الله تعالى: "يا أيها المدثر* قم فأنذر".والآمدي إنما بنى نقده على أن أبا تمام قال :السِّنَات، ولم يقل النوم، والسِّنة: النعاس مـن غيـر نـوم، أو: أول النوم، أو: هي نعاس يبدأ في الرأس، فإذا صار إلى القلب فهو نوم[1]. وقد قال الله تعالى: لا تأخذه سنة ولا نوم"؛ ففرق بينهما. وعلى أن أبا تمـام قال: عن مناكبه الدثار، فإذا كان الدهر غير نائم، ولا مسـتغرق، فـلا يضره– لكي يعدل قسمة الأرزاق– أن يكون على مناكبـه دثـار، أو لا يكون[2]. وهذا نقد صحيح من هذا الوجه.

ومن رد على الآمدي، لم يأخذ بهذا التحقيق، في معنـى كلمـة السِّنات، وقال: إن أبا تمام أراد بها حقيقة النوم، وقد قال التبريـزي: "إن أبا تمام ذكر السنات هنا؛ لأنها تؤدي إلى النوم، والنـائم مـن شـأنه أن يتدثر"[3]. ولكل وجهة. فمَن حقق تحقيق الآمدي لم يرَ بُدًّا من أن يعيـب على أبي تمام هذه الصورة، ومن تأول تأوُّل التبريزي وابن المسـتوفى= وَجَدَ لأبي تمام مخرجا ومتسعا .وأنا إلى رأي الآمدي أمْيَل.

وذكر الصولي: أن مما عيب عليه في البيتين السـابقين قولـه: ولكن دهرناهذا حمار. قال: "وعاب من لا يدري عليه قوله: ولكن دهرنا هذا حمار" ، وأشعار الناس ليست كلها جيدة، لكن منها الجيد النـادر،

---

[1] اللسان : "وسن "

[2] انظر الموازنة :١/٢٣٥– ٢٧٦.

[3] من شرحه للبيت : ديوانه : ١٥٤/٢.

ومنها الوسط، ومنها الدون، فما جاز فليس بمعيب على أحد. ومن كـلام العرب : دهر عثور، وكابٍ، وزمان جزع وقارح، وزمان مائق، فقـال أبو تمام: "ولكن دهرنا هذا حمار" وهذا، وإن لم يكن جيدا نادرا، فلـيس بخطأ ولا معيب، وقد قال الأعشى:

فعَلَى مثلِها أزُور بـنِـي قيـــ ـــس إذَا شَط بالحبيبِ الفراقُ
المهينينَ مالَهم في زمانِ السـ ـــوْءِ حتـى إذا أفاقَ أفَاقوُا

وأخذه بشار فقال:

وما كنتُ إلا كالزمانِ إذا صَحَا صحوتُ وإن مَاقَ الزمانُ أمُوقُ.

وقالوا : دهرنا أعوج ، وبليد .وقيل للدهر ، إذا لج : كالبغـل الحـرون، والجمل الهائج ، إلى أشياء كثيرة من هذا[1].

والصولي من أشياع أبي تمام، والمنتصرين لـه كثيـرا، وهـو يتمحل -هنا- لأبي تمام عذرا، ويتلمس له مخرجا، وإن اعترف بـأن قوله هذا ليس من جيد الشعر. وليس قول من قال: دهر عثور، وزمـان مائق ودهر أعوج، أوبليد، ولا قولُ الأعشى: زمـان سَـوْء، أو قـول بشار: زمان مائق،= مماثلا لقول أبي تمام: دهرنا حمـار. ولا أعـرف أحدا قال: الدهر حمار غيره، وقد تسوغ الكلمة من المجاز في موضع ، ولا تسوغ غيرها، وإن كان المراد بها نفسَ معناها، وما كل لفظ يحسن أن يكون مستعارا .

ويقع في نفسي أن هذا اللفظ": "الدهرْ حمّار" ، كأنه ممـا وقـع على لسان أبي تمام ، من كلام العامة وأشباه العامة، وهو اللفـظ الـذي

---

[1] ديوانه : ٢/١٥٤. هامش (٣)

رأى فيه شفاءً غليله من الدهر، وبلوغ المدى في ذمه، وكان أبو تمام كما علمت شديد النقمة على الدهر.وقد كنت قلت من قبل[1] إنه ناظر إلى قول الله تعالى في اليهود الذين حملوا التوراة، فحملوها حمل أسفار، ولم يحملوها حمل فهم وعمل بما فيها: = "كمثل الحمار يحمل أسفارا"؛ لأنه إنما أراد وصف الدهر بالغفلة. فكأنه قال: إن دهرنا هذا غافل، ليناسب قوله المتقدم: إن الدهر وسنان ، قد ألقى عليه دثاره.

ومما عيب عليه قوله في عبد الحميد بن جبريل:

شكوتُ إلى الزمانِ نحولَ جسمي فأرشدَني إلى عبد الحميدِ[2]

قال التبريزي:"عابوا عليه –أي هذا البيت–، وقالوا: إنما يرشَد في نحول الجسم إلى الأطباء" . وقال المرزوقي منتصرا لأبي تمام، رادا قولَ عائبيه: "ليس يريد بقوله: شكوتُ نحولَ جسمي"، أن ذلك من عارض، أو علة، حتى يقال: مُشْتَكَاه يجب أن يكون للطبيب. وإنما نحل جسمه؛ لتأثير الضر فيه، وتسلط الفقر عليه، ولِمَا أخرجه إلى الترحّل، وأحوجه إلى التعمّل، المغير للبدن، الجالب للنحول والقَشَف. وإذا كان كذلك، فيجب أن يكون إرشاد المشكوّ إليه إذًا، يصح إلى الكرام الأسخياء؛ ليجبروا كسره، ويلموا شعثه، ويزيلوا هزاله وضمره، وبذلك يسلم البيت من الطعن.

---

[1] انظر هذا البحث : ١٤٦

[2] ديوانه : ١٣٣/٢.

وهذا الطريق كثير في الشعر، معتاد من الشعراء، عند وصف الدهر، وتأثيره بالمصائب والفقر والضر..، ألا ترى إلى قول أبي ذؤيب:

قالَتْ أميمةُ ما لجسمكَ شاحِبا   منذُ ابتذلتَ ومثلُ مالِكَ ينفَعُ

إلى غيره، مما يستغنى عن ذكره.."[1].وقد أصاب المرزوقي في رده، وقبل هذا البيت-وهما أول القصيدة-:

يدُ الشكوَى أتتكَ علىَ البريدِ   تمد بها القصائدَ بالنشِيدِ
تقلبُ بينَها أملا جديدا   تدرَّعَ خلتي طمعٍ جَديدِ

وبعده:

فجئتكَ راكبًا أملَ القوافِي   على ثقةٍ من البلدِ البعيدِ
أرَجي أن تكونَ مَحل يُسْرِي   ومنتَصَرِي على الزمنِ الكنودِ.

فدل ما قبل البيت، وما بعده على أن شكوى أبي تمام كانت شكوى فاقة وحاجة، لا شكوى علة ومرض، بدليل قوله: "..أملا جديدا تدرع حلتي طمع جديد، وقوله: "محل يسري، ومنتصري على الزمن الكنود". وكثيرا ما يخطئ النقد إذا انتزع البيت من سياقه.

وعد الآمدي من خطأ أبي تمام قوله:

بيومٍ كطولِ الدهرِ في عرْضِ مثِله   ووجْدِي من هذا وهذاك أطوَلُ؟

---

[1] ديوانه: ٢/١٣٣، ١٣٤.

قال: "فجعل للدهر -وهو الزمان- عرضا، وذلك محض المحال، وعلى أنه ما كانت به إليه حاجة؛ لأنه قد استوفي المعنى بقوله: "كطول الدهر"، فأتى على الغرض في المبالغة. فإن قيل: فلم لا يكون سعة ومجازا في الكلام؟ قيل: هذه الألفاظ صيغتها صيغة الحقائق، وهي بعيدة من المجاز؛ لأن المجاز في هذا له صورة معروفة، وألفاظ مألوفة معتادة، لا يتجاوز في النطق بها إلى سواها...".

وقال الآمدي ، بعد هذا كلاما كثيرا، واحتج لرأيه احتجاجا طويلا، قال في أثنائه: "..لأنك إذا قلت: مضى لنا في الخفض والدعة دهر طويل، وكان طوله كعرضه- لم يجُز ذلك؛ لأن هذا على هذا الترتيب، كأنه وصف للأشياء المجسمة، كما قال الطائي:

بيَوم كطُول الدهْرِ في عرَضٍ مثْله

فكان بهذا اللفظ ، كأنه يذرع ثوبا، أو يمسح أرضا.." . وختم احتجاجه الطويل بقوله: "وإنما تستعار اللفظة، لغير ما هي له، إذا احتملت معنى يصلح لذلك الشيء ، الذي استعيرت له، ويليق به، لأن الكلام إنما هو مبني على الفائدة، في حقيقته ومجازه، وإذا لم تتعلق اللفظة المستعارة بفائدة في النطق، فلا وجه لاستعارتها .

ولو كان الزمان يوصف بالعرض على الحقيقة -وهذا محال- لما كان له في بيت أبي تمام معنى؛ لأنه إنما أراد أن يبالغ في طول وجده، إذ كان الوجد إنما يوصف بالطول، كما يوصف به الشوق والغرام، ونحوهما فيقال: طال وجدي، وطال شوقي، وطال غرامي. وكذلك الزمان إنما يوصف بالطول، فيقال: طال ليلي وطال نهاري، فما

كانت حاجته إلى العرض، وهو إنما فضل وجده على الدهر، وعلى اليوم الذي جعله كالدهر، من جهة الطول لا من جهة العرض، ألا تراه قال:

ووجدي من هذا وهذاك أطول "[1].

وذهب أبوهلال العسكري في نقد أبي تمام هنا مذهبا قريبا مـــن مذهب الآمدي، مع تشابه واضح بين كلاميهما، حتى كأنهما من معـــدن واحد ، أو معين واحد [2].

والمرزوقي (٤٢١هـ) يدفع عن أبي تمام هذا العيب بجهـــده، ويرد على الآمدي (٣٧٠هـ)، فيقول: "وقد عيب على أبي تمام قوله:

بيوم كطول الدهر في عرض مثله

وقيل: جعل للزمان عرضا، مع أنه لا حاجة إليه، إذ كان بـــذكر الطول قد استوفى المعنى المقصود، وهذا من قائله ظلم صـــريح؛ لأنـــه سلك مثل طريقة كثير، من التشبيه بالمجسم (يريد قول كثير:

بِطَاحِيٌّ له نسَبٌ مُصَفًّى وأخلاقٌ لها عَرْضٌ وطُولٌ)

فلما قال في الأخلاق: لها عرض وطول، كذلك قال في الزمان: له طول كذا في عرض مثله، ولا فصل" .وكان المرزوقي قال قبيل هذا: "وهـــم يستعملون الطول والعرض على ضربين: أحدهما: في المجسمات، وذلك وصف لذهابها في الجهتين، والثاني: أن يراد بهما الاتساع للشـــيء، أو

---

[1] الموازنة ك١/١٩٦– ٢٠١

[2] الصناعتين : ١٢٧.

امتداد الوقت به، وهذا الوجه قد يستعمل في المجسم، وغير المجسم وأكثر ما يستعمل منه العرض من دون الطول. على هذا قولهم: نعمة عريضة، وجاه عريض، وقد قال الله تعالى: "وجنة عرضها السموات والأرض"، وقال: "فذو دعاء عريض". وربما جمعوا بينهما فقد قالوا: عشنا زمنا طويلا عريضا، والدهرَ الطويل العريض، يراد به الكمال والاتساع.."[1]

وأبو العلاء أيضا يتعقب أبا تمام في هذه الصورة، فيقول: "ولما جعل للدهر طولا، وصله بالعرض على معنى الاستعارة، ولا حقيقة بأن يوصف الدهر بذلك، وإنما هو طويل لا غير، فأما العرض فإنما هو على الأماكن، وما جرى مجراها، فأما الدهر فطويل، وما علم أحد قبل الطائي وصفه بالعرض، ولكنه لما تقدم ذكر الطول، استجاز أن يجيء بضده"[2]. وبين كلام أبي العلاء، وكلام الآمدي وجه شبه، وإن كان أبو العلاء يميل إلى التماس شيء من العذر لأبي تمام، من حيث إن ذكرأبي تمام الطول عنده ، هو الذي جره إلى ذكر العرض.

والآمدي عندي أصح حجة، وأدق نظرا، وأسد رأيا في هذه المسألة ، من مخالفيه. ومن الدارسين من ظن أن الآمدي في هذا يضيق واسعا، ويحجر على خيالات الشعراء، ويسد الطريق على التطور الشعري[3]، وما أراه فهم مقالة الآمدي، ولا وعاها.

---

[1] شرح الحماسة : ٧٤٤/٢، ٧٤٥.

[2] من شرحه للبيت : في ديوانه : ٧٢/٣.

[3] الدكتور : محمود الربداوي : الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام : ٢١٠.

وليس الخطأ -فيما رأى الآمدي ونراه معه- في أن يُجعل للدهر عرضٌ مع الطول، في الموضع الذي يصلح أن يوصف فيه الدهر بالعرض والطول معا، إشارة إلى تمامه وكماله، ولكن الخطأ في أن يذكر العرض مع الطول في هذا الموضع بعينه، بهذا اللفظ بعينه : "كطول الدهر في عرض مثله"، لأن ذكره -أي العرض- لا يزيد في معنى طول الدهر شيئا، وهو المراد من الكلام، فأين الظلم البين في هذا؟ وأي تضييق في هذا، وأي حَجْر؟.

ويبدو لي أن أبا تمام قد وقف على مقالة أهل الهندسة، وذكرهم: (الطول×العرض) ، فاستطرف هذا، فسقط إلى لسانه، ووقع في وهمه أن قوله: "..كطول الدهر في عرض مثله"، مما يزيد في معنى طول الدهر، ويزيد في طول يوم الفراق بالتبعية، وهو مراده من الكلام.

ومما عيب عليه قوله من مدحة في أبي سعيد الثغري، يذكر نساء:

آرَامُ حَيٍّ أنزفتهُم نيَّةٌ تركتْكَ من جمْرِ الفراقِ نَزِيفَا
كانوا برُودَ زمانِهم فتصدعْوا فكأنما لبِسَ الزمانُ الصوفَا

فقد ذكر الآمدي هذين البيتين ، وثلاثة أبيات قبلهما ثم قال: "وهذه معان جيدة لائقة، إلا قوله: "لبس الزمان الصوفا"، فإن الناس جميعا استهجنوه، ولو كان اعتمد ألا يترك قافية على الفاء إلا أوردها= لما كان ينبغي أن يذكر الصوف ، وخاصة على هذا الوجه"[1].

---

[1] الموازنة : ٢/٨٩.

وقال الصولي: "ويروى: "كانوا رداء زمانهم"، وقد عـاب هـذا عليه قوم فقالوا: كيف يلبس الزمان الصوف؟، وهذه استعارة، يقول: كان حسنا بهم، فكأنه بعدهم توحش. ثم يقال لهذا العائب، فقد قال آخر(وهـو بشار):

وما كنتَ إلا كالزمانِ إذا صَحا صحوتَ وإنْ ماقَ الزمانُ أموُقُ

فكيف يكون الزمان أحمق؟ ونظائره أكثر من أن تحصـى. ومعنـاه أن الصوف من لبس الحزن، كما أن البرود والأردية من لـبس السـرور، فكان الزمان صار سروره حزنا بعدهم"[1]. وقد فسر الخـارزنجي هـذه اللفظة بقوله: "كأن الزمان لبس فروا مقلوبا ، يستشنعه الناظر، بعد مـا كان يتزين بهم" وعلق عليه ابن المسـتوفي بقولـه: "ومـا فسـره بـه الخارزنجي أقبح ، مما اعتذر له به الصولي"[2].

وقد أجهد الصولي نفسَه في غير طائل، فليس العيب فـي هـذا البيت، من جهة غموض المعنى، واستعصاء اللفظ؛ فينبري هو لتوضيح معنى قول أبي تمام : "فكأنما لبس الزمان الصوفا"، ولكن العيـب فـي سماجة هذه الاستعارة، وما يشك ذو ذوق سليم في أنها استعارة سـمجة، لا تقع من النفس عند سماعها موقعا حسنا.

وليس موّق الزمان وحمقه في بيت بشار، من جنس قـول أبـي تمام : "لبس الزمان الصوفا"؛ فيحتج لأبي تمام به. وإنما أغـراه بهـذه الاستعارة الباردة، قوله في أول البيت : كانوا بـرود زمـانهم، أو رداء

---

[1] ديوانه: ٢/٣٨٠.

[2] السابق والصفحة : حاشية (٣) ، (٤) .

زمانهم". وأكثر سقطات أبي تمام تأتي من هذا الوجه. وقد نقل الآمـــدي قول شيوخه في أبي تمام: "إنه يريد البديع فيخرج إلى المحال"[١]. وهــذا حق في بعض شعره، ولكنه يطلبه أيضا فيع على الدر المصون ، ويأتي بالبديع المعجب.

ومما عابه عليه الآمدي، وعده من قبيح استعاراته[٢] قوله:

تَرُوح علينَا كل يومٍ وتغتَدِي خطوبٌ كان الدهرَ منهن يَصْرَعُ

وروى محمد بن عمرو ، عن ابن الخثعمي الشاعر، قال: "جُن أبو تمــام في قوله:

تروح علينا كل يوم وتغتدي خطوب كأن الدهر منهن يصرع

أيصرَعُ الدهر؟ قال: فقلت له: هذا بشار يقول:

وما كنتَ إلا كالزمانِ إذا صَحَا صحوتَ وإن ماقَ الزمانُ أموقُ

قال: فسكت. فقلت له: وأبوك يقول:

وليِّن لي دهرِي بإتْباع جوده فكدتُ للين الدهرِ أن أعقِدَ الدهرَا

الدهر يُعقد؟ .قال فسكت"[٣].

---

[1] الموازنة :١/٢٢٩.

[2] الموازنة :١/٢٦١.

[3] أخبار أبي تمام : ٢٤٨.

وموق الدهر، وعقده ليسا عندي في درجة القبح ، كصرعة الدهر في بيت أبي تمام . ولما كان المصروع لا يعقل، ولا يدري بما أحاط به، جعل أبو تمام الدهر كأنه يصرع؛ لأنه عنده ، غافل عما ينزله بالناس من خطوب، غير عادل فيما يلحقه بهم من شرور. ويخفف من قبحها قوله: يكاد.

ومن اعتماده كلام العامة في صوره الشعرية،-وقد عيب عليه- قوله من مدحة في المعتصم:

جلّيتَ والموتُ مبْدٍ حر صفحتِهِ وقد تَفَرْعَنَ في أوصالِهِ الأجَلُ[1]

وتفرعن هنا ، كما قال أبو العلاء وغيره كلمة ليست بالعربية المحضة، وإنما هي مما لاكته العامة بألسنتها، والفراعنة جبابرة مصر، فقيل: لكل جبار قد تفرعن على التشبيه، فاستعار أبو تمام ذلك للأجل وهو : الموت[2].

والآمدي يحمل حملة شديدة على أبي تمام من أجل هذه اللفظة وأشباهها فيقول: "وقد أغراه الله بوضع الألفاظ في غير موضعها، من أجل الطباق والتجنيس،الذين بهما فسد شعره ، وشعر كل من اقتدى به. وقوله: " وقد تفرعن في أفعاله الأجل"،معنى في غاية الركاكة والسخافة، وهو من ألفاظ العامة، وما زال الناس يعيبونه به ،ويقولون: اشتق

---

[1] ديوانه :١٦/٣. وفي روايه : أفعاله بدل أوصاله ، والأوصال المفاصل .

[2] من شرح أبي العلاء للبيت في : ديوانه :١٦/٣. وانظر الحاشية ففيها مزيد تفصيل.

للأجل، الذي هو مطل على كل النفوس فعلا ،من اسم فرعون، وقد أتى الأجل على نفس فرعون، وعلى نفس كل فرعون، كان في الدنيا " [1].

والآمدي كما ترى لايعيب هذه اللفظة من أجل عاميتها، ولكن لخطأ في أصل الاستعارة؛ لأن فيها استعارة الناقص في الصفة للكامل فيها، والأصل أن يستعار الكامل في الصفة للناقص فيها – وكذا في التشبيه– حتى يكون للاستعارة أو التشبيه معنى، وهذا معنى قول الآمدي: "إن الأجل أتى على نفس فرعون، وعلى نفس كل فرعون كان في الدنيا". وواضح أن هذه اللفظة مما سقط على لسان أبي تمام مدة مقامه بمصر، وما زال الناس عندنا في مصر إلى الآن يقولون لكل متكبر ، عال في الأرض: قد تفرعن فلان.ومنه قولهم : (قالوا لفرَعْوُن مِين فَرْعَنك ، قال: مَ لقيتش حَد يردني) .

وقد حاول الآمدي، أن يقدم تفسيرا لأمثال هذه الاستعارات المعيبة، عند أبي تمام فقال: إنه وجد في أشعار القدماء أشياء من بعيد الاستعارات، قليلة متفرقة: من مثل جعل ذي الرمة للدجى يافوخا في قوله:

تيمَّمْن يافوخَ الدجى فصدعنَه   وجوزَ الفلا صدعَ السيوفِ القواطعِ

وجعَل تأبط شرا للموت أنفا في قوله:

نحُزُّ رقابهم حتى نزَعْنا   وأنفُ الموتِ منخَرُه رثيمُ [2]

---

[1] الموازنة ٢٣٩/١.

[2] رثيم : أي مكسور .

وجعل ذي الرمة للكبرياء أنفا في قوله:

يُعِز ضعافَ القوم عزةَ نفسِه ويقطَع أنفَ الكبرياءِ عَن الكبرِ

وجعل معقل بن خويلد الهذلي للّحْيَة أنفا في قوله:

تخاصمُ قوما لا تلقّى جوابهم وقد أخذَت من أنفِ لحيتِكَ اليدُ

وجعل ذي الرمة للصيف أنفا في قوله يصف حمارا:

إذا شم أنفُ الصيفِ ألحق بطنَه مراسُ الأوابي وامتحانُ الكوائم

ونقل الآمدي عن ابن المعتز في كتابه: "سرقات الشعراء" قوله: "وبهذا البيت -يعني بيت ذي الرمة الأخير- اغتر الطائي، حتى أتى بما أتى به " - أي من معيب الاستعارات-. وذكر الآمدى: أن ذا الرمة لم يرد بأنف الصيف الأنف منه على الحقيقة ، وإنما أراد: أوله، والمقدّم منه.[1]

وأما شتم أبي تمام الدهر، وإتيانه في ذلك بما لم يرد في شعر غيره، من مثل جعله الدهر حمارا ومغفلا، وأخرق وغير ذلك مما تقدم ذكره، فيرى الآمدي أن بعض القدماء كان ربما أتى بالشيء من ذلك تملحا، كالذي جعل للدهر استا في قوله يذم رجلا:

ما زالَ مذمُوما على استِ الدهرِ ذا حسَد ينمِي وعقل يحْرِي

[1] الموازنة : ١/ ٢٧٢، ٢٧٣.

والذي جعل له ظهرا أجب، ومعرفة حصاء، ولونا ذا عثانين، و شبه جبهته بجبهة قرد، وجعل له أنفا مجدعا، وهو شاتم الدهر، من شعراء عبد القيس، في قوله يذم الدهر:

ولما رأيت الدهر وعرا سبيله	وأبدى لنا ظهرا أجب مسلعا
ومَعْرَفَةً حصاء غيرَ مُفاضة	عليه ولونا ذا عثانين أجدعا
وجبهة قرد كالشِّراك ضئيلة	وصعِّر خديه وأنفا مجدعا.

قال الآمدي: "وهذا الأعرابي -يعني شاتم الدهر- إنما تملح بهذه الاستعارات، في هجائه للدهر، وجاء بها هازلا. ومثل هذا في كلامهم قليل جدا، ليس مما يعتمد ويجعل أصلا يحتذى عليه، ويستكثر منه، ويستعمل في الجد كما يستعمل في الهزل"[1]. وقد كرر أبو هلال العسكري ما قاله الآمدي هنا، أو قريبا منه[2].

والآمدي -كما ترى- يعيب على أبي تمام: أنه أساء فهم هذه الاستعارات البعيدة في أشعار الأوائل، فحملها على التحقيق، وهم لم يريدوا بها ذلك. وأن هذه الاستعارات البعيدة، كانت قليلة متفرقة في أشعار الأوائل، فأكثر هو منها، وأفرط في متابعتهم عليها. وأن بعض هذه الاستعارات جاءت منهم على سبيل التملح والهزل، فاتخذها هو أصلا احتذى عليه، واستكثر منه، وجاء بها في الجد والهزل معا.

والآمدي مُحِق في أن أبا تمام أكثر من أمثال هذه الصور، التي شتم فيها الدهر، وفي أن بعضها جاء في موضع الجد لا الهزل. ولو لم

---

[1] الموازنة : ١/٢٧٤، ٢٧٥.

[2] الصناعتين : ٣٠٣.

يكثر منها، ولو كان جاء بها على سبيل التملح والتفكـه، فـي أهاجيـه الهزلية، وغضبات نفسه، وسخرياته المرة، لكان من العدل أن يلتمس له من العذر، مثل الذي التمس لغيره من القدماء.

وأبو تمام خط في بيداء الشعر سبيلا قل سالكوها قبلـه، وكـان كما وصفه أبو العلاء ".. صاحب طريقة مبتدعة، ومعان كاللؤلؤ متبعة، يستخرجها من غلص بحار، ويفض عنها المستغلق من البحـار". ومـن كان كذلك تغتفر له العثرات، وتتأول له الزلات ما أمكن ، كمـا تحمـد بدائعه ، وتستحسن فرائده. وحسب هذه السبيل الجديدة أن تأتينـا بمثـل قوله في وصف جمل أهزله السير:

رعتهُ الفيافي بعد ما كان حقبة رعَاها وماءُ المزنِ ينهل ساكِبهُ

وقوله يذم البغي:

لا تجعَلوا البغيَ ظهْرا إنه جَمل من القطيعةِ يرعَى وادِيَ النقَمِ[1]

وقوله في وصف البلاد:

فإذا تأملتَ البلادَ رأيتَها تُثري كما تُثري الرجالُ وتعدِمُ[2]

وأمثال هذه البدائع كثيرة في شعره. فلولا ما حمـل نفسـه عليـه مـن الإبداع،الذي جاءنا بمعائبه، لما جاءنا من غـرره ودرره مـا جاءنـا، والغرم بالغنم كما قيل.

---

[1] ديوانه :٣/١٩٢.

[2] ديوانه :٣/١٩٥.

المعاني الدهرية في اختيارات أبي تمام:

وقول الآمدي وأبو هلال: إن أبا تمام غرَّه ما وجد في أشعار الأوائل من شعر، ذكروا فيه الدهر وذموه، وأتوا فيه ببعيد الاستعارات، وغريب المجازات- أغراني باستخرج المعاني الدهرية في اختيارات أبي تمام في هذا الموضع ؛ لأرى أثر معاني السابقين من الشعراء في معانيه، وتصويرهم الشعري في تصويره الشعري، وما اتكأ فيه من المعاني والصور على نفسه وطبعه، وما تبع فيه غيره، واتكأ فيه على سواه ، ولأختبر صحة ما قال الآمدي وأبو هلال وغيرهما.

ولست أقول إن أبا تمام اشتكى الدهر، لأن من سبقه من الشعراء اشتكوا أدهرهم، فليس هذا موضع تقليد، وإنما أقول: قامت عند أبي تمام دواعي الشكوى، من الدهر فاشتكي، كما قامت عند غيره من الشعراء دواعي الشكوى، فاشتكوا .وأبو تمام كما علمت واسع الرواية، لشعر السابقين عليه، واختياراته من أشعار الجاهليين، والإسلاميين، والمحدثين دليل ذلك وقد ذكرتها فيما تقدم ، وهو مع هذا حسن الأخذ لأكثر ما يأخذ، واسع الحيلة في إخفاء ما أخذ ،حتى ليشتبه ذلك إلا على البصير.

وقد حدث احمد بن عبد الله ، المعروف "بطمَاس" قال: "كنت عند عمي إبراهيم بن العباس، فدخل عليه رجل، فرفعه حتى جلس إلى جانبه، أو قريبا منه، ثم حادثه إلى أن قال له: "يا أبا تمام ومَن بقي ممن يعتصم به ويلجأ إليه؟!" فقال: "أنت فلا عدمت"- قال: وكان إبراهيم تاما- فأنشده:

يمد نجـادَ السـيفِ حـتى كأنما   بأعلَـى سـَـنَامي فالِـج يتطَوحُ
ويدلِج في حاجـاتِ من هو نائمٌ   ويُورِي كريماتِ الندَى حين يقدحُ
إذ اعـتَم بالبُـرد اليماني خلتَـه   هلالا بدا في جانبِ الأفـقِ يـلمحُ
يزيدَ علَى فضلِ الرجالِ فضِيلة   ويقـصُـر عنه مدحُ من يُتَمَـدحُ

فقال له: أنت تحسن قائلا، وراويا، ومتمـثلا. قـال فلمـا خـرج- أي أبوتمام- تبعته فقلت: أملِ علي هذه الأبيات فقال: هي لأبي الجويريـة العبدي، يقولها للجنيد بن عبد الرحمن، فأخرجتها مـن شـعره"[1]. فهـذه الأبيات، وإن لم تخف على إبراهيم بن العباس، قد خفـي قائلهـا علـى طماس، وهو من رواة الشعر. وقول إبراهيم لأبي تمام: "ومن بقي ممـن يعتصم به، ويلجأ إليه؟" يدل على أن أبا تمام كان يشكو قلة مـن بقـي، ممن يعتصم به، ويلجأ إليه، وهو من أسباب شكواه من الدهر.

وقد وجدت كثيرا من المعاني والصور، التي ذكرها أبو تمام في حديثه عن الدهر، - في أشعار السابقين عليه، ووجدت بعضا منها فيمـا كان تخيره أبو تمام نفسه، من أشعار الأوائل .

ومما ختاره :قول فروة بن مسيك المرادي:

ومَن يغرُرْه ريبُ الدهر يوما   يجِد ريبَ المنونِ له خؤُونَا

وقول عباد الصيداوي:

وكم حصْحَص الدهرُ عن روضَة   وتَنْهِـيَةٍ نـاعـمٍ بـالُهَـا
وفـرَّق مـن أنـَسٍ صالحيـــ   ــنَ فتلك المنوُن وأفعالُهَا

---

[1] أخبار أبي تمام : ٢٧١، ومالي المرتضى : ٤٨٢/١.

وقول أبي العتاهية:

طوتك صروفُ دهرك بعدَ نشْر كذاكَ صروُفُه نشْرا وطيا

وقول آخر:

وقاسمنِي دهرِي بنيَّ بشطرِه فلما تقضَّى شطرُه عادَ في شَطْرِي

وقول الفارعة بنت طريف:

ألا يا لقومِي للحمامِ وللردَى ودهرٍ مُلِح بالكرامِ عنيفِ

وقول سلمة بن عياش:

فإن يك ريبَ الدهر قد حالَ دونَه ففـات بوتـر ليس يدرك طالبُهُ

فمثـلي نهـاه صبرُه وعزاؤه ومثلُك لا ينساهُ ما عاشَ صاحبُهُ

وقول بشار :

ذراني أُشبُّ همي براحٍ فإنني أرى الدهـر فيه كُربة ومضيقُ

وما أنا إلا كالزمانِ إذا صَحا صحوتُ وإن ماقَ الزمان أموقُ

وقول أبي محجن:

ألم تر أن الدهر يعثُر بالفتَى ولا يملك الإنسانُ صرفَ المقادرِ

وقول آخر:

الدهرُ أبلاني وما أبليتُه والدهـر غيَّرني وما يتغيرُ

والدهر قيدني بقيد مُبرمِ فمشيتُ فيه وكل يوم يقصُرُ

وهذا مما اختاره أبو تمام في الوحشيات[1] .

---

[1] الوحشيات : ٢٨، ٧٠، ١٣٢، ١٣٩، ١٥٠، ١٥٦، ١٦٤، ١٩٢، ٢٩١.

ومما اختاره في الحماسة الكبرى [1] من الأشعار الدهرية قول جزء بن ضرار:

وحدثتَ قومي أجدثَ الدهر فيهم   وعهدهم بالحادثاتِ قريبُ
فإن يَكُ حقا ما أتاني فإنهم   كرامٌ إذا ما النائباتُ تنوبُ

وقول طرفة:

أرى الدهرَ يعتام الكرامَ ويصطفي   عقيلةَ مال الفاحشِ المتشددِ

وقول خطاب بن المعلى:

أنزلني الدهرُ علَى حكمِهِ   من شامِخ عَالٍ إلى خفضِ ..
وغالني الدهر بوفر الغنَى   فليس لي مال سوَى عرضِي

وقول آخر في ابن عم له:

إعان عليَّ الدهر إذ حك بَرْكَهُ   كفَى الدهرُ لو وكلتَه بي كافِياَ.

وقول الفند الزماني وهو جاهلي قديم من شعراء ربيعة:

ولا تُبْقي صروفُ الدهـ   ـر إنساناً اعلى حَالِ

وقول عبد الله بن عنمة وهو مخضرم شهد القادسية:

أبلغ بَني الحارث المرجو نصرُهمُ   والدهرُ يحدث بعد المِرة الحَالاَ.

وقول قتادة بن مسلم الحنفي وهو جاهلي:

ما كنتُ أولَ من أصابَ بنكبة   دهرٌ وحي باسلونَ صميمُ

---

[1] الحماسة : ١/ ٣٤٤، ٣٤٥، ٢٨٥، ٢٩٣، ٢/ ٥٤٠، ٥٨٢، ٧٦٦، ٧٧٥، ٣/ ١٠٧٦، ١٠٧٤، ١١٤٥، ١٢٠٨.

وقول الأعشى:

يا دهرُ قد أكثرتَ فجْعتنا   بسراتنا ووقرتَ في العَظْمِ.

وقول جريبة بن الأشيم الفقعسي، وهو جاهلي أسلم:

إذا الدهرُ عضتكَ أنيابهُ   لدَى الشر فازِمْ به ما أَزِمْ

ولا تلفَ في شره هائبا   كأنــك فيــهِ مسِر السقَمْ

وقول رجل من كلب:

لحَى الله دهرا شره قبلَ خيرِه   ووُجْدا بصيفي أتَى بعدَ مَعْبَدِ

وقول أعرابي:

لحىَ الله شرا شره قبل خيره   تقاضَى فلم يُحسِن إلينا التقَاضِيَا

وقول عقيل بن علفة:

وللدهر أثوابٌ فكُن في ثيابِه   كلُبسَتِه يوما أجَدَّ وأخْلَقَا

وقول الفرزدق:

إذا ما الدهرّ جَرّ على أناسٍ   كــلاكلَه أناخَ بآخَرِينا

وإذا أنت تأملت هذه الأشعار الدهرية التي تخيرهَا أبــو تمــام، وجدتَ فيها من الألفاظ المعبَّر بها عن الدهر: الــدهر، وريــب الــدهر، وصرف الدهر، والزمان. وقد استخدم أبو تمام هــذه الألفــاظ وغيرهــا للتعبير عن الدهر. وإذا تأملتها مرة ثانية وجــدت فيهــا مــن المعــاني الدهرية: شكوى الدهر والتوجع منه، وظلم الدهر وجوره فــي حكمــه، والعجز عن مقارعة الدهر، ومحاولة التجلد للدهر، وتقلب الدهر وتلونه، والدعاء على الدهر. وهذه كلها من المعاني التي طرقها أبو تمــام فــي حديثه عن الدهر.

وإذا أنت تأملت تلك الأشعار مرة ثالثة ، وجدت فيها من الصيغ الدالة على فعل الدهر ، قولهم : "حصحص الدهرُ ، و"طوت صـــروف الدهر" ، و"الدهر غيرني" ، و"الدهر قيدني" ، و"الدهر يعتــام الكـــرام" ، و"أنزلني الدهر على حكمه" ، و"أعان علي الدهر "، و"يا دهر قد أكثرت فجعتنا ، ووقرت في العظم" ، و"إذا الدهر عضتك أنيابه" . ووجدتهم قـــد نعتوا الدهر بالخيانة، ونسبوا إليه الحمق، وجعلوا له أثوابا تتبدل، وخيرا وشرا، وأنيابا يعض بها، وبركا يحكه، وقيدا يقيد به، وصـــحوا وموقًـــا، وغير ذلك .وكل هذا هذا رأيناه ضمن الصيغ التي عبر بها أبو تمام عن فعل الدهر، والصور التي صوره بها.

فالشبه قائم إذن بين بعض معاني أبـــي تمـــام وصـــوره فـــي موضوع الدهر،و بين بعض معاني ما اختـــاره مـــن شـــعر الشـــعراء السابقسن ،الذين اختار لهم، وصورهم الشعرية. وهذا التشـــابه القـــائم لا يدفع أبا تمام أبدا عن أن تكون له الفضيلة، فيما أفترعه هو من المعاني، واخترعه من الصور، في حديثه عن الدهر.

وبعد هذا التطواف الذي أجهدتُ فيه النفس ، وبذلت فيه الوسع= فقد انتهى هذا البحث ،بتوفيق من الله تعالى إلى جملة من النتائج العلمية منها:

١. أن الأشعار الدهرية في دواوين الشـــعراء العـــرب القـــدماء والمحدثين، لم تنل ما تستحقه من الدراسة، مع وجود إشارات في شروح الشعر، وكتب الأدب = إلى موضوع: الدهرية في الشـــعر. وحقهـــا أن تُولَى مزيدَ عناية؛ لأنها مواضيع جيدة وطريفة، تكشف عـــن جوانـــب من: حيوات هؤلاء الشعراء، ونفسياتهم، وعقائدهم، وثقافتهم، و عـــن جوانب أخرى من: عصورهم، وبيئاتهم، وما فيها من أحداث.

٢.أن حديث: الدهرية في الشعر الجاهلي يفضـي بالـدارس لا محالة إلى عقائد العرب في الجاهلية، وحقيقة تصورهم للموت والهـرم، وفاعلهما على الحقيقة، فدهريتهم دهرية اعتقاد؛ لما أخبـر بـه القـرآن عنهم، ولولا هذا ما كان لنا أن نعرف حقيقـة معتقـدهم فـي الـدهر، ورؤيتهم للموت والهرم وما أشبههما. أما دهرية الشعراء في الإسـلام – ومنهم أبو تمام – فهي دهرية لسان، لا دهرية معتقد، ويستثنى من ذلـك مَنْ صح الخبر عنه بأنه من زنادقة الشعراء، وقامت الأدلـة علـى أن دهريته في كلامه وأشعاره مثل من نسب إلى ذلك من الشعراء العباسيين ومن بعدهم.

٣. أن أبا تمام قد أربى على كل من تقدمه ، أو جاء بعـده مـن الشعراء أو كاد – في حديثه عن الدهر وفعله. وفي بيان ذلك الصـراع الدائم بين الإنسان والدهر. وهذا يكشف عن المنزع الفكري عنـد أبـي تمام ، وعن مقدار القلق النفسي الذي كانت تنطوي عليـه نفـس هـذا الشاعر العبقري الحساس .

٤. أن المدة التي قضاها أبو تمام في مصر، كانت حاسمة فـي تلوين نفسه بلونها النفسي الغالب عليها، وهو: الشكوى من الدهر وفعله، والإكثار من لومه وذمه. فصارت الشكوى من الدهر وذمه حالة ملازمة له، في سائر أدوار حياته، وأطوار عيشه، وأصبحت صوتا يتردد فـي سائر أغراض شعره. ولولا الاستعداد النفسي عند أبي تمام لـذلك ،لمـا تركت فيه تجربته في مصر كل هذا الأثر.

٥. أن أبا تمام ولّد توليدا كثيرا في معاني الدهر، و تفنن تفننا وضحا في تصويره، والتعبير عن سوء فعله في الأحياء، وزاد في ذلك علـى مـن تقدمه من الشعراء، وجاء في ذلـك بالجديـد المسـتطرف، والغريـب

المعيب. وهو في كل الحالات من اكثر الشعراء ذكرا للدهر – كما قلتُ – وتصويرا له، وحديثا عنه.

٦. أن تأثير الشعر الدهري قبل أبي تمام موجود في اختياراته الشعرية، – واختيار الرجل كما قيل وافد عقله–، – ظاهر أثره في معاني شعره في الدهر و في صوره الشعرية فيه. ولكن أبا تمام بارع جدا في الأخذ، متلطفٌ في الاتكاء، ماهر في الاقتداء، حتى إن كثيرا من احتذاءاته وأخذه خافية، إلا على البصراء من النقاد القدماء، وأهل التبحر في الرواية للشعر منهم، وهذا باب أغلق الآن أو كاد.

وبعد فهذه أمهاتُ النتائج. وهناك نتائج أخرى كثيرة في ثنايا البحث وطواياه، لا تخفى على القارئ الفطن. وهذا ما يسر الله إنجازه من هذا البحث، و بقيت فيه بقية لمستزيد، وفضلة لمتبحِّر، وإني لأرجو أن أكون قد خطوت به خطوة على طريق هذا الباب من العلم، تتلوها مني أو من غيري خطوات. والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، وعلى التابعين لهم بإحسان، في كل الدهور والأزمان.

وكتبه

أبو حازم

كمال عبد الباقي لاشين

- أبو تمام الطائي.حياته وحياة شعره: نجيب محمد البهبيتي.مطبعة دار الفكر. بيروت ١٩٧٠م.
- أبو تمام الطائي حياته وشعره في المراجع العربية والأجنبية : كوركيس عواد وميخائيل عواد . مطبعة الإرشاد. بغداد. صدر بمناسبة انعقاد مهرجان أبي تمام في الوصل من: ١١ – ١٤ كانون الأول ١٩٧١م
- أخبار أبي تمام: لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي (٣٣٥هـ). تحقيق خليل محمود عساكر وآخَرَيْن . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٣٧م.
- أدب الدنيا والدين: لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي. تحقيق مصطفى السقا ط الذخائر (١٢٧). شركة الأمل للطباعة والنشر .سبتمبر ٢٠٠٤م.
- الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان، المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية: لضياء الدين بن الأثير ٦٣٧٠هـ) تحقيق: حفني محمد شرف مطبعة الأنجلو المصرية ١٩٥٨م.
- أساليب الصناعة في الشعر الجاهلي : أحمد محمد النجار. الطبعة الأولى ١٩٩٢م. القاهرة. لخدمات الطباعة. القاهرة .
- الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (٣٥٦هـ) :تحقيق إحسان عباس وآخرَيْن. دار صادر. بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

- الأمالي لأبــي علــي إســماعيل بــن القاســم القــالي (٣٥٦ هــ) دار الكتب المصرية ١٩٢٦م.
- أمالي المرتضى: أو: غرر الفوائد ودرر القلائد لعلي بن الحسين المرتضى (٤٣٦هــ). تحقيــق محمــد أبــو الفضل إبراهيم.دار إحياء الكتب العربية. الطبعة الأولى ١٩٥٤م.
- الإنسان والتاريخ في شعر أبي تمام: أسعد أحمد علــي: دار الكتاب اللبناني. بيروت: الطبعة الثانية١٣٩٢هــــ / ١٩٧٢م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضــاوي. ط الحلبــي ١٩٦٨م.
- يأويل مختلف الحديث لأبي محمد عبد الله بن مسلم بــن قتيبة ٣٧٦ هــ) دار الكتب العلمية. بيــروت . لبنــان. الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
- . تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط عيسى الحلبي.
- تفسير أبي السعود: ط دار الفكر دون تاريخ.
- . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: أبي بكر أحمــد بــن علي...(٤٦٣هــ) ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
- . الحركة النقدية حول مــذهب أبــي تمــام: تاريخهــا وتطورها وأثرها في النقد الأدبي: محمــود الربــداوي. دار الفكر العربي. بيروت ١٩٧١م.
- . الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام: عبد الفتاح لاشين. ١٩٨٢م.عارف. ١٩٨٢م .

- دلائل الإعجاز في علم المعاني لعبد القاهر الجرجاني. تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا. نشر مكتبة القــاهرة ١٩٦١م.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيــب التبريــزي . تحقيــق محمد عبده عزام. دار المعارف. ١٩٦٩م. وذكر فــي الحواشي بلفظ : "ديوانه"
- ديوان الأعشى الكبير شرح الدكتور محمد محمد حسين. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٧٤م.
- ديوان عبيد بن الأبرص: تحقيق حسين نصار. مطبعة مصطفى الحلبي ط. الأولى ١٩٥٧م.
- ديوان النابغة الذبياني. تحقيــق محمــد أبــو الفضــل إبراهيم.١٩٩٠م.عارف. ١٩٩٠م .
- ديوان الهذليين. ١٩٤٨م.ار الكتب المصرية. ١٩٤٨م . القاهرة.
- رسالة الغفران لأبي العلاء المعــري ٠(٤٤٩هــــ). تحقيـــق بنـــت الشـــاطئ دار المعـــرف. الطبعـــة السادسة.١٩٧٧م.
- سر الفصاحة لابن سنان عبد الله بن محمــد الخفــاجي (٤٦٦هــ). تحقيق عبد المتعال الصــعيدي. مطبعــة صبيح ١٩٥٢م.
- سمط اللآلي لأبي عبيد البكري تحقيق :عبــد العزيــز الميمني. مطبعة لجنة التأليف ولترجمة والنشر ١٩٣٦م.

- شرح ديوان الحماسة لأبي علـــي أحمـــد بـــن محمـــد المرزوقي (٤٢١هـــ). نشر أحمد أمين وآخر. مطبعـــة لجنة التأليف والترجمة والنشر. الطبعة الثانية ١٩٦٧م.
- شرح ديوان زهير: صنعة أبي العباس أحمد بن يحيـــى بن زيد الشيباني ثعلب. الدار القومية للطباعـــة والنشـــر ١٩٦٤م.
- شرح المفضليات لأبي زكريا يحيى بن علي بن محمـــد التبريزي الشيباني ٥٠٢هـــ). تحقيـــق محمـــد علـــي البجاوي . دار نهضة مصر ١٩٧٧م.
- شعراء النصرانية: لويس شيخو. المطبعة الكاثوليكيـــة. بيروت ١٨٩٠م.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق أحمد محمد شـــاكر. دار المعارف. الطبعة الثالثة ١٩٧٧م.
- صحيح البخاري. ط الحلبي
- . الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هـــلال العســـكري. تحقيق علي محمد البجـــاوي وآخـــر. مطبعـــة عيســـى الحلبي.
- طبقات فحول الشعراء: لأبي عبد الله محمد بن ســـلام الجمحي. قرأه محمود شاكر. مطبعة المدني. القاهرة.
- عبقرية أبي تمام: عبد العزيز ســـيد الأهـــل. بيـــروت ١٩٥٣م.
- العقد الفريد: لأبن عبد ربه الأندلسي. تحقيق أحمد أمين وآخرين. لجنة التأليف والترجمة والنشر.١٩٤٨م.

- الفتوحات الإلهية للشيخ الجمل. ط عيسى الحلبي. دون تاريخ.
- كتاب الوحشيات وهو الحماسة الصغرى لأبي تمام . تحقيق عبد العزيز الميمني ومحمود محمد شاكر. دار المعارف ١٩٧٠.
- الكامل في التاريخ لأبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير ٦٣٠هـ). دار صادر بيروت.
- لسان العرب لابن منظور المصري (٧٠٠هـ) دار المعارف . القاهرة.
- ليال خمس مع أبي تمام: محمد عبده عزام دار الكاتب المصري. القاهرة ١٩٤٨م.
- المتنبي في مصر: دراسة تؤرخ لنفس أبي الطيب في مصر: كمال عبد الباقي لاشين. مطبعة الحسين الإسلامية. القاهرة ١٩٩٣/.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر: تصنيف الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبي لحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (٣٤٦هـ): تحقيق محمد محيي لبدين عبد الحميد. مطبعة السعادة ١٩٥٨م.
- مفاتيح الغيب للفخر الرازي ط دار الغد ١٤١٤هـ.
- المعمرون والوصايا: لأبي حاتم السجستاني (٢٥٠هـ) تحقيق عبد المنعم عامر. عيسى الحلبي ١٩٦١م.

- المقتطف من أزاهير الطرف لابـن سـعيد الأندلسـي. تحقيق : سيد حنفي حسنين . سلسلة الـذخائر. سـبتمبر ٢٠٠٤م.
- المنازل والديار: لأسامة بن منقذ (٥٨٤هـ) تحقيق مصطفى حجازي. المجلس لأعلى للشئون الإسـلامية. القاهرة ١٩٩٤م.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنـواع من صناعة الشعر للمرزباني : تحقيـق علـي محمـد البجاوي . ١٩٥٦م.ة مصر. ١٩٥٦م .
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي. تحقيـق : السيد أحمد صقر . دار المعـارف. الطبعـة الثانيـة ١٩٧٢م.
- نهج البلاغة: ما اختاره الشريف الرضي من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه :شرح الشيخ محمد عبده. ط. الذخائر. الهيئة لعامـة لقصـور الثقافـة. نـوفمبر ٢٠٠٤م.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني أبي الحسن علي بن عبد العزيز (٣٦٦هـ) تحقيق محمـد أبو الفضل إبراهيم وآخر. دار إحياء الكتـب العربيـة. الطبعة الثانية ١٩٥١م.
- وفيات الأعيان، وإنباء أبناء الزمان لابن خلكان: أبـي العباس أحمد بن محمد (٦٨١هـ) تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت ١٩٦٨م.

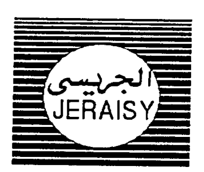
الفهـــــرس

تم بحمد الله

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٥٩٩١

٢٠٠٥/٣/١٩



للكمبيوتر . الطباعة . التصوير
ت: ٣٨٠٣٥٥٦ / ٥٢٣٧٢٤٩ / ٥٩٠٩٠٥٠ القاهرة
محمول: ٠١٠٦٥٣٥٥٢٥ / ٠١٠٦٤٩٧٣٩٥ / ٠١٠٣٣٤٦٣٢١ / ٠١٢٣٤٦٢٥٢٢.